

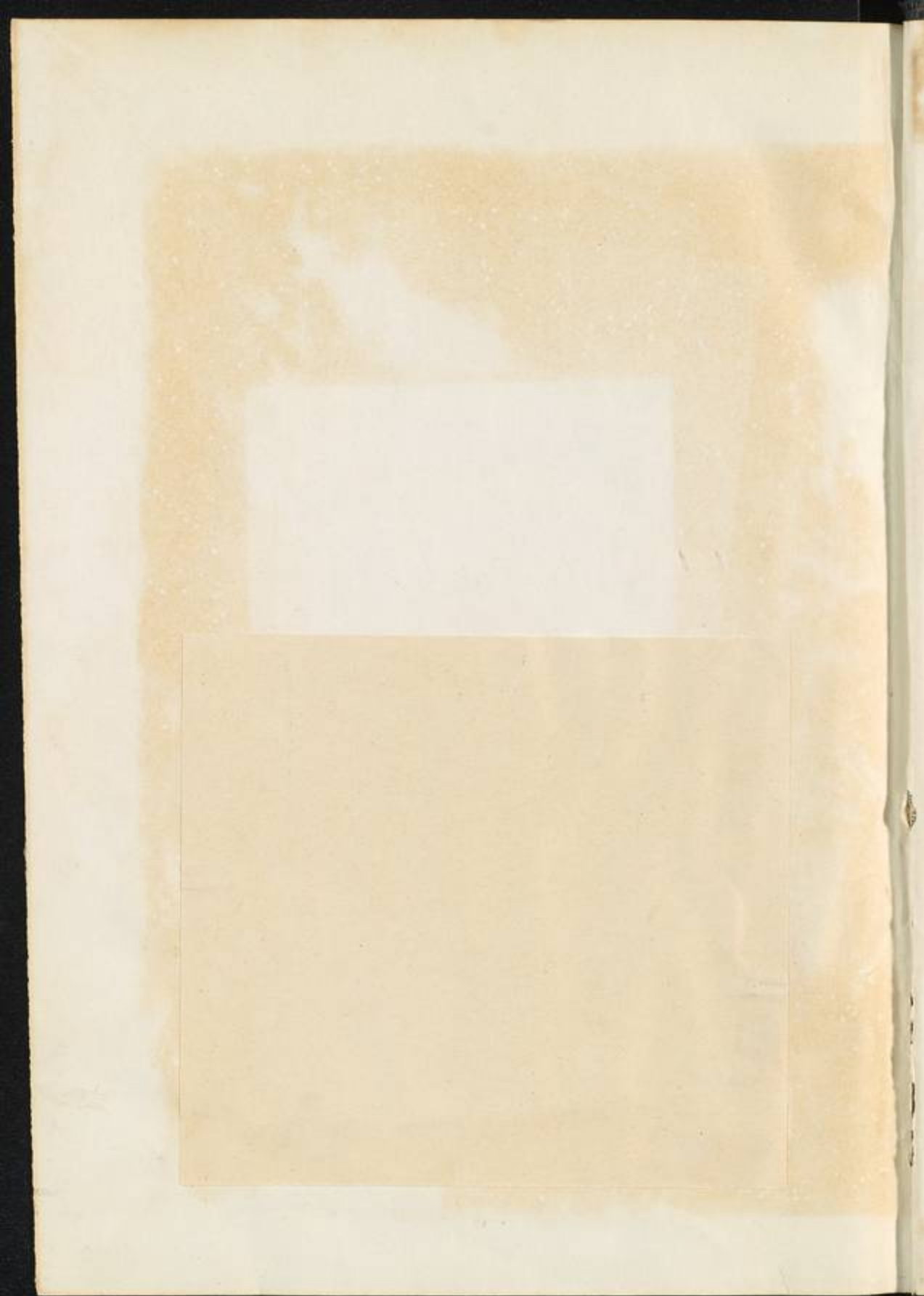
جسبي

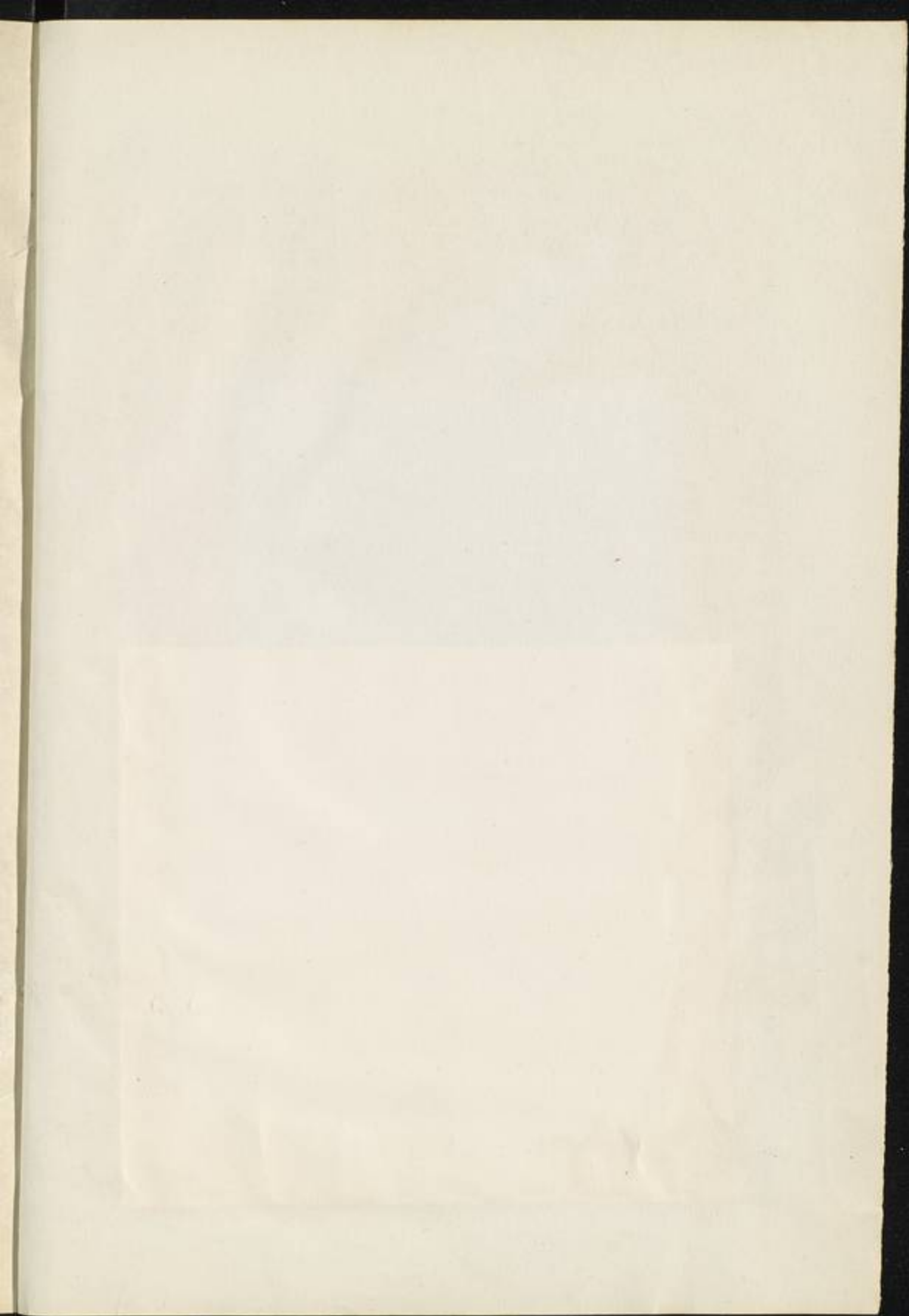
نور الدين والملبيون

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES







حسن حبشي

مدرس بدار المعلمين العالية ببغداد

نور الدين والصليبيون

حركة الإفافة والتجمع الإسلامي في القرن السادس الهجري

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

893.713

H113



فصل فی بیان سیرت ائمه
عجل الله فرجهم

مکتب
کتابخانه

NO. 8
1958.713

تصميم

للدكتور محمد مصطفى زبارة

أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة فؤاد الأول

لا مشاحة في القول بأن التاريخ المصرى فى العصور الوسطى — وتاريخ البلاد العربية والإسلامية جميعاً — بحاجة إلى عرض جديد، مزاجه البحث العميق والاستقصاء، حبا فى الوصول إلى الحق. وليس سرا أن السالفين — يرحمهم الله جميعاً بلا استثناء — ساروا على طريقة النقل من المراجع الكبيرة والصغيرة، والمعاصرة وغير المعاصرة، دون رجوع إلى العقل والسنن الكونية، فضلا عن قواعد الجرح والتعديل، كما دأبوا على اعتبار التاريخ ثباتاً جامداً لأخبار الدول، وتعاقب الملوك، وحوادث العزل والولاية، على شرط أن يتخلل ذلك الثابت عندهم من القصائد الشعرية ما يريح القارئ من عناء القراءة، كأنما التاريخ مشقة، أو قطعة من العذاب، ولا بد لقارئه بين الفينة والأخرى، من معلقة أو ملحمة، أو بيتين أو ثلاثة، إذا عدت المعلقات والملاحم، كما يتفكك بها، وهو يقارن المطالعة فى التاريخ، ومن الواضح أن مثل هذا الإنتاج، لا يمكن إلا أن يسمى خليطاً من الأدب والتاريخ، دون أن يرقى إلى التسمية بهذا أو ذاك، وهو على كل حال نمط فاسد، وانه، وانتهى زمانه، ومات أربابه وأجابه، والمستطيعون صبراً على قراءته.

وأولئك السالفون من آباء تلك المدرسة وأبنائها وبقاياها، والتابعين لهم من غير إحسان أو إتقان، معذورون فى طريقهم، مبتلون بها، لأنهم ينقلون من مراجع تلك طريقتهما، ويظنون أنه ليس فى الإمكان أبدع مما

OCT 8 1958 115

كان . وهذا مذهب غريب على التاريخ وأهله ، لأن التاريخ سجل التطور
الإنساني ، وهو لا يعيد نفسه ألبتة ، بل يتوالد بعضه من بعض ، ولا شبهه
بين السابق منه واللاحق إلا بمقدار ما بين أجيال الناس من شبه ظاهري .

على أن العرض الجديد للتاريخ المصري في العصور الوسطى خاصة ،
وللتاريخ الإسلامي عامة ، لا يمكن أن يتأتى على يد مؤرخ واحد ، مهما حسن
عمله ، إذ الأمر يتطلب أولا إحياء الكثير من الكتب والمراجع بالنشر
العلمي الصحيح ، وتلك عملية طويلة ، ثم يتلو ذلك أبحاث عميقة في مساحات
تاريخية معينة ، ومواضيع محدّدة ، وتلك أيضا عملية طويلة . وكل هذا وذاك ،
يتطلب جيلا عديدا من المؤرخين الذين يكونون بمثابة الرائدین ، يرودون
القفور والمفاوز والأدغال ، ليمهدوا لأنفسهم ، أو لمن يقتفي أثرهم ، سواء
بالقيام على نشر مرجع من المراجع الأصلية في التاريخ ، أم بالتوفر على
بحث مشكلة تاريخية واحدة .

وعنوان الكتاب الذي أقدم له بهذه الكلمة القصيرة يدل في وضوح
على أن صاحبه من الفئة الثانية من أولئك الرائدین ، المدرکین بأن عملهم
سوف يكون حجرا طيبا في بناء المدرسة التاريخية في الشرق الأوسط ، إذ
يعالج في روية وأناة ، وأسلوب فني ، علاقة نور الدين بالصلبيين ، وهي
ناحية واحدة من نواح متعددة في تاريخ الحروب الصليبية ، ولا بد من التوفر
على تلك النواحي المتعددة ، بأبحاث منفردة مشابهة ، حتى يصبح من المستطاع
كتابة تاريخ الحروب الصليبية من الناحية الشرقية ، على وجه سليم . أما
الاعتماد على فهم الحروب الصليبية وتدريسها من الناحية الأوربية فحسب ،
ومن المراجع الأوربية فحسب ، فإنه لم يعد جديرا بالشرق الحديث .

ومما يجعل موضوع هذا الكتاب قيما يبحث منفرد ، أن العلاقات بين
نور الدين والصلبيين هي نقطة التحول في تاريخ تلك الحروب ، لأن الأساس

الذي استطاع نور الدين أن يقيم أركانه ، هو الذي مكّن لصلاح الدين في أرض مصر وفلسطين والشام وشمال العراق ، وساعده على إنجاح الحرب الخاطفة التي شنّها على الصليبيين قبل حطين وبعدها ، حتى بات رتشارد قلب الأسد — ملك إنجلترا — يفكر في إحلال المفاوضة والمخالفة ، والصدقة والسلام ، محل المقاتلة والمناضلة ، والعداوة والقتال . وربما كان استيلاء نور الدين على دمشق ، سنة ١١٥٤م ، أكبر دليل على صحة الدعوى بأن أعماله هي نقطة التحول في تاريخ الحروب الصليبية . وأبلغ من ذلك في إثبات تلك الدعوى استيلاء نور الدين كذلك على مصر ، سنة ١١٦٨م ، بفضل قاداته الطامحين من بني أيوب ، إذ المعروف أن مصر صارت مركز الهجوم والدفاع عن الشرق الأوسط ضد الصليبيين منذ أواخر القرن الثاني عشر الميلادي فصاعداً ، وإليه يرجع الفضل في إخراج الصليبيين نهائياً من الشام وفلسطين . على أن أفضال نور الدين لا تقف عند ذلك الحد البعيد ، بل يدل نجاحه في توحيد الشرق الأوسط على ما تستطيعه البلاد الشرقية من الحياة الكريمة ، والهيبة والكرامة ، إذا توحدت أجزاءها . وإذا كانت وسائل ذلك في العصور الوسطى هي الفتح والنصر القريب والبعيد ، فإن من وسائل التعاون الحديث في ميادين الثقافة ، والاقتصاد ، والتعليم ، ما يكفل الوصول إلى تلك الغاية الضرورية لإضاءة الهلال الخصيب وبلاده وأطرافه التي صارت في نظر الدول الأوروبية ووحدة إقليمية ، كما ظلّت في نظرهم زمن الحروب الصليبية .

وتبين تفاصيل استيلاء نور الدين على دمشق في الفصل الثالث من هذا الكتاب اللامع ، حيث قضى نور الدين قضاء مبرماً على فكرة التوسع الصليبي جنوباً ، كما تبين أخبار الاستيلاء على مصر في الفصل الرابع منه ، حيث يبدو واضحاً أن توفيق نور الدين في تلك الناحية لم يرد إلى إزالة الخلافة الفاطمية فحسب ، بل تعداه إلى وضع الصليبيين بين شقي الرحى التي طحنت قواهم ، في دأب واستمرار ، إلى أواخر الحروب الصليبية .

على أن لهذا الفصل الرابع أهمية أخرى ، وهي احتواؤه على صفحات مبتكرة تغير ما توارد في كتب المؤرخين بصدده بعض الحملات الصليبية ، لإخراج صلاح الدين وزير نور الدين من مصر . إذ المتوارد في تلك الكتب أن أموري - ملك بيت المقدس - حالف مانويل كومنين إمبراطور الدولة البيزنطية ، وروج ملك صقلية ، لتنفيذ هذا الأمر ؛ والحقيقة - كما بينها المؤلف من المراجع الأصلية العربية والأجنبية في ذلك الفصل - هي أن كلا من أولئك الملوك عمل لحسابه طواعية لتحقيق أغراض اقتصادية بحتة ، منبعا ما للبلدان الإيطالية من أثر في توجيه الصليبيين وغير الصليبيين ، منذ أن فتحت أسواق الشرق أبوابها للتجارة ، وصار للبلدان الإيطالية جاليات تجارية قوية .

وللفصل الخامس من هذا البحث ميزة تستوجب الانتباه ، إذ عالج فيه المؤلف موضوع العلاقات الاجتماعية السلبية بين الصليبيين والمسلمين ، رغم ما بين الفريقين من حرب متواصلة أحيانا ، متقطعة أحيانا أخرى ، وهو موضوع لم يسبق إليه بين المحدثين .

كل ذلك في أسلوب علمي يُستشف منه أن المؤلف أوسع موضوعه - وحول موضوعه - قراءة وفهما ، وتحليلا وإمعانا ، في معرفة التفاصيل ، مع العناية بإبعاد التفاصيل عن سبيله في الكتابة ، وهو هنا مبتكر أيضاً إلى درجة لا يشاركه فيها إلا الأقلون من أبناء هذا الجيل ، فإن التاريخ ليس مجرد تدوين لتفاصيل أحداث الإنسان على نمط أصحاب الحوليات ، بل هو نقد وتحليل ، وشرح للقيم الحقيقية ؛ وهذا لا يتأتى طبعاً إلا بعد تحقيق التفاصيل وتمحيصها وهضمها ، وتقديم عصارتها تاريخياً يقرؤه الناس .

وأذكر أن المؤلف لم يأل جهداً في عمله ، ولم يحسب الوقت أو للامتحان ومواعده حساباً ، بل كان هدفه أن يخرج رسالة علمية خالصة ، في حجم معقول ، لا ضخامة فيها ولا تطويل ، ولا تنطع ولا رسوب في الأسلوب ، وأرجو

أن يلزمه التوفيق لمثل هذا النمط فيما يزمعه من التأليف ، وفيما سوف يتأهل
به لمكانة لائقة بين أفاض المؤرخين .

على أنى لا أقصر هنا على مجرد التمنى لمؤلف حديث وهو في أول الطريق ،
بل أرجو كثرة من أمثاله الذين تطمئن بهم قلوب أهل النهضة الحديثة ، كما
أرجو كثرة من أمثال كتابه الذي يعد بحق نموذجا في التأليف الحديثة ، في
المكتبة العربية الناهضة .

محمد مصطفى زبارة

بغداد الجديدة { رجب ١٣٦٧ هـ
مايو ١٩٤٨ م }

مقدمة المؤلف

في هذا الكتاب بحث مقارن في أطوار العلاقات بين السلطان نور الدين وملوك الصليبيين، في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي، قدمته لقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول لنيل درجة الماجستير، ولم أغير من صورته الأولى لإقليلا، مما اقتضته معاودة النظر في الموضوع ثانية. وعلى أية حال ملأت به بعض وقتي أثناء اشتغالي به، وجعلت همي الأول مطالعة المصادر الأصلية في العربية واللاتينية، إلى جانب المراجع الإنجليزية والفرنسية الحديثة، المتعلقة بالشرق الأدنى في ذلك القرن الذي شهد حركة إفاقة عامة في البلاد الإسلامية بعد أن حل الصليبيون في بعض أرجائها، وقد بدت تلك الإفاقة أول ما بدت بشمال العراق، ثم استتضات بها شخصيات الشام، حتى سطعت نهائيا في قيام الدولة النورية، ومحاولتها الناجحة في تكتل القوى الإسلامية لدرء الخطر الصليبي، وسبيل ذلك توحيد مصر والشام وشمال العراق تحت راية واحدة. وأحسب أن أمثال هذه الموضوعات، هي بعض ما يجب أن ينصرف إليه هم المشتغلين بالتاريخ الإسلامي في العصر الوسيط، لتجلية ما بالشرق من طاقات واستطاعات، وما يكمن فيه من وعى قومي يرمي إلى اعتبار الكتلة الممتدة من أطراف آسيا العربية إلى وادي النيل وشمال إفريقيا وحدة إقليمية، متشابهة الخصائص، متجانسة الصفات، متحدة الأسس والأهداف، وحوادث العصور الوسطى في الشرق الأدنى تشرح كيف تمكنت تلك البلاد من أن تدفع عن نفسها خطر القوات الصليبية، وأن تفسد أغراضها المتضاربة بفضل ذلك التكتل.

ويحال بعض القراء عند مطالعة عنوان هذا الكتاب أنهم سوف يجدون بين دفتيه عرضا لحياة نور الدين، منذ ولادته حتى مماته، وأخشى أنهم سوف يجدون غير ذلك، لأنني لم أكتب ترجمة لنور الدين، ولم أتعرض

لما بنى من المباني والعائر والربط والمساجد، بل إنني شديد الكراهية للصورة التي يحاول بها بعض الكتاب المسلمين الترجمة لنور الدين، إذ يتخيله البعض رجلاً تقياً سهلاً في زى ملك، أُلقت إليه الصدفة بزمام الحكم، وما ذلك عن كراهية منى لتلك الصفات - وهي جديرة بالاحترام - ولكن لما يسمونه له من صورة الدرويش، على حين أن الذين يستعرضون تاريخه يتجلى لهم في وضوح مقدار الدهاء الذي انطبع عليه السلطان نور الدين، وهو يحرك الشخصيات المختلفة، لتحقيق فكرة الجبهة الإسلامية المتحدة، وتكويرها من القوى الصغيرة المشتتة، التي دبت فيها عوامل الضعف السياسى والاجتماعى والمذهبي، وبجمل القول أن نور الدين - في أى وضع - رجل تساوت فيه نواحي الإبداع والعظمة من الناحيتين الروحية والسياسية .

والواقع أن الذى يطالع المصادر الأولى لهذا العصر لا يجد إلا تنفامبعثرة هنا وهناك لتقدير تلك الشخصية، لأن أصحاب تلك المراجع اهتموا - إن كانوا مسلمين - بإبراز الجانب الدينى فى نور الدين والمبالغة فى تقواه - وإن تكن غير منكورة - مما يخيل معه للقارىء أن السلطان كان منصرفاً إلى شئون أخراه بدرجة تصرفه عن معالجة شئون دنياه، وعالمه يومئذ علم يوضح بالصراع العنيف بين الشرق والغرب، ومظهره قيام الإمارات اللاتينية بالشرق، ومحاولة المسلمين القضاء على هذه الإمارات ذاتها. وهؤلاء الكتاب المسلمون مثابون بقدر نواياهم .

إما إن كانوا مسيحيين فتجلى عظمته من حيث وصفهم لأعماله فى كثير من السخط أحياناً، واللعن أحياناً أخرى، ورب لعنة كانت أصدق من المدحة فى الدلالة على أهمية الشخص، وهنا تتجلى صنعة المؤرخ فى استخلاص الحقيقة من أى مصدر، بالغا ما بلغ فى المدح أو القدرح .

ولا أحب أن استعرض فى هذه الكلمة فصول الكتاب، إذ أتركة يتحدث عن نفسه، لكننى أشير عرضاً إلى العلاقات السلمية بين المسلمين والصلبيين، لأن طبقات المجتمع فى هذا العصر هرمية، قتها السلاطين

والخلفاء والأمرام في المجتمع الإسلامي ، والأباطرة والدوقات والقوامس في المجتمع الصليبي ، أما ما تحت هذه القمة في كلا الجانبين فطبقات الشعب ، وإذا كان هناك تنافر ما فإنه اقتصر على القميتين ، وأما ما سواهما فعلاقات من المودة والرحمة والترابط ، التي تسمو إلى درجة الأخوة ، وأي سمو في الأخوة أجل من أن يفتح المسيحي كنيسة السلم للصلاة فيها !

وإنتي لا أستطيع أن أختم هذه المقدمة إلا بشكر أستاذي الدكتور مصطفى زيادة الذي أتمت هذا البحث تحت إشرافه وإرشاده ، كذلك أرفع الشكر لأستاذي صاحب العزة شفيق بك غربال وكيل وزارة المعارف العمومية ، لتشجيعه المتواصل إياي وغيرى من أبناء المدرسة الحديثة في التاريخ . وأزجى شكري لأستاذي الدكتور حسن إبراهيم حسن ، لتفضله بالمشاركة في امتحان الماجستير والمناقشة ، ولا أحب أن يفترق التنويه بفضل مسيو كوينتز M. Quentz ، مدير المعهد الفرنسي للآثار المصرية بالقاهرة ، إذ تفضل فأذن لي بمراجعة ما أريد من مكتبة المعهد .

وبعد فأرجو أن أكون وفقت بعض التوفيق في تبيان شيء من ملامح ذلك العصر الغامضة ، وحسبي ذلك ، والسلام .

حسن مهدي

منيل الروضة - القاهرة

الأحد ٢٦ سبتمبر ١٩٤٨

الفصل الأول

القوى الإسلامية والمسيحية بالشرق الأدنى

في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي

ظهور حركة مقاومة الصليبيين بشمال العراق . حركة مودود الأولى سنة ٥٠٤ هـ . استغاثة رضوان بالخلافة العباسية . إعلان أهل بغداد للجهاد . حملة مودود الثانية ٥٠٥ هـ . اتحاد أمراء شمال العراق والشام . مقتل مودود . حملة إيلغازي لنجدة حلب . قيام ملك بالدعوة للجهاد وأسر جوسلين الأول ثم بلدوين الثاني . قيام آق سنقر في إمارة الموصل . مقتله على يد الحشاشين . ظهور زنكي بالموصل . محاولته تكوين جبهة إسلامية بالقوة . موقف دمشق . موقف صفوة الملك زمرد خاتون منه وزواجها به . حصاره بلبك . اصطدامه بالتحالف الدمشق الصليبي . جوسلين الثاني . زنكي والرها . سقوطها في يده ٥٤٢ هـ . معاملته لمختلف الجماعات بها . مقتله ٥٤٤ هـ .

طلع القرن الثاني عشر الميلادي على المسلمين وقد تكونت بالشرق الأدنى أربع قوى صليبية ، هي مملكة بيت المقدس وإمارات أنطاكية وطرابلس بالشام ، والرها بشمال العراق^(١) ، وكان لمملكة بيت المقدس الرئاسة على تلك الإمارات ، وإنما تزيد هذه الرئاسة أو تنقص تبعاً لشخصية المهيمن على شؤون المملكة ، كما يتضح ذلك من عهد بلدوين الأول (١١٠٠ - ١١١٨ م) وفولك الخامس (١١٣١ - ١١٤٢ م) اللذين جعل كل منهما من شخصيته موثلاً وملاذاً وناصحاً لبقية أمراء الصليبيين بالشام واستتب الأمر

(١) فيما يتعلق بتفصيل تكوين هذه الإمارات اللاتينية ، راجع حبشي : الحرب الصليبية الأولى ، ص ٤٨ - ٨٠ .

للصليبيين في تلك الجهات الأربع منذ قيامهم بها تقريبا ، ويرجع معظم الفضل في ذلك الاستتباب لما تردت فيه الإمارات والجماعات الإسلامية من ضعف ظاهر للعيان ، فضلا عن الانشقاق المذهبي الناشب بين خلافة بغداد السنية وخلافة القاهرة الشيعية مما سهل على الصليبيين زحفهم إلى قلب فلسطين في كثير من الأحيان ، ولو تأتى للأقطار الإسلامية أن تتحد يومذاك فيما بينها ، وتنسى ما بين بعضها والبعض الآخر من الحزازات لاستطاعت أن تحفظ فلسطين من عبث الطارق الأجنبي ، وأن تحفظ بالتالى نفسها من تطلع هذا الغريب إليها ، ذلك أن فلسطين هي خط الدفاع الأول عن بقية العالم الإسلامى في الشرق الأدنى .

غير أن فكرة الوقوف في وجه الصليبيين أخذت تنمو في مستهل ذلك القرن بين أفراد قلائل من المسلمين بشمال العراق أولا ثم ببلاد الشام ولكنها لم تنضج تماما ، فلم يكن الدحارين «عزيمة صادقة في جهاد ولا حماية بلاد»^(١) ، ولعل فكرة مناهضة الصليبيين قد وجدت بفضل زوال الخوف الذى استولى على مختلف القوى الإسلامية في بادىء الأمر من تقدم الصليبيين السريع في الشرق ، وبروز المطامع الشخصية بين زعماء الصليبيين أنفسهم ، حتى أخذ بعضهم في السكيد للبعض الآخر ولو اقتضى الأمر من أحدهم مخالفة خصوم أبناء جنسه ودينه ، مع أنه لم يمحض على مجيئهم للشرق إلا بضع سنين .

أما العالم الإسلامى يومذاك — باستثناء مصر والعراق — فكان مؤلفا من ولايات صغيرة لا تعدو الواحدة منها — في بعض الأحيان — بلدا واحدا ، وكلها متنافر سياسيا ومذهبيا ، وأهمها حلب وأميرها رضوان الذى قصر في مساعدة القوات الإسلامية وتركها تواجه الصليبيين وحدها مما أدى إلى هزيمة الدماشقة عند بلدة « البارة » سنة ٤٩٠هـ^(٢) . وتنبه رضوان —

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٥ .

(٢) ابن القلانسى : شرحه ، ص ١٣٤ + ٢٤٤ Raym. d'Agiles , p. 184 ; G. T. ,

بعد لآى - إلى الخطر الصليبي ، فاتحد مع سكان صاحب خلاط ومع ابن ياغى سيان فى أنطاكية على مباغته العدو الزاحف جنوباً صوب أنطاكية بقيادة بوهيمند النورمانى فى فبراير ١٠٩٨ م ، إلا أن المسلمين لم يوقفوا فيما اعتموه^(١) .

ثم هناك شيزر العربية الخالصة التى أرادت أن توجد لها مركزاً سياسياً مستقلاً عن السلاجقة بإيثارها العاقية مع الصليبيين^(٢) ، وهذه سياسة نهجها بنو منقذ الكنتانيون فعدوا فى تاريخ تلك الحقبة مثلاً للسلمة والأخوة وأمثال هذه الصفات ، فلم يكونوا رغم كثرتهم فى شىء من الشر وإن هان ، فتراهم يجزون من ظلم الصليبيين مغفرة ومن إساءتهم إحساناً .

أما دمشق فكانت وقت مقدم القوات الصليبية الأولى تحت إمرة طغتكين الذى عقد مع بلدين الأول ملك بيت المقدس سنة ١٠٩١ م معاهدة اتفقا بمقتضاها أن يتقاسم الاثنان مع الفلاحين أرض السواد وبعجلان وجبل عوف^(٤) . على أن تلك التوفيقات التى صادفها الصليبيون أنتجت سلسلة من الأمراء المسلمين الذين حملوا علم الجهاد بشمال العراق ، لا سيما بعد أن بدأ عجز السلاجقة عن الوقوف فى وجه الصليبيين . لكن ما هى علة ظهور حركة المقاومة فى شمال العراق خاصة دون بقية نواحيه ودون بقية العالم الإسلامى عامة ؟ ... لعل نظرة إلى الخريطة تفسر لنا السبب ، وهو متاخمة الرها التى استولى عليها الصليبيون لذلك الإقليم الذى أدرك أهله أن لا بد من تطلع

(١) Gesta Francorum, p. 85; G. T., p. 194-199. حبشى : الحرب الصليبية الأولى . ص ١٣١ - ١٣٢ .

(٢) Gesta Franco., p. 181, note 6, G. T., p. 295.

(٣) Derembourg : Vie d'Ousama, t. I, p. 15 - 28, Ency. Isl. art Shaizar, (٣)

J. R. A. S., 1933, p. 279.

(٤) لم يلبث ملك بيت المقدس أن قضى هذه المعاهدة ، راجع ابن القلانسى ، التبيل ،

Gibb : Damascus Chronicle of the Crusades, p. 92 من ١٦٤ ، ٢٧٤ ،

Grousset : Hist des Croisades, t. I, p. 678 - 684. وراجع للمحقق الوارد فى

الصليبيين - أن آجلا أو عاجلا - للتوغل في بلادهم وانقضاضهم على أطراف تلك المناطق العليا من العراق عند أول فرصة ملائمة ، وهكذا لعبت الجغرافية دوراً هاماً في بعث المسلمين على التفكير الجدى في المبادرة إلى مهاجمة المسلمين ، وبدءوا بالرها ذاتها .

كانت الرها من أقرب البلاد إلى نفوس المسيحيين من الناحية الدينية ، بسبب ما يزعمونه من القوى السحرية الفعالة لبعض قديسيها أمثال مار برسومة ، واعتزازها بمنديل المسيح^(١) ، وقد أصبحت الرها بعد استيلاء الصليبيين عليها سنة ١٠٩٨ م من أمنع المعاقل بفضل تحصيناتها لها ، ولم يخف على المؤرخين الذين كتبوا بصددها مقدار الأهمية التي ينعم بها من تكون الرها في يده . لتوسط موقعها ولسيطرتها على الطرق المؤدية إلى حلب والموصل^(٢) ، فهي تقع على وجه الإجمال غربى دجلة وتصل جنوباً إلى الصحراء وتوجد في شمالها جبال أرمينيا^(٣) ، ولقد كانت هذه الحدود قديماً عرضة للتغيرات بتغير العصور والأمم المجاورة ، ومهما يكن الأمر فقد كانت في الغالب بمنجاة من أيدي المغيرين^(٤) ، أما سكانها فأغلبهم من الأرمن الذين لعبوا دوراً غير تافه في تاريخ تلك الحقبة واتجهت أهواؤهم إلى الصليبيين ، لذا كان طبيعياً وقت ذاك أن يفكر كبار الأمراء المسلمين في انتزاعها من أيدي الصليبيين ، واتخذت الفكرة مظهرها العملى سنة ١١٠٩ م في اتفاق رضوان أمير حلب وإيلغازى أمير ماردين على الإغارة على أملاك تنكريد النورمانى أمير الرها ، غير أن الجفوة لم تلبث أن دبت بينهم ، وسرعان ما تحولوا إلى محاربة سنقر أمير الموصل ، ومن ذلك وحده يظهر

Migne : Ency. Theol. arte "Edesse". (١)

(٢) الكامل لابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٤٤ ، Gussaud : Topographie Hist. de

la Syrie, p. 482; Stevenson : Crusaders in the East, p. 153. (٣)

(٤) يذكر Duval : Hist. Pol. Relig. . . . d'Edesse, p. 97. أن للرها سنة

أبواب كانت لاتزال قائمة سنة ١٨٩١ ، أنظر أيضا Doenm. Arm., t. 1, p. G. T., p. 708 p. 340 - 342.

جليا أن فكرة « الجهاد » لم تكن محتمة في النفوس تماما ، وأن حركة بعض الأُمراء المسلمين وقتذاك لم تكن خالصة لوجه الجهاد .

على أن الفكرة لم تلبث أن ظهرت قوية على يد مودود أتابك^(١) الموصل سنة ١١١٠ م ، إذ اغتتم فرصة استغاثة القاضي ابن عمار^(٢) أمير طرابلس بالخليفة البغدادي المستظهر بالله لدرء الخطر الصليبي عنه وأعلن الجهاد بعد موافقة الخليفة ورضاء السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه . وخرج مودود بجيش كبير وإن كان الانسجام مفقودا بين عناصره ، فرحف أولا على أطراف الرها — وهي أقرب الإمارات إليه — حتى لا يطعن من الخلف إذا تقدم صوب طرابلس ، ولعل ما شجعه على ذلك أيضا ما تراهي إلى سمعه من التنازع وقتذاك بين بلدوين دى بورج أمير الرها وبين تنكريد أمير أنطاكية ، فطمع مودود أن تيسر الجفوة بينهما عليه فتح الرها ، وكيف كان الأمر فمن الطبيعي أن يتطلع مودود إلى ضرب تلك الإمارة بعد أن انضم إليه إيلغازي أمير ماردين وسكمان القطبي أمير خلاط وميفارقين ، فرحف صوب الرها وألقى الحصار عليها سنة ١١١١ م^(٣) .

لم يكن من العسير على مودود فتح الرها لما اجتمع عنده من العسكر الكثيف والرغبة في الجهاد ، هذا إلى الجفوة التي استحكت حلقاتها بين بلدوين

(١) أجل ابن الفلانسى ، ص ١٨٨ ، سيرة مودود ، أما تفسير « أتابك » في الدولة السلجوقية فراجع عنه دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « أتابك » .

(٢) ولى بنو عمار أمر طرابلس منذ ١٠٧٠ م ، وهم سلالة أسرة شيعية انحدرت من بلاد المغرب مع القاطمين ، وتولت حكم طرابلس شبه مستقلة عن مصر حتى جاء الصليبيون فهددوها بزعمامة كونت تولوز ، راجع تاريخها بالتفصيل في حبشى : الحرب الصليبية الأولى ، ص ٧٦ — ٧٩ ، ابن الفلانسى ، ص ١٤٦ — ١٤٧ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٧٨ — ١٨٠ ، وابن الجوزي : مرآة الزمان ، ص ٥٢٨ ، والدائرة ، مادة « ابن عمار » وطرابلس ،

Gesta, p. 185 — 188 ; Raym. d'Agile, p. 275, Derenbourg : Autobiographie d'Ousama p. 378 seq., Dussaud : Topogr. Hist. p. 84.

Albert d'Aix : Liber Christianae (R. H. Occ. Cr.) t. IV, p. 670 ; (٣)

Matthew d'Edesse, p. 91.

دى بورج وبين تنكريد ، غير أن آماله ذهبت بددا لإزالة بلدوين الجفوة بين الأميرين الصليبيين وجمعه كثيرا من الأرمن تحت رايته وسيره بهم شطر الرها ، مما حمل مودودا على رفع الحصار والرجوع عن محاولته ، وبذلك فشلت أول محاولة في سلسلة «الجهاد» ضد الصليبيين في تحقيق أهدافها ، وإن دلت في الوقت ذاته على إفاقة القوى الإسلامية ، وليس أدل على تلك الإفاقة من تسرب فكرة الجهاد إلى نفوس العامة في البلدان المستظلة بظل الخلافة العباسية واعتناقها إياها إلى حد أنذر الخليفة العباسي بوجوب الانتباه إلى الروح الجديدة التي تمثلت في قدوم جماعة من أشرف حلب وصوفيتها وتجارها وفقهائها إلى بغداد مستغيثين من إفساد الصليبيين في بلادهم ، إذ اجتمع أهل بغداد وقت صلاة الجمعة في شعبان ٥٠٤ هـ وأنزلوا الخطيب عن المنبر وحظموه ، ونادوا بوجوب القيام بالجهاد ، وزادوا فتمنعوا الناس من الصلاة — وهو حدث جد خطير في الدولة الإسلامية — وتكرر هذا الحادث مرة أخرى بمسجد الخليفة ذاته (١) .

ويرجع مقدم الحلبيين إلى بغداد إلى أن تنكريد وجد — حين رجوعه من الرها إلى أنطاكية بعد جلاء مودود — أن رضوان ملك حلب أغار على أنطاكية في غيبته وذلك رغم مواعدة مبرمة بينهما ، وكان الدافع لرضوان على تقرير تلك المحاولة ما جال بخاطره من أن الأمر أوشك أن ينتهي بالخلاص من الصليبيين على يد مودود وأحلافه أمام الرها ، فطمع أن يساهم بنصيب في محاربتهم بالإغارة على أنطاكية ، لكن الحوادث جرت على غير ما توقع وتمنى ، فلم يستطع الاستمرار في حملته على أنطاكية بل انعكست الآية حين خرج تنكريد سنة ٥٠٤ هـ متخشن الصدر على حلب وأهلها وأميرها ، وعات فسادا في بعض نواحيها ، وأسرف في الانتقام من المسلمين الذين صادفهم ، ولم يكتف تنكريد بذلك بل ازدهاه النصر فتقدم إلى

(١) ابن القلائس : الدبل ، ص ١٧٣ .

الأثارب - وهي من أملاك حلب ومن أقوى الحصون الإسلامية إذ
ذاك - واشتد في حصارها حتى سقطت في يده في ديسمبر ١١١٠ م
(= ٥٠٤ هـ) ، وتابعت انتصارات تنكريد بعد ذلك في القرى المجاورة .
وهكذا أدت سياسة رضوان إلى هزيمته ، وهل هناك ما هو أدل على تدهور
أحوال حلب من اضطرابها إلى دفع جزية كبيرة إلى أمير أنطاكية بعد
ذلك كله ^(١) ؟ وتلك الأحوال هي التي حملت بعض الحلبين قبلا إلى قصد
بغداد طالبين من الخليفة إعلان الجهاد ، كما أدت بالكثيرين من أهلها إلى
النزوح عنها والتمس الحياة حرة في أماكن أخرى .

أذن الخليفة وقتذاك لمظاهرة البغداديين لإغاثة الحلبين ، وشجعه على
تلك الحركة أن ألكسيس كومنين إمبراطور الدولة البيزنطية كتب إلى السلطان
محمد السلجوقي يستعديه على الصليبيين لما رآه فيهم من سوء النية ، كما بعث
إلى السلطان بكثير من الهدايا والتحف ، وأنفذ الكتب يطلب إليه الإيقاع
بالفرجة ويعرض عليه اتفاق القوات البيزنطية والإسلامية على طردهم ويشير
من طرف خفي إلى نواياهم في قصد بلاده ، إذ يذكر أنه منحهم من « العبور
إلى بلاد المسلمين » . وغير بعيد أن يكون ألكسيس قد رمى من وراء ذلك
كله إلى ضرب القوات الصليبية بالإسلامية ليفرغ له الجو وليضعف كلا من
الجانبيين ، ومع أن هذا الرأي قد خفي على المسلمين إلا أن عزيمة بغداد
استقرت على وجوب تسيير الجيوش للجهاد ، ومن ثم أُلقيت القيادة مرة
أخرى إلى مودود سنة ٥٠٥ هـ (= ١١١١ م) ، فتوافق عليه أمراء النواحي
المختلفة بجنودهم وغلبانهم ، ودبت في القوم الحماسة تذكيا شتى العوامل ، منها
ما هو ديني ومنها ما هو شخصي بحت . وخرج مودود في سنته هذه بتلك
القوى قاصدا الرها معقل الصليبيين الأشب ، فعزت عليه هذه المرة أيضا
بسبب وجود بلدين الأول ملك بيت المقدس بها وقتذاك فرأى مودود

(١) راجع الشروط في ابن العديم : منتخبات ، ص ٣٩٨ ، وابن الأثير ، الكامل ،

الانصراف عنها إلى ضواحيها ، ومال بمن معه إلى تل باشر أملا في أن يجد في الاستيلاء عليها ما يعوضه عن الارتداد عن الرها . واشتد مودود في حصار تل باشر^(١) التي دافع عنها صاحبها جوسلين الأول ، وكادت البلدة أن تستسلم لولا أن عمده جوسلين إلى رشوة أحد القادة المسلمين واسمه أحمديل الكردي فأبى هذا القائد مواصلة الحصار ، وأشار بوجوب الرحيل عنها لنجدة حلب^(٢) التي كان تنكريد النورماني قد عزم على التنكيل بصاحبها رضوان انتقاماً منه بسبب مهاجمته لأنطاكية من قبل في غيبته ، وتظاهر أحمديل الكردي بوجوب استغاثة رضوان بجيش مودود الذي خاف مغبة الانشقاق في صفوفه ، فنزل على إرادة أحمديل ، وتحويل مودود بمن معه إلى حلب ، وأعد القوم المسير حتى بلغوها ، ولكنهم لم يجدوا من أميرها ترحيباً إذ فرغ من كثرة عددهم ورفض السماح لهم بدخولها أو مديد المساعدة لهم ، رغم أنهم قدموا لنجدته واستجابة لدعوة الحلبيين أنفسهم ، وظل مودود أمام أبواب المدينة حتى انصرف عنه معظم قواده ورجاله مؤثرين العودة إلى أوطانهم .

على أن مقدم مودود إلى حلب — وإن لم يرد إلى نتيجة ما — فإنه نقطة انتقال هامة في تاريخ حركة الإفاقة الإسلامية ، إذ يبدو أنه أدى إلى تطلع مودود لمهاجمة الصليبيين بالشام ذاتها ، وإلى تفكيره في القطع بينهم وبين الرها ، وبذلك انتقل مسرح النضال بين زعماء حركة الإفاقة الإسلامية وبين الصليبيين إلى أرض الشام ، ومن ثم أخذ مودود في التقرب إلى بعض الأمراء الشاميين من المسلمين ، فانعقدت المودة بينه وبين طغتكين أتاك دمشق ، واتفق

(١) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٠٢ ، وابن الشحنة : الدر المنتخب ،

ص ١٦٩ .

(٢) ابن القلانسي : الذيل ، ص ١٧٥ ، وابن العديم : منتخبات ، ص ٥٩٩ — ٦٠٠ ،

Matthiew d'Edesse, Chroniques, p. 114 — 115.

رأيهما على مهاجمة الصليبيين في طرابلس ، ووعدهما سلطان بن منقذ أمير شيزر بالمساعدة ، وهكذا ظهرت بادرة من الاتحاد بين الأمراء المسلمين بشمال العراق وبلاد الشام لأول مرة منذ مقدم الصليبيين إلى الشرق^(١) .

غير أن تلك الحملة التي هاجمت طرابلس سنة ١١١١ م لم تستطع تحقيق شيء ما لحلول فصل الشتاء ، لذا رحل مودود عن الشام ، ثم مالبت بلدوين ملك بيت المقدس أن أغار على بعض قرى دمشق سنة ١١١٣ م ، فكتب طغتكين إلى مودود يطلب إليه القدوم إلى الشام مرة أخرى ، واجتمع الأميران بمرج سلبية^(٢) وذهبا معا إلى دمشق لإعداد العدة ، وهناك قتل مودود بيد أحد الباطنية في تلك السنة، فكان مصرعه ضربة للجهاد الإسلامي وإنقاذا للجماعات الصليبية ، لكن إلى حين .

ذلك أن فكرة محاربة الصليبيين هدأت مؤقتا بعد مقتل مودود لاضطراب الأمور بين أمراء المسلمين بشمال العراق^(٣) ، كما ساور الشك نفس السلطان محمد تجاه طغتكين ، ورأى أن مقتل مودود إنما هو أمر مدبر بين طغتكين وبين الحشاشين ، وطبعي أن يؤدي هذا السوء في الظن بطغتكين إلى الجفوة بينه وبين السلطان السلجوقي وإلى خمود فكرة قتال الصليبيين ، لكن الفكرة ما لبثت أن انبعثت من جديد على يد إيلغازي فحمل الراية بعد مودود ، وكان الخطر الصليبي لا يزال محققا بحلب من ناحية أنطاكية التي تولى أمرها روجر (١١١٢ — ١١١٩ م) بعد تنكريد ، إذ أدرك هذا الأمير الجديد ما تحت الوثبات الإسلامية السالفة من معنى ، فأراد أن يهزمها بالحرب قبل استواء عودها ، وتبين له أن في قدرة الإمارات الإسلامية

(١) ابن الفلانسى : الأدبيل ، ص ١٧٥ ، ١٨٤ — ١٨٥ ، ؛ Albert d'Aix, Op. Cit., p. 693 — 696 ; Metthiew d'Edesse : Chronique, p. 107 — 108, G. T., p. 486.

(٢) ابن الفلانسى : شرحه ، ص ١٨٥ ، ؛ Stevenson : Op. Cit., p. 62 — 63.

(٣) راجع الدائرة مادة « إيلغازي » .

المختلفة — إذا اتحدت جهودها — أن تقذف بالجماعات الصليبية من الشرق ،
سواء أكان ذلك عن طريق الحرب أم المقاطعة الاقتصادية . لذلك تطلع
روجر لأخذ حلب فقام سنة ١١١٩ م بالإغارة على بعض بلادها ، واستولى
على «بزاغة»^(١) وضيق على حلب نفسها حتى كادت أن تعدم القوات ، ولم يرجع
عنها حتى قاسمها بعض المناطق الواقعة قرب أبوابها ، فالتست حلب النجدة
من بغداد مرة أخرى فلم تنلها ، فاتجهت نحو إيلغازى فوجدت فيه مليها لها
بالتعداد والرجال ، وخاف صاحب أنطاكية من تخرج الأمور بإمارته إذا
ما ترامى بين أهلها خبر النجدة الإسلامية ، فاستغاث ببلدوين الثاني ملك
بيت المقدس لقرابته منه^(٢) . غير أن روجر استبطناً النجيدات الصليبية فقام
بمهاجمة «إيلغازى» دون أن يأخذ للأمر أهبتة من القوة ومن رباط الخيل ،
فاتصر عليه أمير ماردين ، واستولى منه على حصن «قسطنون» غربى معرة
النعمان ، وكانت خاتمة النصر مقتل روجر نفسه . على أن أهمية هذه الحادثة
لا تقف عند حد النصر المادى القريب ، بل تتعداها إلى ما صحبها من اتحاد
بعض الأمراء المسلمين أمثال ديبس بن صدقة أمير الحلة في العراق ، وسلطان
بن منقذ أمير شيزر ، وطغتكين أتابك دمشق ، ووقوفهم جميعا إلى جانب
إيلغازى^(٣) ، ولم يكن ثم شك في أن انتصار إيلغازى ومقتل روجر كانا
ضربة وجهت إلى صميم القوى الصليبية في الشام ، ورن صداها في كل مكان ،
حتى إن الخليفة المسترشد بعث إلى إيلغازى خلعة التشریف وسماه «نجم الدين»
تعظيما لقدره^(٤) .

(١) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٦٢ .

G. T. , p. 536 ; Rey : Resumé Chorn. de l'Hist. des Princes (٢)
d'Antioche , p. 340 — 342.

(٣) ابن العديم : منتخبات ، ، ص ٦١٥ — ٦١٩ .

(٤) لم يفت الشعر تسجيل ما جرى فيقول أحد الشعراء .

قل ما نشاء وقولك المقبول وعليك بعد الخالق التحويل

واستبشر القرآن حيث نصرته وبكى لفقد رجاله الإنجيل

راجع ابن الأثير : الكامل في التواريخ ، ص ٢٢٥ .

قويت نفوس المسلمين بهذا النصر، كما تعرضت أنطاكية لأحرج موقف يمكن أن تصل إليه أحوالها، لولا قيام « برنارد » الأسقف البابوي بجمع الأمور في يده، فلم تطر نفسه شعاعاً رغم تضعف نفسية أهلها المحليين وما لاحظته عليهم من العزوف عن مقاومة العدو وميلهم إلى التسليم، فقام بخطة تنطوي على كثير من الشجاعة ولعلها تنطوي أيضاً على كثير من التهور، إذ عمد إلى تجريد سوربي أنطاكية من أسلحتهم حتى لا يثبوا على الفرنجة إذا قدم العدو، وذهب إلى أبعد من ذلك فمنعهم من مغادرة بيوتهم إذا جن الظلام، ووكّل إلى الصليبيين وحدهم حماية الأسوار والحصون والقلاع، وجعل منهم العسس، وأخذ يطوف بنفسه ليرى مدى تنفيذ هذا الأمر... خطة حاكم عسكري حازم لبلد محارب في عصر حديث.

أقبل بلدوين الثاني ملك بيت المقدس واستطاع دخول أنطاكية سالماً فتلقاه أهلها بالترحاب، والتحم بعد ذلك بالمسلمين بقيادة « إيلغازي » عند « تل دانيث » في أغسطس ١١١٩ م، وقدر له النصر عليهم، فاطمأنت أنطاكية وأخذت جيوشها تشن الغارة على بعض البلاد الإسلامية^(١).

وبينما تلك الحركة الإسلامية الأولى بين مد وجزر بشمال العراق وأطراف حلب، واجهت الرها سنة ١١٢١ (= ٥١٦ هـ) خصماً عنيفاً في « بلك بن أرتق » صاحب قلعة خرتبرت^(٢)، الذي تطلع أيضاً للقضاء على الصليبيين بتلك الجهات الشمالية. لذلك رأى جوسلين الأول — وهو صاحب الأطاغ الكثيرة وخصم القوة الإسلامية — أن يتربص لهذا الخصم وينقض عليه قبل استفحال أمره، إلا أن الحظ وافي « بلك » فأسر جوسلين

(١) ابن العديم : منتخبات ، ص ٦٢٢ — ٦٢٥ ، Matthew ، G. T. ، p. 527 — 531 ;
d'Ed. p. 343 ; Dussaud : Topogr. Hist. p. 167, 192.

(٢) Le Strange : Lands of the Eastern Caliphate, p. 117.

ومن معه عند سروج^(١) وقادهم جميعا إلى قلعة خربوط ، وكان ذلك من أكبر الانتصارات التي أحرزها المسلمون على الصليبيين في تلك الحقبة ، لما ترتب عليه من ضياع قوة صليبي الشام المعنوية ، وتطلع الجماعات الإسلامية إلى الوثوب عليهم من كل ناحية .

ولم يخف ذلك على بلدوين الثاني ملك بيت المقدس الذي صارت إليه الوصاية على إمارة أنطاكية بعدمقتل روجر ، وعلى الرها بعد أسر جوسلين ، وأدرك أن واجبه يحتم عليه القيام بعمل حاسم ليفهم المسلمون أن القوة الصليبية لا زالت قوية باطشة ، وأنها تستطيع الدفاع عما بيدها ضد أية محاولة إسلامية يراد بها إضعاف هيبة الصليبيين في أية إمارة من إماراتهم . لذا أخذ بلدوين الثاني في الاستعداد لمهاجمة حلب ، غير أن بك فاجأ بلدوين في بعض الطريق وأسره ووضع مع جوسلين ، وترتب على ذلك خلو ثلاث من الإمارات الصليبية الأربع - وهي أنطاكية والرها وبيت المقدس - من حماتها الذابين عن بيضتها ، فأصبحت في حال يرثى لها من الضعف ، وهدمت المدافع ، وصارت غرضا يرمى بالسهم ، على أنه بقيت هناك طرابلس ، ولم يكن في « بنص » أميرها ما يؤهله لجمع كلمة الصليبيين ولترجم حركتهم ، وليس لديه من القوة ما يمكنه من تخليص الأميرين الصليبيين ، كما تعرضت مملكة بيت المقدس ذاتها لخطر القوات الإسلامية المتاخمة التي طمعت في الاستيلاء عليها بعد أسر بلدوين الثاني ، لذلك عمد أهلها إلى إقامة « استاش جارنييه » Estache Garnier أمير صيدا مكان الملك إلى أن يطلق سراحه ، وكان استاش رجلا من طأ الكنف لجماعته ، وفارسا بارعا محببا إلى نفوس الصليبيين فأثروه بتلك المكانة وذلك العبء وهما جد ثقيلين^(٢)

(١) ابن القلانسي : الدليل ، ص ٢٠٨ ، ابن العديم : منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٦٣٤ ،

ابن الأثير : الكامل في التواريخ ص ٣٤٤ ؛ Rey : Matth. d'Edesse, p. 131 - 132; Colonies Fran. p. 306.

G. T., p. 538. (٢)

غير أن جوسلين تمكن من الفرار من الأسر بمعرفة جماعة من الأرمن^(١) الفدائيين ، فذهب توالى إلى الرها ، وجيش جيشاً لاستخلاص سيده بلدوين ملك بيت المقدس . ثم خرج جوسلين من تل باشر قاصدا حلب سنة ١١٢٢ م فأحرق بعض نواحي بلدة « باب » انتقاما من بلك ، كما هدم كثيرا من قبور أولياء المسلمين بناحية « حيلان »^(٢) ، وعاد إلى تل باشر محملا بالغنائم والأسلاب ، وبعد ذلك بقليل مات بلك ١١٢٤ م (٥١٨ هـ) وهو قائم على حصار « منبج »^(٣) التابعة لإمارة طرابلس الصليبية ، ففقد المسلمون فيه رجلا أثبتت أعماله أنه زعيم بجمع كلمة القوى الإسلامية ضد الصليبيين^(٤) .

انتقل عبء الجهاد بعد ذلك إلى الأمير الاسفهلار^(٥) « آق سنقر البرسقى » أتابك المرسل الذى استغاث به أهل حلب^(٦) فى سبتمبر (شعبان ٥١٨ هـ) حين حاصروهم بلدوين الثانى وحليفه ديس بن صدقة وشرعا فى قتالها والمضايقة حتى قلت الأقوات وخيف وقتذاك على حلب ، وأرجف القوم من الجانبين بقرب سقوطها لولا أن أدركها آق سنقر البرسقى بالجيش الضخم فرفع المحاصرون عنها الحصار ، « ورحلوا منهزمين وتبعهم سرعان الخيول يتلقطون من يظفرون به ولم يلو منهم منهزم على متاوى » ، فلا عجب إذا مال القوم إليه واجتهد هو فى المراماة دون البلد الذى تسلمه نوابه فى أواخر تلك السنة .

على أن هذا النصر الذى لقيه البرسقى أغراه بمتابعة حركته ضد الصليبيين ،

(١) ابن القلانسى : شرحه ، ص ٢٠٩ — ٢١٠ ، الدول والملوك ، ج ٢ ، ص ١٨٨
ب — ١٩٢ ، والدائرة مادة Karpuz وراجع أيضا ، — G. T. , p. 538 539 ,
Mat. d'Ed. , p. 133—134. Stevenson : Crusaders in the East , p. 111, note 8.

(٢) ابن العديم : شرحه ، ص ٦٣٨ — ٦٣٩ ، والدائرة ، مادة « حلب »

(٣) ابن الفحنة : الدر المتخب ، ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

(٤) ابن العديم ، شرحه ، ص ٦٤٢ .

(٥) ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٤٦ .

(٦) راجع فى تحديد التاريخ وتحقيقه ، Stevenson : Crusaders in the East , p. 111, note 8.

كما أن تسلبه حلب أطعمه في تكوين محور إسلامي يمتد بين الموصل وحلب، ولعل هذا هو الذي دفعه إلى الانقضاء على بعض البلدان المتاخمة له والموجودة بيد الصليبيين، مثل «كفر طاب» والتأهب لمقاتلتهم، إلا أن جماعة من الحشاشين وثبوا عليه^(١) سنة ١١٢٦ (ذو القعدة ٥٢٠هـ) وقتلوه، وهكذا زالت الشخصية الرابعة من بين الشخصيات الإسلامية التي فكرت في الجهاد ضد الصليبيين، وتجلى خطر الجماعات الاسماعيلية التي أخذت تثب فتقتل كل عامل للوحدة الإسلامية. وما كاد مسرح الحوادث يخاو من البرسقي حتى خيل للناس ولمن يرقبون تطور الأمور في بلاد الشام آئذ أن الجو قد صفي للصليبيين، إلا أنه ما لبث أن ظهر زنكي وهو أقوى الشخصيات التي تمخض عنها النصف الأول من القرن الثاني عشر.

لم يكن عماد الدين زنكي وليد الصدف، ولكنه نشأ على مقربة من مسرح النضال بين القوتين الإسلامية والصليبية، بل اشترك في بعض الحوادث التي جرت بينهما، ثم إنه منذ نعومة أظفاره لمس التنافر بين القوتين الإسلامية^(٢) وحظي بكثير من عطف السلطان محمود السلجوقي أحيانا، وتمتع بصداقة الخليفة المسترشد العباسي أحيانا أخرى، كما شهد عن كثب ما هنا لك من الصراع بين السلطان والخليفة حول السيطرة الفعلية في الدولة الإسلامية وساهم إلى جانب السلطان في ذلك الصراع الذي انتهى بانتهزام الخليفة سنة ١١٢٧ م.

من ذلك كله يتجلى إمام زنكي التام بأحوال العالم الإسلامي المضطربة إبان تلك الفترة الانتقالية في تاريخ العصور الوسطى، ولم يخف عليه مقدار الضعف الذي دب في أوصال القوة المسيطرة على ذلك العالم الذي يكون رقعة غير

(١) ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج ٤، ص ٦١.

(٢) ابن الأثير: أنابكة الموصل، ص ٣١، ٣٤، ٣٥.

صغيرة تمتد من العراق إلى مصر وتشمل جميع منطقة بلاد الشام والجزيرة العربية، وإن فرقت العقائد بين أفرادها، وأدرك زنكي أن الأمر معقود للقوة، وطمع أن يكون هو ذاته صاحب تلك القوة. ولكنه رأى أن الأمور مرهونة بأوقاتها وظروفها، وأن عليه اغتنامها عندما تلوح له الفرصة التي تبدت له فعلا حين دس جماعة من أنصاره وأقاربه يحسنون للسلطان توليته أتابكية الموصل، ونجحت خطته وتم له ما أراد، وخرج منشور السلطان بتعيينه^(١) سنة ١١٢٧ م (٥٢١ هـ).

ومن ثم يمكن القول بأن عماد الدين لم يكن يعجز عن تحقيق مآربه بمختلف الوسائل التي سنها مثلثة في سياسته التي يرمى من ورائها إلى تقوية نفوذه في النواحي التي تحت سلطانه أولا، ثم محاولة ضم ما يمكن ضمه من البلدان الإسلامية التي سوف يعتمد عليها لتموين قواته، حتى إذا تم له ذلك كله استطاع أن يخرج بما اجتمع لديه من القوات لمحاربة الصليبيين وطردهم عن أطراف العراق والشام واستخلاصها لنفسه.

بدأ زنكي سنة ٥٢٢ هـ بتأمين حدود ولاية الموصل من الشمال وذلك بالاستيلاء على جزيرة «ابن عمر»^(٢) شمالي الموصل، ثم نصيبين والخابور وحران^(٣)، وأصبح يتاخم الرها أكثر من قبل، فلما فرغ من تلك الناحية اتجه ببصره إلى بلاد الشام، وطمع في حلب التي كثرت بها الفتن الداخلية وقتذاك حتى طمع فيها من الصليبيين جوسلين الأول أمير الرها، وبو هيمند الثاني أمير أنطاكية، ولم يعدم زنكي الوسيلة لتبرير زحفه على حلب فاتخذ من أخبار تفكير الأميرين الصليبيين في مهاجمة حلب ذريعة للتدخل في شؤون

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٢٤٧، وأتابكة الموصل، ص ٦٠—٦١،

وابن خلدون: العبر، ج ٥، ص ٥٤، Stevenson: op. cit. p. 122،

(٢) الدول والملوك، ص ٢٢٤ ب — ٢٢٥ أ.

(٣) ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٠٢، ٣٨٣، Le Strange: Lands of The Eastern Caliphate, p. 93.

الشام ، فاستصدر من السلطان السلجوقي عام ٥٢٢ (١١٢٨ م) منشورا بأن تكون حلب من بين البلاد الداخلة في حكمه (١) ، وأضاف إلى ذلك زواجه من ابنة رضوان صاحب حلب سابقا حتى تكون له شرعية الحكم بها (٢) . اتجه زنكي بعدئذ صوب الجنوب حيث إمارة دمشق وهي التي شغلت الجزء الأكبر من مجهوده وعزت عليه ، وكانت دمشق من الإمارات الإسلامية الهامة بالشام ، وفي وقت ظهور زنكي كان متولى أمرها ظهير الدين أتابك الذي رفع من مكاتها في أعين المسلمين والفرنجية على السواء ، لكنه مات سنة ١١٢٨ م بعد أن استخلف على دمشق من بعده ولده تاج الملوك بوري . وحوالى ذلك الوقت امتد خطر الباطنية بالشام ، ولاسيما حين تولى أمرهم إسماعيل العجمي الذي اتخذ « بانياس » مقاما له ، إذ علم اسماعيل هذا بعزم بوري على الفتك بطائفته ، فلم يجد سيلا لمضايقته إلا بمنح بانياس للصليبيين والانتقال إلى بلادهم (٣) ، وعند ذلك أخذ بوري يعمل على مضايقة الحصن ، ورأى الصليبيون وقتذاك أن الفرصة قد سنحت لمهاجمة دمشق (٤) ، وأقبلت جماعاتهم في نوفمبر ١١٢٩ بقيادة فولك ملك بيت المقدس الجديد لتحقيق ما تمناه كثير من أسلافهم لتكون دمشق جزء من الدولة الصليبية بالشام . لذلك جرت المراسلات بين بوري وزنكي لدفع ذلك الخطر عن دمشق ، وكتب بوري إلى ولده « سونج » - وكان على حماة - يأمره بالانضمام إلى زنكي لمحاربة الصليبيين ، على أن زنكي لم ينهض لمساعدة بوري حبا في إنقاذ دمشق من الفرنجية بل جريا وراء تحقيق أطاعه ، ولم يلبث أن قبض على « سونج » ، وزحف على حماة وحصص واستولى عليهما ، واكتفى بذلك مؤقتا (٥) .

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٣٤١ .

(٢) ابن العديم : منتخبات ، ص ٦٥٨ .

(٣) الدول والملوك ، ج ٣ ، ص ١٨ .

(٤) ابن القلائسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٢٤ — ٢٢٦ ، Gibb : Damascus

Chronicle, p. 197 et seq.

(٥) ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ص ٥٦٨ — ٥٦٩ .

في تلك الأثناء وقع الأمير ديبس بن صدقة صاحب الحلة في يدي بوري، وكان ديبس حليفا للصليبيين، فر من العراق خوفاً من الخليفة المسترشد بالله، فأراد زنيكى الاستحواذ عليه ليجعل منه رهينة يستخدمها في تحقيق مآربه وأطماعه لدى الخليفة، فكتب إلى بوري يعرض عليه استعداداه لإطلاق سراح «سرنج» إن أسلمه ديبس، وتم الاتفاق والتبادل، ثم لم يلبث بوري أن قتل في أوائل يونيو ١١٣١ (٥٢٢٦هـ) بيد الباطنية^(١)، وخلفه ابنه اسماعيل، فظن الصليبيون أن ساعة دمشق قد دنت لصغر سن صاحبها وطمع فيها من لا يعتمد به، فاجتراً «دي بوري» أمير بيروت على أخذ عدة أحمال من السكتان الذاهب إلى دمشق تحرشاً بالأمير اسماعيل، على أن خاتمة الحوادث خيدت ظنون الصليبيين وهدمت آمالهم لما أصابه اسماعيل من الفوز في مهاجمة حصن «بانياس» وامتلاكه إياه في نوفمبر ١١٣٢ (محرم ٥٢٧هـ) مما أحدث دوياً شديداً ارتاع له الأفرنج «وامتلأت قلوبهم رعباً ووجلاً وأكثروا التعجب من سهولة الاستيلاء على بانياس مع حصاتها وكثرة الرجال فيها»^(٢).

هنا يحق للشخص أن يتساءل عن علة عدم تحرك مملكة بيت المقدس وعدم مدها يد المعونة إلى جماعة الصليبيين، وترجع علة جمودها إلى انشغال ملكها فولك بمأمر «هيج دي بواسيه» كونت يافا^(٣)، على أن اسماعيل

(١) ابن العماد: سفرات الذهب، ج ٤، ص ٧٨، JRAS., p. 273، وقد رثاه الشريف الرضي على قبره بقصيدة جاء فيها:

بعدا ليومك في الزمان فإنه أفدى العيون وقت في الأعضاد

أنظر أيضاً ابن القلانسي، الذيل، ص ٢٢٩ - ٢٣٠، ٢٣٢ - ٢٣٣.

(٢) ابن القلانسي، ص ٢٣٧.

(٣) جاء «دي بواسيه» أبو هيج المذكور هنا، إلى الشام مع قريبه بلدوين الثاني وصار والياً على يافا، ثم مات فقام هيج مكانه، وأيده بلدوين الثاني لحبه إياه وعطفه عليه، إذ أنشأ في بيته ووين بناته، فلما كبرت مليزاند وتزوجت فولك كانت صلات «هيج» بها مما أثار شبهة زوجها فخذ عليه وخاصمه، فما كان من هيج إلا أن اتخذ من بين الأمراء من اتخذه

لم يكتف بهذا النصر بل توجه إلى حماة واستولى عليها من يد مستحفظها « سنقر » غلام الياغسياني تابع زنكي^(١) ، وكأن هذا الانتصار وما سبقه من الانتصارات قد أمدته بقوة طمع بها أن يستولى على كثير من البلدان المجاورة فحاول أخذ شيزر ونزل عليها ، وأمر بالعيث فيها وفي نواحيها حتى حمل إليه أميرها سلطان بن منقذ من الهدايا ما أشبع طمعه ، فانكفأ إسماعيل إلى دمشق في ذى القعدة ٥٢٦ هـ (= سبتمبر ١١٣٤ م) بعد أن صالحه أمير شيزر على مال يحمل إليه^(٢) . ولم تنقض بضعة أشهر من بعد ذلك حتى هاجم إسماعيل شقيف تيرون المطل على ثغر بيروت^(٣) ، وأخذه من يد الضحاك بن بجدل التميمي .

حدث كل ذلك والصليبيون يعدون العدة للسير إلى دمشق ، ولم يلبث الخبر أن شاع بأنهم تحرروا فعلا للزحف عليها ، فلم يكن من إسماعيل إلا أن قابلهم في « حوران » ثم غافلهم وأغار على عكا والناصرية^(٤) وطبرية ، مما أدى

== لمساعدته في الانتقام من فولك ، ثم نشب نزاع بين هيج وبين جوتيه القيصري الذي وقف في حشد من الصليبيين في بلاط فولك ورمى كونت يافا بتهمة محاولة اغتيال الملك . فحاجه هيج وانفقا على المبارزة . وفي اليوم المضروب اختفى هيج لإذ هرب إلى عسقلان واحتفى بحاميته المصرية التي اغتنمت هذه الفرصة وأخذت تعيث في الشمال . فأغضبه ذلك الأمر ، فرجع إلى فولك يسأله العفو . وفي هذا الوقت استولى أتاك ديشق على باناس من الصليبيين مما جعلهم يؤمنون بضرورة الاتحاد فيما بينهم . فاصطالحوا على أن يبعد هيج ثلاث سنوات عن بلاد الشام يذهب فيها إلى إيطاليا . غير أن أحد الفرسان الصليبيين اغتاله فنارت الشبهات حول فولك . وأزحف الناس بأنه المدير لذلك الاغتيال . فدفع التهمة عن نفسه بأن قتل قاتله . بعد أن أقسم القاتل أنه قام بذلك من تلقاء نفسه . غير أن مليزاند اشتد غضبها على زوجها وعلى قاتل هيج . أما فولك فقد حاول أن يستل من نفس زوجته كل حقد عليه . فأسلم إليها مقابلد الأمور « حتى إن جميع شئون المملكة صارت تدبر بمشورتها ، وتجري وفق إرادتها » كما يقول مؤرخ العصر ولیم الصوري وهي عبارة يمكننا أن نفسر على ضوءها مجرى الحوادث في أنطاكية فيما يلي .

راجع 634 — 626 G. T. p. وكذلك ابن العديم . ص ٦٩٦ .

(١) ابن الفلانسى : الدليل ، ص ٢٣١ — ٢٣٩ ، والكامل لابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣

(٢) ابن الأثير : نفس المرجع والجزء والصفحة .

(٣) Rey : Colon. Franc. p. 513

(٤) الدول والملوك ، ج ٣ ، ص ١٥٧ .

إلى رجوعهم عن دمشق للدفاع عما ييـدـمـهـم وذلك في ذى الحجة ١٢٨ هـ (= أكتوبر ١١٣٤) . ومهما يكن من أمر تلك الحرب فالواضح أنها أضرت بمصلحة الفريقين المتحاربين واستفاد منها زنكي، ولا عجب أن يدرك الصليبيون ذلك ويطلبوا الصلح من اسماعيل لا خوفاً من بطشه كما يزعم الكتاب المسلمون^(١) ، بل إبقاء عليه ليكون شجياً دائماً في حلق زنكي .

غير أنه يظهر أن رضاه اسماعيل بمصالحة الصليبيين جعله في نظر المعاصرين خائناً لمصالح المسلمين ، وكان من بين أولئك أمه زمر دخاتون التي أخذت تأتمر عليه ، خشية أن يتخذ زنكي من ذلك الموقف ذريعة للغارة على دمشق بحجة حماية المصالح الإسلامية . فلها رأى اسماعيل أن يد القتل قد تمتد إليه بين لحظة وأخرى كاتب هو زنكي يسأله القدوم عليه لأخذ دمشق^(٢) . ولعبت أمه دور السياسي الماكر إذا هتبلت هذه الفرصة فجمعت الأكاـبـر والمقدمين ، وعرضت عليهم قتل ولدها اسماعيل لم تأخذها في ذلك وشيعة النبوة أو عاطفة من الرحمة والمحبة ، فأقروها على ما اعتزمت القيام به^(٣) ، ومن العجيب أن ابن القلانسي^(٤) يمدحها المدح العظيم لهذه الفعلة ، فيقول إنه قد حملها « فعلمها الجميل ، ودينها القويم ، وعقلها الرحيم ، على النظر في الأمر لما يحسم داهه ، ويعود بصلاح دمشق ومن حوته ، فتأملت الأمر في ذلك تأمل الحازم الأريب ، فلم تجد لدائه دواء ، ولا لسقمه إشفاء إلا بالراحة منه [أي من اسماعيل] فصرفت الهممة إلى مناجزته ، فأمرت غلبانها بقتله ، وترك الإمهال له ، غير راحمة له ولا متألمة لفقده » .

هنا وضحت الفرصة لزنكي وضوحاً تاماً لتحقيق حلمه في ضم دمشق ، فبادر بإرسال رجاله للشخص إلىها تلبية لدعوة صاحبها إسماعيل ، غير أن

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٤٣ .

(٢) الكامل لابن الأثير ، ج ١١ ص ٩ ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٢٥٦ و Gibb : op. cit. p. 230.

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٩٠ .

(٤) راجع ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

زمرد خاتون كانت قد أتمت تنفيذ الخطة التي رسمتها بقتل ابنها ، وإقامة أخيه « محمود » من بعده سنة ١١٣٤ م (ربيع الآخر سنة ٥٢٩ هـ) . فما كاد زنكي يبلغ ظاهر دمشق وبمسكر بأرض عذراء تمهيداً للحصار حتى علم بما جرى ، وسرعان ما أدرك ألا أمل له فيها أراد لما رأى من شدة مراس الدماشقة ورغبتهم الصادقة في الدفاع عن مدينتهم ، إذ أبوا أن يدخلها عماد الدين إلا على آخر جثة من رجالهم ، وكان الخليفة المسترشد بالله يخشى من نفوذ زنكي ، وينظر بعين جازعة إلى توسعه في الممتلكات ، ولم يخف عليه غرضه من الزحف على دمشق ، فأرسل يأمره برفع الحصار عنها ، وهل كان إلا أن يؤمر فيجيب ؟

عندئذ فكر زنكي في الوسيلة التي تمكنه من الاستيلاء على دمشق دون أن يغضب أهلها ، أو يثير الحُوف منه في نفس الخليفة العباسي ، فتزوج (١) من « زمرد خاتون » وتمكن بفضل هذا الزواج الذي تم سنة ١١٣٨ (٥٣٣ هـ) من أخذ الأمور في يديه . بيد أنه عجز عن إدراك مشروعه العظيم وتحقيقه (٢) . ثم لم تلبث الفرص أن خدمته إذ اغتيل محمود صاحب دمشق يوم ٢٢ يونيو ١١٣٩ (٢٣ شوال ٥٣٣ هـ) على يد ثلاثة من غلبانه ، فخرنت أمه عليه ، وأرسلت إلى زوجها زنكي — وكان بالموصل — تحرضه على الانتقام من مغتاليه . واتخذ زنكي — من حادث الاغتيال — ذريعة توصله إلى مأربه ، فادعى أنه يريد معاقبة القتل وحماية دمشق نفسها بما قد يديته الصليبيون نحوها

(١) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ١٧٨ .

(٢) كان زنكي يريد أخذ حمص ، فعزت عليه أولاً لشدة مراس القائم بتدبير أمورها وهو أتر (ابن العديم ، منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٦٦٧ ، ٦٦٨) ، ثم لم يلبث زنكي أن تسلمها وعوض « أتر » عنها حصن بعرين (ابن العديم ، شرحه ، ص ٦٧٨ — ٦٧٩) وكانت حجته في الاستيلاء عليها أن يتخذها مركزاً لصد الجماعات الصليبية ، لاسيما وقد اغتم فولك الثالث — ملك بيت المقدس — فرصة قدوم تيير الإزماسي ١١٣٨ م مع جماعة من الفرسان الحجاج ، ووجههم في حملة خربت أرباض تل مجلون 668 — 665 G. T. , p. 665 أما زواجه من زمرد خاتون فبإراد بعض المؤرخين المسلمين ضرورة اقتضاها ما رآه هو من تحكها في دمشق ، فظن « أنه يملك البلد بالاتصال بها » ، أنظر الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٥ ، ومفرج السكراب لابن واصل ، ص ٤٥ .

عاجلا أو آجلا على غرار ما فعلوه سابقا. هذا وقد رأى زنكي في قرارة نفسه أنه هو ذاته خير من يحمل الراية الإسلامية في نضاله ضدهم، فلم لا تكون دمشق تحت سلطانه الشرعي حتى يتمكن من الدفاع عنها، وهل هناك من هو أجدر منه بذلك العبء؟ إلا أنه أراد شيئا وأرادت المقادير سواه، ثم حققت المقادير ما أرادت حين آلت الأمور في دمشق أخيرا إلى يد الأمير أنر صاحب بعين وبعليك^(١).

على أن ذلك التطور في أحوال دمشق لم يقلل من عزم زنكي في الاستيلاء عليها، فرأى أن يبدأ ببعليك^(٢) التابعة لها، فشدد الحصار عليها حتى تخاذلت أمام هجماته القوية وسلمت له بالأمان، لكنه لم يرع عهده ونكث^(٣) بوعده. وأحس لدماشقة أن ساعتهم قد قربت، ولا سيما أن زنكي صار على مقربة منهم، وتبينت لأثر ضرورة التعاون مع قوة أخرى لرد عادية زنكي عن دمشق. وتمخضت هذه الضرورة عن التحالف الدمشقي الصليبي^(٤). ورحب الصليبيون باستغاثة أنر ترحيبا كبيرا^(٥)، لما فيها من الفرصة المواتية لتحطيم زنكي وقوته الفتية التي هددت أملاكهم وأوفد أنر رسولا من قبله هو أسامة بن منقذ^(٦) إلى ملك بيت المقدس فولك الخامس، (١١٣١ - ١١٤٢) فوجد الرسول العربي من الملك الصليبي إقبالا واضحا لفكرة الحلف بين دمشق والصليبيين. على أن فولك لم يشأ أن يبيت في الأمر دون استشارة مجلس المملكة، أو بعبارة

(١) الكامل ج ١١، ص ٣١-٣٢، ابن العديم، منتخبات، ص ٦٨١، Derenbourg : Vie d'Ousama, Vol 1, p. 172.

(٢) كانت بعليك في ذلك الوقت في يد أنر الذي تسامها من يد محمد بن بوري بعد مصرع أخيه محمود؛ أنظر في ذلك ابن القلانسي، ص ٣٦٩.

(٣) ابن الأثير : الكامل، ج ١١، ص ٣٢.

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب، ص ٥١.

(٥) G. T., p. 689

(٦) ابن القلانسي : ص ٢٥٩ - ٢٦٠، وابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٣٤، وابن العديم : منتخبات ص ٦٨٢، وهذه المراجع لاتنص صراحة على اسم أنر، لكن يستفاد ذلك من كتاب أسامة نفسه، والظاهر أن فولك الخامس كان على اتصال بأسامة، شديد الاحتياج بالفارس العربي، راجع كتاب الاعتبار، ص ٦٥.

أخرى لم يرد الموافقة على الحلف إلا بعد دراسة ما حمله إليه أسامة من عروض .

لكن ماهي العروض التي قدمها أسامة باسم « أنز » ، ثمنا لتلك المساعدة . لدره الخطر عن إمارة إسلامية لها ماض غير منكور في دفع الصليبيين عن بلاد الشام ؟ الواقع أنه ليس لدينا غير ما رواه ابن الأثير وابن القلانسي من أن أسامة تعهد للصليبيين بأن يحاصر الأمير أنز « بانياس » ويسلمها إليهم ، وكانت خاضعة لزنكي ، غير أنه عرض عليهم أن يسلمهم عددا من الرهائن توكيدا لصدق تعهده ، كما جعل نفقة الحملة التي ينهضونها لمساعدته على حسابه^(١) . وتم الاتفاق أخيرا بين ريموندري بواتيه أمير أنطاكية وبين فولك الخامس على مساعدة أنز ضد العدو المشترك .

تقدم فولك بجيشه صوب دمشق في جمادى الآخرة سنة ٥٣٤هـ (يونيو ١١٤٠) ، فلما رآه زنكي تظاهر بالفرار أمامه خديعة منه ، حتى إذا أبعده عن الطريق إلى دمشق انقلب إلى الهجوم عليه ، وما زال به حتى هزمه ففر فولك في ثلة ضئيلة من الصليبيين إلى حصن الأكراد ، وهناك حاصرهم زنكي وقطع عنهم الإمدادات ، حتى أكلوا لحوم الخيل والحمير « بلا ملح » . وهناك أرسل فولك إلى أمير أنطاكية وإلى جوسلين الثاني أمير الرها ليجمعا قواتهما وينهضا لمساعدته^(٢) ، وبينما هذان الأميران وجيوشهما في الطريق لتجدة فولك اعترضهما ابراهيم بن طرغت والى بانياس من قبل زنكي ، فالتجم الفريقان في وقعة قتل فيها والى ابراهيم . وعندئذ تحول الأنطاكيون صوب بانياس ذاتها وانضم إليهم ريموند الثاني صاحب طرابلس وفولك وأنز ، واشتد أتابك دمشق في حصار بانياس حتى قل القوات عند حاميتها فاضطرت للتسليم إلى أنز الذي

(١) ابن القلانسي : الذيل ، ص ٢٧٢ ، والكامل لابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٤ .

(٢) J. R. A. S. 1932 p. 194 .

ير بوعده للصليبيين فأعادها إليهم^(١)، وتملكها ولیم دی بور^(٢)، ولما أدرك الصليبيون صدق أنو في تحقيق الشروط المبرمة بينه وبينهم عملوا على تحقيق هدفه ألا وهو ضمان استقلال دمشق منعا من سقوطها في يد زنكي الذي كان يتأهب لحصارها وقتذاك .

على أن زنكي لم يرد حينئذ أن تتطور الحوادث إلى حروب سافرة بينه وبين الصليبيين بل كان يتجنب الاصطدام بهم وجهالوجه ، فمكاد يسمع بتجمعهم مع عسكر دمشق حتى رحل إلى ناحية حوران ، غير أنه سرعان ما عاد إلى الغرطة ، فلما كان صباح السبت السابع من ذي القعدة ٥٣٤ هـ (٢٢ يونيو ١١٣٩)^(٣) اقتربت الجيوش الزنكية من سور دمشق قبل أن يتنفس الفجر وأحدثت بالمدينة على حين غفلة من أهلها . ولذا استولى زنكي على كثير من الخيل والغنائم ، وإن عجز عن دخول دمشق ذاتها^(٤) ، ولم يكد فولك يسمع بما جرى حتى نهض لإغايتها ، فاضطر خصمه لرفع الحصار عنها ، غير أن دمشق لم تفد من تلك الحوادث كلها شيئا كثيرا ، بل كان الصليبيون هم الذين أفادوا منها كل الفائدة ، لاسترجاعهم بانياس دون خسائر جمة ، ولإيقاعهم الخلف بين القوى الإسلامية وانقسامها بعضها على بعض . لكن زنكي لم يرفع الحصار عن دمشق إلا لأنه رأى أن يؤخر محاسبتها ليوم يكف فيه الصليبيون عن مساعدتها . ولم يخف ذلك على خصميه أنر وفولك فاضطرا للبقاء على تحالفهما .

ولقد أدى هذا التحالف الدمشقي الصليبي إلى نتيجة سلبية وأخرى موجبة، أما النتيجة السلبية فتتمثل في أن عماد الدين خاف من هذا الاتحاد ، فأرجأ

(١) G. T., p. 671 — 673

(٢) راجع قصة إيجاب فولك لوليم دی بور على رد غنم استولى عليها إجابة لسؤال أسامة . وهي واردة في الاعتبار ، ص ٦٤ — ٦٥ .
Derenbourg : Vie d'Ousama, Vol. I, p. 185,—186 Autobiogr d'Ousama, p. 393.

(٣) تحقيق التاريخ العربي والبيلاي في 1 note p. 262, op. cit. Gibb

(٤) ابن الفلاني : الذيل ، ص ٢٧٢ — ٢٧٣ .

مهاجمة دمشق إلى وقت آخر تواتيه فيه الظروف ، وأمنت دمشق هجومه عليها إلى حين ، فقام أنز وأسامة بن منقذ بزيارة الصليبيين في بيت المقدس^(١) وتوثقت عرى المودة بين رجال الجانبين ، وصار هناك شبه « أخوة » بينهما ، وكتاب أسامة حافل بهذه الصور المشرقة التي تجلوا لنا صفحة من الحياة الاجتماعية ، وهي صفحة فيها شيء كثير من التفكه والنسكته ، فضلا عما فيها من دلالة على الاتحاد الوثيق الذي نشأ بين الدماشقة ، والصليبيين^(٢) ، أما النتيجة الموجبة فظهرها تفكير زنكي في توجيه القوة الحربية الإسلامية التي تحت يده في سرايا نحو بلدان الصليبيين ، مما كان عاملا على تقوية الأطراف البعيدة^(٣) . على أن زنكي لم يأخذ في إنفاذ تلك السرايا إلا حين مات فولك ملك بيت المقدس وتولت الأمر الملكة مليناند ، إذ قامت في نوفمبر ١١٤٣ بالوصاية على ولدها بلدوين الثالث الذي لم يعد عمره ثلاث عشرة سنة .

من الطبيعي أن يتأثر سير الأمور في دمشق بمجريات الحوادث في مملكة بيت المقدس ، ويعد تولى مليناند الحكم نقطة انتقال في تاريخ التسكيت الصليبي لانصرافها إلى عمل كل ما من شأنه إبقاء السلطة في يديها والاستثمار بهادون ولدها ، وتغلب مظالمها الشخصية على الصالح الصليبي العام ، مما أدى فيما بعد إلى فشل الحملة الصليبية الثانية وإلى انقسام من حولها من أمراء بيت المقدس وإلى قيام النزاع بين أنطاكية والرها وطرابلس ، بعد أن كانت شخصية زوجها فولك الثالث خير عامل على التوحيد والنصرة . والواقع أن الصليبيين لاسيما بعدموت فولك الخامس — أصبحوا يستنجدون بزنكي ضد بعضهم البعض وقد

Derenbourg: La Vie d'Ousama, t. I, p. 188; Aut. d'Ousama, p. 460—465. (١)

Derenbourg: La vie d'Oussama t; I: p. 166. (٢)

(٣) بعث زنكي سرية بقيادة الأمير لجة التركي ، كإقام نائبه في حلب الأمير سوار بدفع أمير أنطاكية عن بزاعة سنة ١١٤٢ . واستولى زنكي في نفس السنة على قلعة « أشب »

التي عرفت فيما بعد « بالمعادية » راجع 1 Gibb: Damascus Chronicle, p. 264, note 1

واظن أيضا ابن القلاي . ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٣ — ٢٧٨ .

تجلى ذلك قبل هذا التاريخ بعدة أعوام في مسألة أنطاكية^(١) . حين استعانت أليكس زوجة بوهيمند الراحل بزنىكى ضد أيها رغبة منها في الاستئثار بحكم أنطاكية ، وحركتها الأطلاع لركوب هذا المركب الوعر^(٢) على إن لهذا دلالة الصريحة على مبلغ ما وصلت إليه القوة الإسلامية من البأس والخطر ، ومبلغ تأثير المطامع الشخصية في توجيه السياسة الصليبية .

(١) استطاع بوهيمند أمير أنطاكية خلال فترة حكمه القصيرة أن يجتذب إليه قلوب رعيته لتساوى الإبداع في الحلق والخلق ، إلا أنه ما لبث أن مات في عمر الزهور إذ لقي مصرعه على يد جماعة من جنود إيلغازى الداشمندى وحملت رأسه إلى بغداد في فبراير ١١٣٠ م . راجع G. T., p. 599 — 600, Michael, III, 2, p. 217.

(٢) لم يخلف بوهيمند سوى طفلة صغيرة هي كونستانس من زوجه أليكس التي أدركت أن قيام أيها بالوصاية سيثقل يدها، فواظنت زنىكى بخضوع أنطاكية له إن هو نهض لمعاونتها، إلا أن أباه بلدوين الثانى قبض على رسولها في بعض الطريق . فنهض إلى أنطاكية في رعب من الأشراف ودخلها رغم أرادة ابنته التي راحت إليه تلتئم منه العفو فأجابها إليه بعد أن خلعها من الوصاية ، وقطع الطريق على زنىكى ثم لم يلبث بلدوين أن مات تخلفه فولك دوق أنجو تبعاً لوصية الملك الراحل (G. T., p. 601 — 602) ورأت أليكس الفرصة سانحة لجمع الأمور في يدها لا سيما بعد أن ضمت إليها بعض الأمراء الأقوياء أمثال جوسلين الثانى أمير الرها ، وبنس صاحب طرابلس ، ووليم صاحب حصن صهيون ، وقد وقف بنس ضد فولك فيما بعد أثناء قدومه إلى أنطاكية (انظر ابن العديم ، منتخبات ، ص ٦٦٤ ، والكامل طبعة أوربية ، ص ٤٠٠ Gipp : op. cit, p. 512 . ولعل انضمام أولئك الأمراء إليها أصرح دليل على أن القوة الصليبية في الشام أخذت تسير في الدور الذي مرت به القوات الإسلامية من قبل ، ألا وهو دور الانحلال والضعف ، على حين نجد أن القوة الإسلامية أخذت تمضى قدماً في سبيل القوة المادية والتكاتف الذى تجلى في شخصية نور الدين فيما بعد مما لم يخف على أشراف أنطاكية ، وأدركوا وجوب القضاء على تلك المؤامرة الصليبية الإسلامية قبل استفحالها فدعوا فولك لجمعة الإمارة والضرب على أيدي العابثين بهدوئها ، الطامعين في امتلاكها والقضاء على النفوذ الأكبر لملك بيت المقدس من الذى اشتد التفاف الأمراء حوله يوماً بعد يوم ، وأخذ الثورة قبل أن تستمرى ، وعهد بتدبير الأمور إلى رينو ما سوار الأنطاكي ، راجع Rev : Les Dignitaires p. d'antioche, p. 117, G. T., p. 613 — 614, Du Cang's- 391. Rey : إلا أن أليكس كانت دائماً التطلع لأخذ السلطان في يدها ، فراحت تلتئم المعونة من يزنطة . لذلك رأى ملك بيت المقدس ومشيروه وجوب الإسراع في البحث عن زوج لكونستالس فاختروا ريموند دي بوانيه راجع : G. T., 649 — 651 Chalandou .

ثم جاء دور الرها حين ظهرت الجفوة بين ريموند دى بواتيه صاحب أنطاكية وبين جوسلين الثاني صاحب الرها ، وهي جفوة اشتدت بين الأميرين الصليبيين حتى كان كل منهما - على قول وليم الصورى - ^(١) يفرح إذا أملت بالآخر نكبة . وعلى الرغم مما بذله فولك من العمل على التوفيق بينهما مخافة قوه المسلمين التي لم يخف على أحد تفاقمها ، إلا أن هذه الجفوة سرعان ما عادت بين الأميرين عقب موت فولك . ذلك أن جوسلين الثاني صاحب الرها كان على جانب كبير من الرعونة أدت به إلى إقحام نفسه في المنازعات الكهنوتية داخل الكنيسة يعقوبية رغم مهادتها للكنيسة الرومانية ، إذ أبى الاعتراف بأثناسيوس الثامن (١١٣٨ - ١١٦٦ م) ، وأسرف فلم يظهر أدنى احترام للقدسات الدينية ^(٢) ، وكان اليعاقبة يعتزون بكف مار برسومة ويتبركون به في ديرهم المعروف باسم هذا القديس ، فتجاهل جوسلين ذلك كله وأنكره عليهم وأبى إلا أن يأخذه فيما سلبه منهم ، مما أثار غضبهم ودفعهم إلى الارتقاء في أحضان المسلمين لا سيما مساعدتهم لمجاورهم قرا أرسلان ومسعود صاحب قونية .

أضف إلى ذلك انكباب جوسلين على ملذاته الخاصة ، وإيثاره الإقامة في تل باشر وتركه مدينة الرها في حماية جماعة من الأرمن والسريان ، وهم يتألفون من الإسكافية والحاكة والبزازين والطرزية والشامسة ^(٣) . أما الفرنجة فلم يكن منهم من شارك في حمايتها سوى شزيمة ضيلين . وكيفما كان الأمر فقد أضحت واضحة لزنكي أن الفرصة سنحت لمهاجمة الرها ، على أنه تظاهر بعدم التفكير فيها حتى لا يتيح الفرصة لمن بها للتجمع

(١) Stevenson : Crusaders, p. 149. G. T., p. 709.

(٢) بل إن هناك من المسيحيين من يذهب فيعده أميراً غير مسيحي ، يبين لنا ذلك من كلام Michael., Chroniques, p. 342 حيث يقول إن رهبان دير مار برسومة ساروا أمامه . « كالو كان مسيحياً » .

J R A S, P. 280. (٣)

ضده أو لمديد المعونة إلى أهلها ، وإذذاك يتعذر عليه امتلاكها ، ولذا خرج زنكي سنة ٥٣٨ هـ يريد الاستيلاء^(١) على أطراف الإمارات التي حوله كديار بكر . ومع أن المؤرخين رأوا أن خروجه إلى تلك النواحي كان حيلة منه لستر مقصده الحقيقي فالواقع أن استيلاءه على ديار بكر في تلك السنة كان من الخطة الزنكية المرسومة لتوطيد المملكة التي يريد إنشاءها ، وتكوين جبهة إسلامية شامية على أقطاب الإمارات والبلدان التي بأيدي الفرنجة والأمراء المسلمين الضعاف على السواء ، علما منه بأنه في هذه الأوقات ذاتها كانت هناك قوات الإمبراطورية البيزنطية ترقب الأمور عن كشب ، رغبة منها هي الأخرى في امتلاك تلك البلاد .

ولقد رأى زنكي أن الموقف يحتم عليه تكوين هذه الجبهة لدفع الخطر البيزنطي من الشمال ، واستئصال شأفة الفرنجة في الغرب والجنوب ، ومع أن هجومه على ديار بكر يمكن - مع هذا كله - أن يعتبر تسمية فإن الحيلة جازت على جوسلين الثاني ، إذ اطمأن باله وفارق إمارته وعبر الفرات إلى « تل باشر » ، ثم جاءت عيون زنكي إليه وعلى رأسها فضل الله بن جعفر نائبه على حران تحمل إليه نبأ مفارقة جوسلين لمدينة الرها . فلم يلبث قائده صلاح الدين الياغسياني أن تقدم بجموعه يوم ٢٨ نوفمبر^(٢) (أول جمادى^(٣) الآخرة ٥٣٩ هـ) نحو الرها ، كل ذلك وجوسلين عاكف على صبواته ، على حين قام بالدفاع عن البلدة ثلاثة من رجال الدين أحدهم فرنجي ، والثاني

(١) ابن الأثير : الكامل ، ص ٤٤٣ ، ج ١١ ، ص ٤٣ .

(٢) هذا هو التاريخ الوارد في الحوليات السريانية التي نشرها الأستاذان جب وترتون في

J. R. A. S. , أما عماد الدين فقد قدم لمحاصرتها يوم الخميس ٣٠ نوفمبر .

(٣) تفصيل قوات زنكي وقواده وموقع كل منهم بالنسبة إلى الرها وارد في J.R.A.S. ,

280 - 281 ، أما فيما يتعلق ببعض أسماء الأماكن الواردة هنا فراجع op. cit. p. 103

4. note هنا وقد حفلت المصادر العربية بذكر الدفاع لزنكي على هذا الحصار ، راجع الروضتين

لأبي شامة ، ج ١ ، ص ٣٦ ، وابن خلدون . العبر ، ج ٩ ، ص ٥٣٥ ، وأبو الحسن : النجوم

الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٢٧٥ . J.R.A.S. , p. 280 - 281

سرياني ، والثالث أرمني^(١) ، ريثما تصل إليهم الإمدادات من أميرها جوسلين ومن مليناند الوصية على عرش مملكة بيت المقدس ومن ريموند دي بواتيه أمير أنطاكية . على أن الفضل في استمرار هذه المقاومة وشدة الدفاع يرجعه وليم الصوري إلى « هيج » مطران البلد اللاتيني^(٢) ، وقد ترك لنا هذا المؤرخ صورة مشرقة لدفاع أهل البلدة وتفانيهم في القتال ، فضلا عن الموقف النبيل الذي وقفه المطران هيج من دفعه الرواتب من ماله الخاص لحماية الرها ، وقوله « إنه يسعده أن يموت في الدفاع عنها » ؛ وقد تباطأ ريموند دي بواتيه في نجدة الامارات الصليبية ، وتلك من الغلطات الجسام التي أخذها عليه أحد المؤرخين الصليبيين حين راح يستعرض حياته بعد قتله^(٣) ، أما ملكة بيت المقدس فقد أرسلت نجدة بلغت البلد متأخرة .

خاف زنكي أن يتسرب الملل إلى جنده ، لا سيما التركان من طول مقاومة الأعداء لهم وشدتهم ، وخشى أن يجد العدو فسحة من الوقت تصله فيها الإمدادات ، فكتب أهلها طالبا التسليم فأبوا ، فعجل بنصب آلات الحرب وضربها بالمجانيق ، وعملت المجاعة في القوم عملها ، فلم تلبث المدينة أن سلمت إليه يوم ٢٦ جمادى الآخرة ٥٣٩ هـ (٢٣ ديسمبر ١١٤٤^(٤)) بعد حصار عنيف وبعد أن أحيط بها من جميع الجهات وحيل بينها وبين ما يصل إليها من الميرة والأقوات ، حتى « صار الطائر لا يكاد يقترب منها خوفا من صوائب سهام منازلها ويقظة المضيقين عليها^(٥) » ، كما ترك لنا أحد شعراء الأرمن وصفاً لشدة قتك المسلمين بمن كان داخل الأسوار^(٦) .

J R A S, 1932, Op. Cit (١)

G T, p. 711. (٢)

G.T., p. 773. (٣)

(٤) ابن القلانسي : الذيل ، ص ٢٧٩ ، المنتظم لابن الجوزي ، ج ٨ ، ورقة ١٠٠ .
JRAS, p. 284 ; Gibb : op. cit. p. 267.

(٥) ابن القلانسي : الذيل ، ص ٢٧٩ .

(٦) فيما يتعلق بهذه الناحية في الشعر الأرمني راجع Documents Armenien 5, 258
vers 960 — 1045 ; Greg. Le Prêtre, p. 158.

ثم أمّن زنكي أهل الرها وحلف لهم الأيمان المغلظة على ذلك وإن اختلفت
المراجع في بقاءه على هذا اليمين^(١). والظاهر أن جند زنكي قد ازدهام
النصر والفتح، فأخذوا في السلب والنهب، الأمر الذي لم يرض زنكي ألبتة،
إعجابا منه بالبلد وإكبارا منه أن يفسدها، ورأى أن في تخريب مثلها ما لا يجوز
في السياسة^(٢)، والظاهر أن زنكي لم يستعمل الفظاظ إلا مع الفرنجة^(٣)،
أما من سواهم كالأرمن والسريان والروم فقد وسعهم رحمته، يؤيد هذا رواية
ميخائيل الشامي والمؤرخ المجهول^(٤).

لكن ما هي أهمية سقوط الرها في يد زنكي؟ ألأنها معقل من معاقل
الكاثوليكية؟ أم لأنها بقعة من الغرب المسيحي وسط الشرق الاسلامي؟
أم لأنها كانت تهدد طرق القوافل التي تمر عبرها إلى شتى بقاع البلاد
الاسلامية؟

الواقع أنها ذلك كله، وهي أيضا أول ثغرة نفذ منها المسلمون إلى غيرها
من البلدان الصليبية التي لم تلبث أن سقطت في يد زنكي. ثم إن سقوطها في
أيدي المسلمين يعتبر أول لغم وضع في أساس البناء اللاتيني في الشرق، كما أنه
أطمع المسلمين وأمرأهم لاسيما في عهد نور الدين من بعد — في الانقضاء
على أطراف تلك الأمارة، التي لم يبق منها في يد جوسلين سوى تل باشر

(١) الفارقي في ابن القلائس، ص ٢٧٩، حاشية رقم ١.

(٢) الكامل، ج ١١، ص ٤٥.

(٣) Grousset : Hist. des Croisades, t. II, p. 191.

(٤) I R A S. p. 285, 290, Mich., p. 263. ويذكر المرجع الأخير أن صلاح الدين

الباغستاني ذهب إلى القلعة بعد دخول المسلمين الرها وأمسك بيد المطران وقال له « نطلب من
قداستكم أن تقسم لنا على الصليب والإنجيل أن تخلف لنا لأنك تعلم تمام العلم أنكم جميعا تستحقون
الموت لأنكم قاومتونا واحترمت نبينا، ونحن مستعدون لأن نحسن معاملتكم ونطلق سراح
أسراكم، وإنكم لتعرفون أنه منذ احتلال المسلمين لهذا البلد بقي في يمينهم مدة قرنين مزدحا
بالسكان، واليوم — بعد خمسين عاما من احتلال الفرنجة إياه — صار خرابا، وإن الحاكم
[يعني زنكي] لمستعد لحسن معاملتكم »؛ فأخرجوا من القلعة جميع من بها من السريان والأرمن
ونهبوا الفرنجة وحدهم، كذلك يشير إلى أن المسلمين لم يتعرضوا لغير كنائس اللاتين.

وسمي سطا ودلوك ومرعش وعنتاب وعزاز وألبيرة، التي لم يلبث جوسلين أن
سلبها من تلقاء ذاته إلى نجم الدين قمر تاش صاحب ماردین عدو زنكي (١).
وسواء أكان تسليم ألبيرة رغبة من الصليبيين في صد زنكي عنهم أم زيادة
في الإيقاع بينه وبين صاحب ماردین، فالواقع أن سقوط الرها كان أول
ضربة عملية ضد القوة الصليبية في الشام، ودلت على أن أمورهم أخذت منذ
ذلك الحين «تفسخ، ومعاقبها تفرع» (٢)، وهذه هي أول خطوة عملية في
إقامة السياسة التي انتهجها نور الدين فيما بعد.

لكن ما هو الثمن الذي حصل عليه الصليبيون لقاء تسليمهم ألبيرة؟ لاشك
أن هناك غاية أعمق من زيادة النزاع، والمتبع لسياستهم في هذا العصر يرى
أنهم أخذوا في تكوين شبه تحالف مع الإمارات التي يمكن أن تناهض القوة
الإسلامية الفتية الجديدة، فكان هذا ثمن المصادقة بين الصليبيين أصحاب ديار
بكر ضد زنكي، غير أن هذه التحالفات كانت محالفات شخصية فردية.
ومهما يكن الأمر فقد عد المسلمون سقوط الرها فتحامينا، وأن المحاربين
فيها كانوا مجاهدين، ومن مات بسيف الصليبيين فقد مات شهيدا، مغفورة
له خطايا (٣).

ترى هل يمر على المسيحيين انتصار زنكي دون أن تكون له ذبول؟ وهل
لهم أن يطمئنوا إلى مجريات الأمور على ذلك المنوال، الواقع أن هناك

(١) هذه هي رواية ابن الأثير: الكامل، ج ١١ ص ٧٦—٤٧، أما ابن القلانسي «الذيل»
ص ٢٨٠ فيذكر أن عماد الدين توجه إلى حصن البيرة وأخذ في مضايقته حتى ضعف أمره
وعدت الميرة فه، وكاد أن يتم له الاستيلاء عليه لولا ما بلغه من وثوب الملك فرخان شاه على
نايبه بلووصل الأمير نصير الدين، بخاف العماد من اضطراب الأمور في ولايته فرفع الحصار
عن ألبيرة، وجرى بعد ذلك تسليم الأفرنج بها إلى صاحب ماردین في قول، أوغزو صاحب
ماردین لها في قول آخر. أما ابن الأثير في كتابه أنابكة الموصل، ص ١٢٦، فيرى أن
شدة مقاومة الحامية في الدفاع عنها أرغمت زنكي على الارتداد عنها، أنظر أيضا JRAS.
p. 286 — 287.

(٢) البنداري: مختصر تاريخ دولة آل سلجوق، ص ١٨٦.

(٣) الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٤٦.

جماعات من أهلها ساءتها النسبة الملمة ببلدهم فأخذت تتحين الفرصة للتخلص من المسلمين ، يدفعها إلى ذلك عامل الدين من جهة وعامل السياسة من جهة أخرى .

أما من الناحية الدينية فتتمثل لنا في غضب أهلها من استيلاء المسلمين على موجودات الكنائس ، وينص المؤرخون جميعا على أن الأمر من وخدم بعد الصليبيين — كانوا أشد سكانها نقمة على المسلمين وتأفقا منهم ، فقاموا بتدبير الثورة ضدّهم ، واهتبلوا فرصة انشغال زنكي في محاصرة دمشق فيما بعد لمحاولة إخراج المسلمين من الرها ، غير أن « مكتوم أمرهم ظهر ، ونخفي أمرهم انتشر ^(١) » ، فبادر زنكي إلى الضرب على أيدي موقظي الفتنة ^(٢) ولكنّه كان شديد العطف على السريان ، حتى لقد زار في بعض المرات كنائسهم ، وأمر أن يوضع فيها جرسان كبيران كما كانت العادة قبل مجيء الفرنجة ، وعهد بحماية البلد إلى مطرانهم ، أضف إلى هذا أن عسكر الصليبيين المتجمع بناحية تل عدى شمالي أنطاكية (وهو العسكر الذي أوفدته مليزانة لخدمة جوسلين الثاني) كان قد ورد الرها في رمضان ٥٣٩ هـ (= مارس ١١٤٥ م) لإنجاد أهلها ، فأنهض زنكي إليه حملة وافرّة العدد من طوائف التركان والأجناد ^(٣) فأعملت في ذلك العسكر مقتلة عظيمة . ومن ذلك يتبين لنا أنه كان هناك شيء من الاتصال بين أرمن الرها وصليبي أنطاكية ، هدفه القضاء على العدو المشترك . لكن زنكي كان قد اطمأن باله من ناحية أهل الرها بعد أن أعطاهم درسا قاسيا عرفوا منه مقدار بأسه وشدة بطشه ، وبث عيونهم حولهم ورآى أن يحتاط لأملاكه ياخضع الحصون والقلاع التي كان يخشى أن تكون في يوم ما مبعث خطر على دولته المرجاة كما أراد ألا يكون في وسط بلاده ما هو مملك غيره حزما واحتياطاً ، فأرسل تجهيزه حاصرت فنك ، ومضى هو لحصار قلعة

(١) ابن الفلانسى ، الذيل ، ص ٢٨٢ .

(٢) J A R S , 1933 , p. 291 .

(٣) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ص ٩٤ .

دوسر أو جمبر محولا أخذها من يد صاحبها سالم بن مالك العقيلي ، ولبث مضايقا لها دون أن يستطيع امتلاكها، وترددت بينهما الرسل بغية تسليمها إلى زنكي ، فأبى ابن مالك ، فأقام الأتابك على حصارها ، ودس صاحبها من كان عماد الدين ياتمه ويدنيه إليه وهو خادم فرنجي اسمه «يرنقش»^(١) ، فقتله ليلة ٦ ربيع الآخر ٥٤١ هـ (٤ سبتمبر ١١٤٦) ولعله كان باطنيا^(٢).

بهذا ختمت صفحة أعمال زنكي ، وبموته انتهت الحلقة الأولى من سلسلة المحاولات الإسلامية في تكوين جبهة قوية لمقاومة الصليبيين ولطردهم من بلاد الشام ، وعلى الرغم من فشل جميع المحاولات التي قام بها الأمراء المسلمون في شمال العراق لذلك الغرض فإنها اختمرت في النفوس ، ووجدت مايزكيها من أطاع زنكي ، وبدا ضعف الصليبيين ، ولكنها كانت تصطدم في ذلك كله بمؤامرات الحشاشين الذين آخروا تكوين الجبهة الإسلامية حتى منتصف القرن الثاني عشر ليم تأليفها على يد نور الدين بن زنكي . ويحمل القول إن محاولات الأمراء المسلمين في شمال العراق وبلاد الشام كانت بذرة طيبة وجدت تربة قوية طيبة فأنت أكلها بفضل التكتل الشرقي واستعداد البلاد الإسلامية وإفاقها من الضربات التي أخذت تتلاحق عليها منذ مقدم الحملة الصليبية الأولى إلى أطراف منطقة الهلال الخصيب .

(١) هكذا في ابن القلانسي ، ص ٢٨٤ ، ٢٨٨ ، ويسميه صاحب الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٢ ، « برنقش » ، أما ابن الأثير . الكامل ، ج ١١ ص ٥٠ . JRAS, p. 291 (1933) . فلم ينص على اسم قاتله راجع أيضا 3 Gibb : Damascus Chronicle, p. 271. note . وتاريخ الإسلام للذهبي ، ورقة رقم ٩٤ .

(٢) يحتمل المؤرخون لتبرير قتله . فيزعمون أن الأتابك نام لينته وهو سكران فتمرع الخدام في اللعب فزجرهم بخافوه . فلما نام وثب عليه كبيرهم فقتله . والظاهر أن هذا الخادم كان على صلة بسالم بن مالك العقيلي . يؤيد ذلك أن قتله خرجوا بعد ذبحهم ليأه . وراحوا إلى قلعتهم ، انظر الذهبي تاريخ الإسلام ، ص ٩٥ . المنتظم لابن الجوزي . ج ٨ ص ١٠٥ ، ١٠٧ . اخبار الدول المنقطعة ، ورقة ١٦١ ب ، وأبوشامة في الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٢ ، وابن الأثير : الأتابكة ص ١٣٢ . والكامل ج ١١ ص ٥٠ ، والنجوم الزاهرة . ج ٥ ، ص ٢٧٩ وابن العديم : منتخبات . ص ٦٨٨ وابن عساكر ، ج ٥ ص ٣٨٥ Gregoire, le Prêtre, p. 159 — 160 et note 1, p. 160.

الفصل الثاني

السلطان نور الدين

وبلدوين الثالث ملك بيت المقدس

(١١٤٣ - ١١٥٤ م)

سياسة نور الدين إزاء إتر . محاولة التوتناش الاستقلال عن دمشق . موقف صليبي بيت المقدس من حركته . نقض التحالف الدمشقي الصليبي . تسليم صرخد لأثر وفشل الحملة الصليبية . أسباب هذا الفشل . البابا يوجين الثالث يدعو للحرب الصليبية الثانية . استجابة لويس السابع وكونراد الثالث . موقف الأمبراطورية البيزنطية . موادعتها مسعود سلطان قونية . وصول لويس السابع إلى أنطاكية . فشل ريموندى بواتيه في توجيه الحملة الصليبية ضد حلب بسبب سياسة مليزاند ملكة بيت المقدس . الجفوة بين ريموند ولويس السابع . مؤتمر بيت المقدس الصليبي . تقرير مهاجمة دمشق . عوامله ونتائجه . بلدوين الثالث ومحاولته الاتفاق مع دمشق . تخوف نور الدين وقيامه بحملة حورات . استغاثة دمشق ببلدوين ١١٥٠ . نور الدين « يجاهد » أرباب دمشق . الصلح بينهما . معاودته إثارة دمشق . رحيل الصليبيين . هجوم نور الدين على دمشق ونزوله « البقاع » . أبقى يطلب الصلح . مهاجمة بلدوين الثالث لعسقلان تحمل نور الدين على ضم دمشق إليه نهائيا سنة ١١٥٤ .

انقسمت مملكة زنكي بعد وفاته إلى قسمين . الشرقى وعليه ابنه الأكبر غارى ومقره مدينة الموصل ، والغربى وعليه ولده الآخر نور الدين محمود ومقره مدينة حلب . وقد أدى الوضع الجغرافى للقسم الغربى لأن يكون صاحبه وريثا المشككتين الكبيرتين اللتين صرف زنكى فى معالجتهم معظم أيامه ،

وهما دمشق والقوات الصليبية بالإمارات اللاتينية المختلفة .

على أن نور الدين في مملكته بحلب كان أحسن مكاناً من أيه، لاضطلاع أخيه غازي من ناحية الشرق على الأقل بمراقبة القوات المتطلعة للوثوب من كل حذب وصوب على شقي المملكة الزنكية . والواقع أن نور الدين لم يكذب يستقر بحلب حتى بدت له أطاع دمشق حيث كان « أنز » صاحب الكلمة النافذة والرأي المسموع إلى جانب أميرها محمد بن بوري، فطلع أنز لاسترداد بعلبك قبل أن يفيق الزنكيون بما نزل بهم من مقتل عميدهم ، ولم يجد أدنى صعوبة في تحقيق بغيته ، إذ سلمها إليه واليها نجم الدين أيوب بن شاذي في جمادى الأولى ٥٤١ هـ (أكتوبر ١١٤٦ م ^(١)) . وقد قرر أيوب أن يسلمه إياها اعتقاداً منه فيما يبدو أن نور الدين لن يتحرك لنجدته إذا هو اختار المقاومة ، وأن أنز سيكون الشخصية البارزة بين القوى الإسلامية من بعد زنكي ، ولا أقل من المسارعة إلى كسب صداقته بتسليم بعلبك إليه ، ولم يعدم من المؤرخين من يبرر عمله هذا فينبعته بأنه « عمل دل على معرفة منه بالأمور » ويظهر أيضاً أن أيوب كان أكثر جنوحاً للسلم في كل أعماله ، وأن ما عرضه عليه « أنز » ثمناً لتسليم بعلبك قد كفاه مؤونة التردد ، إذ أقطعه أتابك دمشق إقطاعاً ومالاً وعشر قرى من بلاد دمشق ^(٢) .

ولقد بدا كأنما نجم الدين كان محقاً فيما فعل من تسليم بعلبك لأنز، فإن نور الدين لم يحرك ساكناً على الرغم من ذلك التحدى العنيف السافر من أتابك دمشق ، على أن هذا الموقف السلمي الذي استهله به نور الدين عهده إنما يرجع إلى السياسة التي رسمها لنفسه لتكامل مشروع أيه ، وهو المحافظة على الرها والتفرغ لمحاربة الإمارات الصليبية الباقية، إذ رأى أن تلك العملية

Gibb : Damascus Chronicle, p, 273. (١)

(٢) ابن القلانسي : الدبل، ص ٢٧٧-٢٨٨ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٥٣ ،

Gibb : Op. Cit. Loc. Cit., note 1.

تتطلب منه اكتساب عطف المسلمين الذين علمتهم مواقف زكي منهم أن يقفوا من ابنه موقف التشكك والارتياب، واعتقد أن سياسة الحرب ضد الصليبيين لن يقدر لها النجاح إلا بعد لم شمل القوى الإسلامية وتكتملها جميعها كتلة واحدة يمكنها من المقاومة بل ومن الهجوم، لذلك تقرب نور الدين إلى أنز بدلا من أن يعلن الحرب عليه أو يحاول إخراجه عما بيده، فتزوج من ابنته سنة ١١٤٧ م . على أن زواج نور الدين من ابنة أنز لم يؤدي إلى إلغاء الحلف القائم بين دمشق وبين مملكة بيت المقدس وسائر الصليبيين بالشام، بل ظل أنز حافظا للوادعة التي بينه وبينهم، لعلمه أن ضياع ذلك الحلف قد يؤدي إلى ضياع دمشق . ولو كان الأمر بيد « أنز » وحده لبقى ذلك الحلف قائما على الرغم من زواج نور الدين بابنته، غير أن الظروف عملت على تحطيم الحلف في سرعة غير منتظرة ولا مرجوة من جانب أتاك دمشق . ذلك أن « ألتونتاش »^(١) والي حوران فكر في الاستقلال بولايته، وأعلن الخروج على الأمير محمد بن بوري وأتابكه أنز، وتلفت حوله باحثا عن عضد له فلم يجد سوى مملكة بيت المقدس لتحقيق مأربه، شجعه على ذلك عليه بأن سياسة المسالمة التي دأب عليها فولك الخامس نحو دمشق قد انتهت بوفاة هذا الملك في نوفمبر سنة ١١٤٧ م، وقيام المملوك الوالدة مليوناند بالوصاية على ولدها بلدوين الثالث . وكانت مليوناند قد قربت إليها أحد أقاربها واسمه « مناسي »^(٢) الذي تطلع الاستبداد بالحكم، ولم تجد المملوك

(١) هكذا في Stevenson . Crusaders in the East, p. 158, Gibb : Op. Cit, p. 276 والروضتين لأبي شامة، ص ٥٠، أما صاحب الذيل، ص ٢٨٩، ٢٩٠ فليسميه « أليونياس »، ويسميه وليم الصوري Tantayos، راجع ثبت الأعلام الواردة في آخر هذا الكتاب، وفي الاعتبار لأسامه بن منقذ شبيه بهذا الاسم برسم « ألتونتاش »، وهو في المخطوطة الأصلية بغير نقط، وإنما التتيط من الناشر الدكتور فيليب حتى كما نص على ذلك في ص ٧٨ حاشية رقم ١٧٨ .

(٢) Rey : Colonies Franques, p. 544. ; G. T., p. 780 — 781 وسيأتي تفصيل

هذا الدور في نهاية الحرب الصليبية الثانية بعد قليل .

الوالدة أدنى غضاضة في مساعدته رغم أن ذلك يضر بمصالح ابنها والمملكة
معا ، ولم تتخرج عن التآمر على ولدها بلدوين الثالث من أجل تحقيق مآطمع
« مناسي » ، فلا عجب أن شجعت تلك الحال والى حوران على التفكير في
مفاوضة مملكة بيت المقدس رجاء معاونته في الانفصال عن دمشق ، فعاد
حوران في ذى الحجة سنة ٥٤١ تاركاها زوجته مع قليل من الجند^(١)
التابعين لحوران. وقد رأى الأمراء الصليبيون في بيت المقدس في ذلك
العرض فرصة طيبة لمد نفوذهم إلى تلك البقاع ، عسى أن يؤدي ذلك في
النهاية إلى أخذ دمشق وما حولها وبذلك يجد أولئك المخاطرون إمارة جديدة
توسع نشاطهم ويكوثون في نواحيها مناطق تستظل بالنفوذ الصليبي ، ووافقهم
على هذا الرأي مؤتمرا ضم أمراء أنطاكية وطرابلس ، فأرسلوا إلى « أنر »
رسلا من قبلهم ينبئونه بانتهاء أجل المواعدة التي بينه وبين القوى الصليبية
بالشام ، وأنهم آخذون في مساعدة والى حوران لتحقيق مطلبه ، فأجابهم
« أنر » بأن استمرار الحلف الدمشقي الصليبي يعود على الجانبين بالفائدة^(٢) ،
ووصل رسلمهم بكثير من الهدايا والخلع مما يدل على صدق في رغبته إبقاء
الحال على ما هي عليه .

الواقع أن أنر أدرك أن تحالفه مع الصليبيين — رغم ما فيه من الخط لسكرامته
في أعين بعض المسلمين — أسلم عاقبة من بقائه وحيدا أمام نور الدين الذي
ما فتى يتطلع إلى استرجاع بعلبك والعودة إلى مشروع الاستيلاء على دمشق
لذلك رأى أنر ألا بد له من الإبقاء على ذلك الحلف . ويظهر أن جانبنا من
مجلس الدولة بمملكة بيت المقدس كان يؤثر أيضا المحافظة على ما بين المملكة
وبين دمشق من المواعدة ، بدليل الرسالة التي أنفذوها إلى أنر مرة أخرى

(١) ابن القلانسي : الدبل ، ص ٢٨٩ .

(٢) G. T., p. 716 — 717 .

يطلبون منه الإذن للقوات الصليبية أن تعبر أرضه لترد ألتونتاش إلى ولايته ويتعهدون له ألا يصيب دمشق وما حولها أي خطر منهم^(١). وقد حمل تلك الرسالة « برنارد فيثيه » « Bernard Vachier » أحد فرسان الصليبيين وكان متقنا للسان العربي ، فعاد هذا الفارس إلى بيت المقدس وأيد رأي « أنز » وأوضح الملك بلدوين الثالث — وكان غلاما — ولحاشيته أنه من الخير للصليبيين بالشام أن يعضوا الطرف عن حملتهم التي جهزوها لمساعدة والي حوران .

غير أن جماعة من الفرسان والبارونات بمملكة بيت المقدس رأوا ألا يتراجعوا عن عهد قطوعه لألتونتاش على الرغم من إدراكهم التام لضرورة المحافظة على التحالف الدمشقي الصليبي ، وذلك لأن مشروع مساعدة ألتونتاش كان قد اختلط في الواقع برغبة بعضهم في امتلاك أراض وحصون جديدة على حساب القوات الإسلامية المجاورة . لذلك انتهى الأمر بقيام الحملة بقيادة الملك بلدوين الثالث وجماعة الأمراء والبارونات في مايو سنة ١١٤٧ من طبرية ، ثم عرجت الحملة نحو « جولان » على شاطئ اليرموك لأنه أقصر الطرق المؤدية إلى حوران ، وواصلت السير حتى بلغت وادي الزيدى حيث انضمت إليها فئة من رجال ألتونتاش قاصدة صرخد^(٢) . وبينما الحملة الصليبية في طريقها خرج أنز بما استطاع جمعه من القوات الإسلامية وعزم على أن يقطع على المغيرين طريقهم ويحول بينهم وبين إتمام رحلتهم^(٣) . فنزل أولا على صرخد ، وفاجأها في غيبة صاحبها ألتونتاش ، لكنها استعصت عليه ، فأرسل يستعين بنور الدين الذي لبي دعوته ، وأقبل نور الدين في مايو

G. T. , p. 717. (١)

G. T. , p. 718 . ١١٦ — ١١٥ ، ص ٨ ، ج ٨ ، المنتظم في أخبار الأمم ، ج ٨ ، ص ١١٥ — ١١٦ . (٢)

Gibb: Damascus Chronicle, p. 277 ، ص ٢٨٦ ، الدليل . (٣)

١١٤٧^(١) في جيش كثيف وجماعة من التركان « فلم يشاهد أحسن من عسكريه
وهيئته ووعده ووفور عدته ، وقد فزع مسيحيو صرخد وأصحاب ألتونتاش من
قوة معين الدين ونور الدين « وزاد من جزعهم ما بلغهم عما لقيته هذه الحملة
الصليبية طول الطريق من الظماً والمشقة » ، مما سيؤدي إلى تأخير وصولها
إليهم . لذا أرسلت زوجة ألتونتاش من حوران إلى أنز وإلى نور الدين
تتلمس منهما الأمان ، ولم تكن صادقة فيما أظهرته من الرغبة في الاستسلام
ولكنها طمعت في أن تكسب الوقت ، حتى إذا وصلت الإمدادات الصليبية
إلى صرخد صار من اليسير رفع الحصار عنها ، ولم يفت مرماها الأتابك أنز
فألح في الحصار وتم له ما أراد ، فسلم صرخد دون أن يتناهي خبر التسليم
إلى رجال الحملة الصليبية ، ومن ثم لم يعد هنالك ما يدعو لها ألبتة . كما أنه لم
يعد ثمت أمل في إرجاع الحلف بين دمشق وبين بيت المقدس بعد أن نهج
الصليبيون بمملكة بيت المقدس هذا النهج الخاطيء ورسموا لأنفسهم سياسة
ملتوية أضرت بمصالحهم ، وكشفت عن مبلغ فساد أمورهم وقصر نظر القائمين
بتدبير شؤونهم .

على أن الحملة الصليبية لم تشأ العودة صفرالدين ، بل رأت التحول عن
طريقها إلى بصرى ، ولم يكن رجالها مصيدين في ذلك التوجيه الجديد ، لأنهم
بلوا في أثناءه بنقص في الأقوات والمياه والجند ، فضلاً عما عانوه من مشقات
الطريق^(٢) . ولما علم أنز ونور الدين بتلك الخطوة الجديدة « نهضت جيوشهما
كالشواهين إلى صيدها ، والبرازة إلى أحجالها » وكان الصليبيون قد تغلبوا على
بعض صعوباتهم حينما دهم ألتونتاش على آبار عذبة يستقون منها ، لكنهم

(١) حقق تاريخ هذه الحملة ونهوض نورالدين الأستاذ جبي في المرجع السابق ، ص ٢٧٧ ، حاشية
رقم ١ ، كما صبح ما جاء في ابن الفلانسى ، ص ٢٨٩ ، س ٦ من تحت .

G. T., p. 719. (٢)

لم يكادوا يبلغونها حتى وجدوا أنز ونور الدين وجنودهما قد سبقوهم^(١) إليها ، وحالوا بينهم وبينها ، وجرت بين الفريقين وقعة حول تلك الآبار في السابع والعشرين من محرم ٥٤٢ هـ (يونيو ١١٤٧)^(٢) . وامتلك المسلمون بعدها بصرى .^(٣)

لم يجد الصليبيون بدأ بعدئذ من التراجع إلى بيت المقدس مخافة أن تتقدم جيوش المسلمين فتغير على بلادهم بعد الاستيلاء على بصرى لقربها من حدود المملكة الصليبية . وقد أظهر بلدين الثالث - رغم صغر سنه - بطولة لم تكن تنتظر من فتى في مثل عمره ، لكن قد توجد الحكمة وسداد الرأي والشعور بالمسئولية في الشباب والشيب ، إذ أبى التراجع والسلامة لنفسه دون رجاله وأصر على أن يشاطر جيشه مصيره ولو أدى به إلى التهلكة ، على أن أنز لم يتعقبهم أو يتخطف ساقتهم .^(٤)

ولعل أعجب الصور القلبية التي تركها وليم الصوري بكتابه هي تصويره لارتداد الصليبيين بقيادة بلدوين الثالث في أكل نظام وأعجبه فلم يصرفهم هول الموقف عن المحافظة على جرحاهم ومرضاهم ، فجعلوا منهم فريقا يحمل هؤلاء رغم المشقة التي لاقوها ، مما دعى المسلمين للإعجاب بهم وقولهم عنهم « إنهم شعب حديدي »^(٥) . ولعل هذا الإعجاب هو الذي أدى بأنزل كف المسلمين عنهم « إشفاقا من كرهة تكون لهم »^(٦) أي مخافة أن ينقلبوا إلى الهجوم فجأة فيفسدون عليه نصرته . ولعل « أنز » قد عمد إلى ذلك أيضا رغبة منه في إفهام نور الدين - من طرف خفي - أن الصليبيين لا يزالون على جانب من القوة لا يستهان به ، وأن هذه النكبة التي حاقت بهم إن هي إلا نكبة

G. T., p. 721. (١)

Gibb : Damascus Chronicle. p. 278. (٢)

(٣) ابن القلائسي : التذييل ، ص ٢٩٠ .

G. T., p. 720. (٤)

G. T., p. 723. (٥)

(٦) ابن القلائسي : شرحه ، ص ٢٩٠ .

عارضة لاتلبث أن تزول ، ويكون هدف معين الدين من ذلك هو إخافة نور الدين منهم ، وتهديده بتحالفه معهم إن عاد أمير حلب إلى التفكير في الاستيلاء على دمشق . وربما عمد أنر إلى ذلك الموقف من الصليبيين لأنه لم يرد القضاء على الصليبيين حفظاً للتوازن ، ولأن إضعافهم وتحطيم قواهم يؤدي بنور الدين إلى التفكير الجدى في الاستيلاء على دمشق وتيسير الأمر عليه .

وكيفما كان الأمر فقد ألنى الصليبيون أنفسهم في موقف صعب ، إذ أخذت نبال المسلمين تنوشهم من كل جانب رغم تعليمات أنر ، كما ترصد هم التركان في معارج الطرق والأوعار . ولم ير الصليبيون بداً من أن يبعثوا بمبعوث من قبلهم « يتقن اللسان العربي »^(١) ، ليسأل أنر ونور الدين أن يأذنا لهم بهدنة يتمكنون خلالها من دفن قتلاهم ثم العودة إلى بيت المقدس فلم يقدر لهذا الرسول تأدية رسالته ، إذ عوجل في الطريق على يد نفر من المسلمين أردوه قتيلاً ، واضطر الصليبيون لمتابعة السير رغم أخطار الطريق وبعد الشقة وتربص العصابات لهم وقلة ما يدهم من الزاد^(٢) . وهنا تظهر حادثة تتمجلى فيها روح الفروسية التي امتاز بها العصر الوسيط ، فقد وصل إلى الصليبيين مبعوث من قبل « أنر » يدهم بالمشورة اللازمة حتى يعودوا إلى بلادهم ، كما جاءهم فارس عرني يبصرهم مسالك الطريق^(٣) ، أفلا يدل ذلك أيضاً على أن أنر كان مرغماً على مصالحة نور الدين ، وأنه كان يخشى أن تنجو دمشق من الخطر الصليبي لتقع فريسة للخطر النورى الذى لم يخف عليه ولا على بلدين الثالث؟ والواقع أن التحالف الدمشقي الصليبي كان

(١) G. T., p. 725. ولم ترد الإشارة في هذا المرجع المعاصر الى اسم ذلك والأغلب أنه هو نفس الفارس الصليبي « برنارد فيشيه » ، حيث يذكر ولیم الصورى في ثنايا عرض هذه الحال إلى أنه أوفد من قبل في بعثة إلى المسلمين ، ولم يسبق للصليبيين أن بعثوا من قبل سوى « برنارد فيشيه » .

G. T., p. 724. (٢)

G. T., p. 724—725. (٣)

في صالح الصليبيين أكثر مما هو في صالح الدماشقة ، وإنما انتفعت به دمشق مؤقتاً في إنقاذها من استيلاء زنكي عليها من قبل ، وكانت السياسة العامة تقتضى من الصليبيين أن يكونوا أكثر تبصراً وإدراكاً للحوادث والنتائج فلا يفصمرون عرى ذلك التحالف لنزوة طارئة من أجل رغبة جالت في نفوسهم ، وكان الأجدد بهم أن يردوا « ألتوتاش » عن قصده ، أو يتركه لصاحب دمشق الذي كان بلا شك يعيدها لهم منة كريمة عليه ، وبذلك تتأكد عنده رغبتهم الصادقة في المحافظة على مودته ؛ غير أنهم لم يقصدوا الظروف ، فأيدوا « ألتوتاش » في نزوته وفشل كل منهما فيما استهدفه ، وهكذا خسر صليبيو بيت المقدس شيئين : أولهما تحالفهم مع دمشق وثانيهما استطاعتهم رد صاحبهم الأرمني إلى بلده . ثم هنالك ما هو أشد من ذلك كله ألا وهو التحالف بين أنز وبين نور الدين ، الأمر الذي كان ينبغى على الصليبيين العمل على تجنبه حتى لا يتيحوا الفرصة لنور الدين للتدخل في أمور دمشق ، فيصبح على مقربة منها ومنهم ، وخطر آ عليهم . ولم يفت شبه هذا الأمر فولك الخامس^(١) ، فكان يسعى جهده لابقاء دمشق بعيدة عن مجال التحالف مع عماد الدين زنكي ، ولكن سوء سياسة ميليزاند ورعونة تصرف مناسي وصغر سن بلدين الثالث عملت على سرعة تدخل نور الدين في أمور دمشق تدخلا لم يكن من صالح أنز ولا من فائدة الصليبيين ، بل سيؤدى حالا إلى تمكين السلطان من تحطيم القوى الصليبية في بلاد الشام بجمعها .

على أن التحالف بين نور الدين وأنز أدى إلى أكثر مما يبدو لأول وهلة ، لأن الحملة الصليبية المعروفة بالثانية ، وهي الحملة التي أخذت تتكون في أوربة

(١) دأب فولك الخامس (١١٣١-١١٤٢ م) على قطع كل صلة تحالف بين الإمارات الإسلامية وبين زنكي ، ولذلك نراه ينهض لدفع عماد الدين عن حمص في يوليو سنة ١١٣٧ ، وإن فرها السكتاب المسلمون برغبته في امتلاكها وضمها للصليبيين ، أنظر في ذلك ابن العديم ،

بعد سقوط الرها لم تفكر حين وصولها إلى الشرق في تحقيق ما جاءت من أجله - أي استرجاع الرها - بل وقعت تحت تأثير الخطر الذي أحست به مملكة بيت المقدس من جراء التحالف بين نور الدين ، ووجهت قواتها ضد دمشق بغية الاستيلاء عليها .

ذلك أنه لم تكذب أخبار سقوط الرها وانتصارات نور الدين فيها على من بها من الصليبيين تبلغ مسامع البابا « يوجين الثالث » حتى اعتزم أن يمثل الدور الذي مثله إربان الثاني من قبل ، وهو تأليب أوروبا ، لا لاسترداد بيت المقدس بل لنصرة الصليب الذي أصبح مهدداً بالزوال من الشرق الأدنى ، فبعث إلى لويس وغيره رسالة جاء فيها « من الأسقف يوجين ، خادم خدام الرب ، إلى أعز أبنائه في المسيح لويس (السابع) ملك فرنسا . وإلى أبنائه الأحباء ... إن الرها قد احتلها الكفرة كما احتلوا كثيراً غيرها من قلاع النصارى » والخطاب طويل حفظته لنا الوثائق الغربية بنصه (١)

ومن قام بالدعاية لتلك الحملة القديس « برنارد » الذي دفعته حماسته إلى مطالبة كونراد الثالث إمبراطور ألمانيا للمشاركة مع لويس السابع ملك فرنسا في قيادة الصليبيين إلى الشام ، وقد لبى الإمبراطور والملك هذه الدعوة واستجابا لها وأخذ كل منهما يعد جيوشه للرحيل ، وبذا يمكن أن يقال إن هذه الحملة الصليبية المعروفة بالثانية كانت حملة نظامية وليست هجرة شعوبية كالأولى ؛ ولقد تطلع روجر الثاني ملك صقلية للمساهمة بنفسه في هذا المشروع ورغبة منه في أن يخرج بنصيب ، سواء أكان ذلك على حساب المسلمين أم الصليبيين بالشرق . على أن الواقع أنه كان يتطلع على وجه الخصوص إلى أنطاكية التي عدها من حقه (٢) بحق قرابته للأمير الراحل ،

Hist. Docum. translated by E. Henderson, p 333 - 336. (١)

وهذا الخطاب من كتاب « وثائق تاريخية متعلقة بالصور الوسطى » مترجمة بقلم المؤلف ولم ينشر بعد .

Chalandon : Comnènes, t. II, p. 265. (٢)

ولم يفت ذلك الملك لويس السابع ملك فرنسا ، فلم يوافق على ما عرضه « روجر » من الاستعداد للمساهمة بنفسه في الحملة ، فضلا عن الرجال والسفن لأنه لا يتأتى لملك فرنسا أن يقبل تلك العروض التي كانت لابد أن تؤدي إلى اصطدام روجر بالأمير الفرنسي ريموند دي بواتيه صاحب أنطاكية وعم الملكة « إينورا » زوج لويس السابع . على أن مشغلة لويس السابع بأمر أنطاكية لم تنته برفضه لعروض روجر ، إذ جاءه رسول من عند مانويل كومنين إمبراطور الدولة البيزنطية وهو في بعض الطريق عبر أوربة يعرض عليه استعدادة لتموين الجيش الفرنسي على شرط أن يعترف لويس السابع بسلطان الدولة البيزنطية على أنطاكية (١) ، وذلك فضلا عن مطالب أخرى طلبها الإمبراطور البيزنطي من كل من لويس السابع وكوثر الثالث على أن تلك المطالب لم تلق قبولا .

تلقت مانويل حوله ليري وسبيلة تساعده على تحقيق هدفه وإفهام الأوربيين أنه قادر على إيدائهم إذا شاء . وأراد أن يطعنهم في الصميم . وأية طعنة أشد وقعاً على الفرنجة من أن يتم الصلح بينه - وهو الإمبراطور المسيحي - وبين مسعود - سلطان قونية المسلم - الذي لا بد من أن يعبر الصليبيون بلاده (٢) . وهكذا خدمت الظروف نور الدين خاصة والإمارات الإسلامية عامة حيث شب النزاع بين إمبراطور الدولة البيزنطية وقادة الحملة الصليبية . ولم يلبث ذلك النزاع أن استحال إلى انقسام المسيحيين إلى معسكرين يسمى كل منهما الظن بالآخر . ثم وصل لويس السابع إلى أنطاكية (٣) يوم ١٩ مارس ١١٤٨ م عن طريق القسطنطينية وآسيا الصغرى ،

(١) Chaldon : op. cit. t II, p. 289 - 290 (d'après Oden de Deuil)

(٢) يصرح المؤرخ اليوناني « نيكيتاس » أن مانويل كومنين بعث بالرسائل إلى مسعود سلطان قونية يحثه على التهور لقتال الألمان في الوقت الذي كان فيه يعد العدة لاستقبالهم ويتظاهر بالإخلاص لهم ، أنظر : Stevenson : Crusaders in the East, p. 159; Dict. : أنظر des Croisades, arté Croisades, p. 285.

(٣) فيما يتعلق بأوليات نزول الفرنسيين في أنطاكية ، والبارونات الذين سحبا الملك

فبعث مقدم حملته الفرخ في نفوس ريموند دي بواتيه ورجاله وأهل الإمارة جميعا . ذلك أن أنطاكية كانت تتوقع منذ زمن بعيد أن تكون هدفا من أهداف نور الدين . إذ دلت بعض حركاته التي انتهت باستيلائه على أرتاح وكفر لانا القريبة منها على أنه شديد الرغبة في الاستيلاء على أنطاكية أو في إضعافها على الأقل بالاستيلاء على أعمالها القريبة منه حتى لا تكون منفذاً يثب منه الصليبيون أو البيزنطيون على حلب والأملاك الإسلامية بين حين وآخر . ولذا أشار « ريموند » بتوجيه الجيوش الفرنسية بقيادة لويس السابع ضد حلب وحماة . وطمع أن يتمكن بمعونة الفرنسيين من الاستيلاء على مدن عدوه وحصونه قبل أن يتحرك ذلك العدو نحو أنطاكية . ولم يكن ريموند مبالغا أو مشمتطا في تقديره ، فإن إمارة أنطاكية كانت ملاصقة لأملاك نور الدين ، وخريطة الحروب الصليبية تبين أن أنطاكية والرها أشد الإمارات اللاتينية ببلاد الشام حاجة لمساعدة الأوربيين ، وهما في الوقت ذاته محور الصراع الحقيقي بين نور الدين والصليبيين والبيزنطيين في النصف الثاني من القرن الثاني عشر .

لم يفد ريموند دي بواتيه أن يبين للصليبيين الأوربيين الخطر الجسيم الذي يهدد الإمارات اللاتينية بالشام من جراء وجود نور الدين قويا في حلب ، لأن مجرد هذا الوضع الجغرافي يمكنه من السيطرة على الطرق المؤدية إلى أنطاكية ، ومن ثم إلى طرابلس وبيد المقدس ، ومعنى هذا قدرته التامة على ضرب الإمارات الفرنجية في الشام متى شاء ، فإن لم يفعل ذلك فلا أقل من أنه يظل مصدر فزع ورعب لها ، أضف إلى ذلك أن استيلاء نور الدين على أرتاح وكفر لانا أدى إلى وجود سور من الحاميات الإسلامية شرقي نهر العاصي ، يحول بين صليبي أنطاكية وبين الداخل ، ويهدد سلامة الإمارة بين حين وآخر .

وقد يقال هنا إن مملكة بيت المقدس كانت أولى بتلك الجيوش الفرنسية التي بقيادة لويس السابع من أية إمارة صليبية أخرى لوجود الفاطميين في

مصر وقيام الدولة البورية في دمشق ، وكلاهما من يستطيع الإضرار ببیت المقدس . والرّد على هذا القول يتلخص في أن مصر كانت تجتاز دوراً عصياً هو دور الوزراء وتنازعهم السلطان فيما بينهم ، مما صرف الخلافة الفاطمية عن كل شيء إلا مشاكلها الداخلية ، أما إمارة دمشق فقد أخذت ترتب عن كسب الصراع بين نور الدين وبين الصليبيين دون أن تتدخل في صف أحد الفريقين . أما المسلمون من أهل شمال الشام فقد رجفت قلوبهم ، وخافوا على مصيرهم ومصير الإسلام في تلك الفترة العسيرة ، حتى ليرى وليم الصوري أن الفرصة كانت جد مواتية لتحقيق الهدف الصليبي لو لم يجعل الملك الفرنسي زيارة بيت المقدس مقدمة على ماسواها ، بل لقد ذهب لويس إلى أبعد من ذلك فصارح ريموند بأنه لم يحمل الصليب إلا دفاعاً عن مملكة بيت المقدس وزيارة أماكنها المقدسة ، مما أحق أمير أنطاكية . وربما يرجع سبب ذلك إلى أن مليناند - القائمة بالوصاية على عرش مملكة بيت المقدس - بعثت إلى لويس تصرفه عن مهاجمة حلب ، وتدعوه للإسراع إلى بيت المقدس حيث كان الملك كوزاد في انتظاره^(١)

أضف إلى ذلك أن سوء ظن الملك ريموند عم زوجته دفعه لسلوك سييل أذهب ريح الحملة ، فقد كره لويس من « إلبانور » ماتبديه من محبة لعمها ريموند^(٢) ، كما كره منها انفرادهما معاً مما أثار رييته ، وإن أمكن الرّد على ذلك بأن ريموند كان يحاول إفهام « إلبانور » الخطر النوري على إمارته ،

G. T., p, 751 - 756; Rey : Hist. des Princes d'Antioch, p. 367. (١)

Rey : Hist. des Princes d' Antionch p. 367; J.R.A.S. 1932, p. 278 .

(٢) بل لقد حدثت في مارس ١١٤٨ « فضيحة كبرى » بأنطاكية لعلاقات كانت بين

ريمونددى بواتيه وبين ابنة أخيه « إلبانورا » ، حتى لقد جاهرت الملك بعصيانها أن تتبعه ،

فراى علقها ، إلا أن من حوله أشاروا عليه بتأجيل ذلك الطلاق إلى حين رجوعه إلى

فرنسا ، حتى لالوك الألسن عرض الملك أنظر في ذلك : G. T., p, 753, Laviss : Hist. de :

France, vol III, Par. I, p. 17 - 18, Migae: op. cit.

ويدعوها للتأثير على زوجها بما يتلاءم والصالح المسيحي ، وتوجيه قواته ضد نور الدين وحده .

ثم كشف لويس القناع عن خطته ، وتها هو وجيشه للرحيل إلى بيت المقدس ، وطبيعي أن تصحبه ملكة فرنسا ، إلا أنها أصرت على البقاء إلى جانب عمها في أنطاكية ، وتأزمت الأمور حتى طلبت الطلاق^(١) من زوجها بسبب نكوصه عن تنفيذ رغبات ريموند ، ولعلها توقعت أن يرجع لويس السابع عن فكرته إذا هي هددته بالطلاق ، ويعود إلى تحقيق ما يريد دى بواتيه ، غير أن زوجها أبى التراجع عما اعتزمه ، ورحل — تحت جنح الظلام — إلى بيت المقدس دون أن يخبر أمير أنطاكية برحيله . ولم يكذب الصليبيون الأوربيون يرحلون عن أنطاكية ، وتترامى أخبار الجفوة بينهم وبين أميرها حتى تنفس المسلمون الصعداء ، وحمدوا الظرف الذي خلصهم من خطر أوشك أن يلم بهم^(٢) .

انقسم الصليبيون إلى معسكرين : أحدهما مؤلف من الجماعات الوافدة في الحملة الصليبية الثانية ، والآخر قوامه الفريق الذي يرى ضرورة معالجة نور الدين ، لاسيما والظروف مواتية ، وهذا الفريق الثاني يتزعمه — بطبيعة الحال — ريموند دى بواتيه الذي رأى أنه أحكم الصليبيين بالشام . لكن إذا كان الصليبيون قد عمدوا إلى غير ما تمناه ريموند ، ولم يقوموا بعمل إيجابي لإنقاذ الرها أو مساعدة أنطاكية فقد فكر ريموند أن يحمل الراية التي تخلى عنها ملوك أوربة من أجل المصالح الصليبية ، ورأى أن الفكرة التي لبث على المطالبة بها — وهي مهاجمة حلب — لا بد وأن يظل قائماً بها ، ولعله هدف من وراء ذلك أن يحرك العطف على مطالبه إذا هو نهض وحده للقضاء على نور الدين .

ثم بلغ لويس السابع بيت المقدس في يونيو ١١٤٨ م فوجد كوزراد في

G. T., p. 753. (١)

Stevenson : Crusaders in the East, p. 155. (٢)

انتظاره بها ، فنزل ضيفا على بلدوين الثالث ، كما توافد عليه رعييل كبير من أمراء الفرنجة وأشرفهم من جميع بلاد الشام ، وفريق غير ضئيل من أمراء أوروبا . والتأم عقد الصليبيين من الملوك والأمراء والأشراف والبارونات ورجال الدين في ٢٤ يونيو ١١٤٨ م لتحديد وجهة الحملة المزمع القيام بها ^(١) . وكان من الطبيعي في غير تلك الظروف الراهنة أن يكون الاتفاق على وجهتها أمراً قد فرغوا منه قبل تحركهم من أوروبا. غير أن الأحداث الطارئة دعت القوم إلى معاودة التفكير في القيام بعمل ما — غير مساعدة أنطاكية — حتى يثبت الصليبيون أنهم لم يقصروا في واجبهم .

وتقرير وجهة تلك الحملة إنما هو في الواقع تقرير لمصير القوات الصليبية والإسلامية في الشرق الأدنى في النصف الثاني من القرن الثاني عشر وتبيان صريح لمدى ما قد يكون هناك من النصر والتآلف بين الجماعات الصليبية. ومقدار استعداد أوربة لتأييدها بالمال والرجال ^(٢) .

تداول المؤتمرون في حالة الصليبيين بالشام ، ومن الغريب أنهم أمسكوا جميعاً عن الإشارة إلى خطر نور الدين ، والأغرب منه أنهم رأوا توجيه قواتهم ضد دمشق حليفة بيت المقدس ، وتلك الخطة خطأ شنيع في سياستهم . إذ بدلا من محاولتهم ضم دمشق — كحليف — إلى جانبهم جاهدوها بالعداء الصريح الذي لا مبرر له . ومن ثم أتاحوا لنور الدين فرصة ملائمة للتفكير الجدي في ضم دمشق إليه فيما بعد والاتحاد معها الآن ^(٣) .

ولا بد أن الصليبيين قد تعلقوا بأسباب يبررون بها مهاجمة دمشق ، والواقع

(١) G. T. P. 758 - 759.

(٢) تقيب عن هذا الاجتماع صابيو أنطاكية وطراباس ، أما أنطاكية فلنزاع القائم بينهم وبين لويس السابع كما تقدم بالمتن ، وأما فرجة طراباس فلنزاع القائم بين برتراند (بدران) بن ألفونس جوردان وعمه ريموند الثاني كونت طراباس وانشقاق الكونت ريموند بذلك النزاع ، راجع : Crousset : Hist. des Croisades, Vol. II, p. 255, note 1 (d'après Vaissette : Hist. de Languedoc.).

(٣) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 155, 159 - 160.

أنه ليس بين أيدينا شيء صريح نستطيع الاستدلال به على تلك الدواعي، وإن كل ما هنالك من دلالة هو أن القائمين بتدبير شؤون مملكة بيت المقدس لم يكونوا يفكرون في المحافظة على الهيبة التي اكتسبتها المملكة الصليبية بالشام، بل اتجهوا إلى النفع المادي القريب وهو تأمين حدودها. وإزالة قوة دمشق حتى لا تكون في يوم من الأيام مصدر خطر يهدد سلامتها، ثم إن تلك الفكرة وافقت هوى في نفس لويس السابع الذي انصرف عن نصره ريموند دي بواتيه، بل خرج من لدنه وقد جرح جرحاً عميقاً هيئات أن تبرئه الأيام. ثم خرج الجيش الصليبي بأجمعه ونزل وادي العجم عند بلدة منازل العساكر^(١) جنوبي غربي دمشق. وتحول بعد ذلك إلى «داريا» وأحرق بالغمرة من ضواحي دمشق. وأخذ من ثم في مهاجمة دمشق ذاتها^(٢) واستطاع الصليبيون امتلاك المزة لقربها من الماء^(٣)، وكذلك نيرب والربوة، فلا عجب إذا اضطرب أهل دمشق وخافوا أن يتمكن الصليبيون من تحقيق هدفهم، وبذلك تصبح مملكتهم إمارة لاتينية لا سيما أن الإمبراطور كونراد الثالث أبدى من الاستبسال ما يمكن الصليبيين من احتلال الربوة^(٤).

لكن كان هناك معين الدين أنر وهو الحكيم الذي لا يمكن أن يفوته

(١) ابن القلاسي : القليل ، ص ٢٩٨ ، Gibb : Damascus Chronicle, p. 283 ;

Dussaud : Topographie Hist. p. 315.

(٢) وذلك يوم السبت ٦ ربيع الأول ٥٤٣ هـ = ٢ يوليو ١١٤٨ م، وهذا التاريخ

بتحقيق Stevenson : Crusaders in the East, p. 160, note 4 ، وراجع المصادر العربية

التي ذكرها بالهامشية بالإضافة إلى ابن القلاسي وترجمته الإنجليزية ، وكتاب الروضتين لأبي شامة

ص ٥٦ .

(٣) Dussaud : Topogr. Hist. p. 309 - 310.

(٤) في كل ما يتعلق بهذه الحوادث راجع ابن القلاسي ، ص ٢٩٨ ، Gibb : Op. Cit. p.

7 - 284 ; G T. p. 283 - 284 وكتاب الروضتين لأبي شامة ، ص ٥٦ ، وابن الأثير :

الكامل ، ج ١١ ص ٥٨ - ٥٩ .

تدبير ما يلائم الموقف مهما تخرجت الأمور . وقد أشار على الدماشقة
بوجوب الارتقاء في أحضان نور الدين مما عجل بتكريم الجبهة الإسلامية
فيما بعد . وأدرك الدماشقة أنهم أضعف من أن يقاوموا الصليبيين ورأوا
أنه من الخير لهم أن يكونوا مع بقية المسلمين في الشام بدأ واحدة^(١) ، ولم
يعمد أنز إلى الاستصراخ بنور الدين إلا بعد أن أيقن استحالة دفع الخطر
الصليبي الأوربي عن دمشق . ويذكر شاهد عيان أن الأتابك حصن ما يخشى
من الجهات ، ورتب الرجال في المسالك والمنافذ ، وقطع مجارى الميرة إلى
منازل الأفرنج ، وطم الآبار وعفى المناهل ، وذلك بعد ثلاثة أسابيع من
شروع الصليبيين في حصار دمشق ومهاجمتها .

وعلى الرغم من هذه الاستعدادات الضخمة فإن الصليبيين استظهروا
على الدماشقة الذين ارتاعوا لهول ما شاهدوه ، وضعفت قلوبهم ، وأدى
بهم الخوف إلى تفسيرهم كل ظاهرة بأنها تنطوي على مكيدة تدبر لهم . لذلك
لم يجد الدماشقة بدأ من إنفاذ المكاتيب إلى ولاية الأطراف مستصرخين
مستنجدين .

وهنا انتقلت الحرب إلى المرحلة الثانية ، وهي المرحلة التي أخذت فيها
خيل التركان ورجالة الأطراف والغزاة^(٢) تتتابع ، فقويت نفوس المسلمين
وجرت بينهم وبين الصليبيين مناوشات دلت على عودة الطمأنينة إلى قلوب
الدماشقة الذين ساعدتهم الظروف بوقوع الخلف بين قواد الحملة الأوربيين ،
ذلك أن فريقاً من الأشراف الصليبيين أخذوا يثبطون همة كونراد ولويس ،
ويصعبون أمامهما الموقف الحربي ، ويشيرون عليهما بإخلاء ناحية الغوطة ،
وجاز الأمر على العاهلين الأوربيين ، فساهى العلة التي دفعت هذا الفريق

(١) يذكر ابن الفلانسى وابن الأثير وأبو شامة أنه لم يتأخر عن القتال السكحول ولا الزهاد
ولا الفقهاء ولا الأئمة ، وعد المسلمون كل من يقتل في ذلك اليوم شهيداً يستجاب الدعاء عند قبره .

(٢) راجع تفسير هذا اللفظ عند Gibb : op. cit. p. 28.3 note 3

من الصليبيين إلى ذلك الموقف الشاذ وإلى محاولة التأثير على ملك فرنسا بما يضر المصالح الصليبية في الشام ؟

هل كان ذلك راجعا إلى خيانتهم للمسئولية التي يحملونها ، أو إلى نجاح أثر في شراء ضمائرهم ووقوفهم إلى جانبه كما يزعم مؤرخو تلك الحملة المسيحيون^(١) ؟ ، الأغلب أن هؤلاء الأشراف كرهوا أن ينالوا حليفهم أثر بضرر ما ، وهو الذي أمدهم بالمتونة - عن غير ضعف - حين تراجعوا مخذولين عقب فشلهم في حملة حوران^(٢) .

كذلك يجب أن نبحت عن هذا الدافع في ناحية أخرى ، تلك هي تضارب مطامع زعماء الحملة واختلافهم حول تملك دمشق ، ذلك أنهم أيقنوا من غلبتهم عليها ، فأطلت الأهواء ، وامتدت أيدي المخاطرين الصليبيين لامتلاكها^(٣) ، فقد حدث أن ذهب تيير الإلزابسي كونت فلاندر إلى ملك فرنسا وإمبراطور ألمانيا وإلى بلدوين الثالث ملك بيت المقدس سائلا إياهم أن يولوه إمارة دمشق عقب أن يتم لهم فتحها ، فأجابه بعضهم إلى ملتصقه ، وبذلك كان بيع فراء الدب قبل صيده مشيرا للحسد في نفوس بقية الأشراف الذين رأوا أنهم لا يقلون عن كونت فلاندر مكانة ولا إقداما ، أهل يبعد أن تدفعهم الغيرة للعمل على إغراء العاهلين بالتخلي عن الغوطة حتى لا يتاح لصاحبهم ما يتمناه ؟ ذلك ما لا يستبعد منهم ، ولم تخف هذه المسائل على ابن القلانسي المؤرخ المسلم المعاصر لهذه الحوادث ، فقد ذكر أن الحال استقرت بين الإفرنج على منازلة دمشق ، وحدثتهم نفوسهم الخبيثة بامتلاكها ، وتبايعوا ضياعها وجهاتها .

G. T. p. 765 et seq. ; Michel le Syrien, Chroniques t. III, p. 276 ; (١)

Lavissee : Hist. de France, t. III, Part 2, p. 18 - 19.

لم يذكر إلى اسم أحد من هؤلاء الأشراف الذين أغروا الملكين بالانصراف عن مهاجمة دمشق والذين اتهمهم بالرشوة .

G. T. p. 726. (٢)

Rey : Les Seigneurs de Beirut, p. 14 - 15. (٣)

• أما الرواية الإسلامية فترى أن العوامل التي دفعت الصليبيين للرحيل الجفائي عن دمشق هي ما تواتر إلى سمعهم من أن العساكر الإسلامية خفت من شتى النواحي لتجدة دمشق ، ثم ما تراهم إلى إلبهم من اجتماع نور الدين وأنز قرب البلد، ونهوضهما إلى حصن « عريمة » ومحاصرتهما إياه ، وأسرهما برترام بن ألفونس وأمه ، وانضمام جنود غازي أخى نور الدين إلى العسكر الإسلامي^(١) ، وكيف كان الأمر فقد تم رحيل الصليبيين عن الغوطة، وحينذاك فقط أدركوا الخطأ الجسيم الذي ارتكبوه بتخليهم عن المنطقة التي كانوا فيها. ذلك أن الناحية الجديدة التي ضربوا معسكراتهم بها - وتعرف بباب كيسان - جعلتهم يلاقون المشقة الكبرى في الحصول على الماء والذخيرة .

أما نور الدين فقد التقى بأتابك دمشق عند حمص في أواخر ربيع الآخر سنة ٥٤٣ هـ (= سبتمبر ١١٤٨) أى بعد جلاء الصليبيين عن الغوطة بيضعة أشهر ، وفي حمص اتفق الاثنان على الشروط التي يطمنن إليها بال أنز ، وهي أن يحتل فريق من جنود حلب قلعة دمشق لدفع الخطر الصليبي ، كما اتفقا على أن يخرج ذلك الجيش النورى عن دمشق حال انكشاف الغمة عنها ، وتأكد بينهما ذلك بالأيمان الغليظة . غير أن الأيمان مهما غلظت لا تكفى فيما يبدو لتخيير السياسة التي ورثها نور الدين عن أبيه ، ولم يكن من المعقول أن تبرح كتائب نور الدين قلعة دمشق بعد رحيل الصليبيين^(٢) . لكن كيف جازت تلك الاتفاقية على أنز وهو السياسى الحكيم ؟ .. الواقع أنه لم تفته أطاع نور الدين ، لكنه أراد أن يلوح للصليبيين بالخطر الذى يضطرونه لوضعهم فيه إذا هم احتلوا دمشق ، وذلك بأن يسلمها إلى عدوهم . ثم إن أنز بعث

(١) ابن القلانسي : الذيل ، ص ٢٩٩ - ٣٠٠ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٩ ،

Gibb : Damascus Chronicle , p. 286 - 287.

(٢) ابن الأثير : أتابكة الموصل ، ص ١٦١ .

إلى الصليبيين سر آيبين لهم الخطر النورى عليهم إذا أسلم دمشق إلى نور الدين،
كما هددهم بقوة غازى (١).

والخلاصة أنه إذا استعرضنا موقف الصليبيين الحربى وتضعضع قوتهم
ونفسياتهم ، واستيلاء اليأس على قلوبهم ، ونهوض نور الدين وأخيه سيف
الدين لنجدة أنز ، ومجيء القوات الإسلامية لمعونة دمشق ، وذكرنا النزاع
الذى دب بين قواد الحملة الصليبية وأشرافها ، وتحرك الأطاغى فى صدورهم ،
ونظرة فرنجية الشام إلى الألمان نظرتهم للغريب (٢) أمكننا أن نحكم
بفشل الحملة الصليبية الثانية ؛ بل إن هذا الفشل تأكد منذ قدومها إلى الشرق
حين وقف الإمبراطور ما نويل دى كومنين منها موقفه الملتوى ، ثم نشوب
النزاع بين ريموند دى بواتيه وبين لويس السابع ، وعدم مهاجمة حلب رأسا ،
بما أتاح الفرصة للقوات النورية أن تتأهب للدفاع ، بل وأن تتحول من
الدفاع إلى الهجوم استجابة لإغاثة أنز . لذلك كان لا بد لتلك الجماعات الوافدة
من الغرب أن تتلس السبيل لخروجها سليمة من هذا المأزق الحرج ، فاتفق
رأى ملك فرنسا وإمبراطور المانيا على الرجوع إلى بلديهما ، ورحلوا يوم
الأربعاء ٢٨ يونيو سنة ١١٤٨ (٣).

هكذا فشلت الحملة الصليبية الثانية فشلا أزرى بكرامة الصليبيين فى الشام
وأدى إلى تدخل نور الدين الفعلى فى أمور دمشق تدخلا أسعفته عليه
ظروف مملكة بيت المقدس ، ذلك أن الأم الملكة ميليزاند كانت وقت وصايتها
على ابنها بلدوين الثالث - قد ألفت بمقاليد الأمور إلى مناسى (٤) ، فلما بلغ
بلدوين مبلغ الرجال تطلع لأخذ الأمر فى يديه باعتباره الملك الشرعى ، إلا
أن أمه كابرته ، وطمعت فى بقاءه تحت وصايتها وأن تتصرف هى فى الأمور

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٩ .

(٢) Stevenson : Crusaders in the East, P. 163.

(٣) G. T., P. 768.

(٤) Rey : Les Colonies Fran., P. 544.

كما تشتهى ، فلم يرض ذلك ابنها ، فطالبها بالحكم فأبت ، فأخ فكابرت ، فتحاربوا ، فاعتصمت هي ببیت المقدس طمعا في أن تثير عليه نائرة رجال الدين إذا هو اقتحم البلد ، وكان الأشراف يؤيدون الملك الشاب ، كارهين لتصرفات الملكة الوصية ومناسى الذى اعتصم هو الآخر بحصنه المعروف بمجدل بابا^(١) فضيق الملك عليه الخناق فاستسلم الحصن ، كل ذلك تمهيدا لاستزالتها من معتصمها وحتى لا يهب مناسى لنجدتها إن بادرها بلدوين ، وشرع بلدوين الثالث بعدئذ في مهاجمة أنصارها ، فهاجم فيليب ميل^(٢) ، ووقف إلى جانبها ابنها أمورى صاحب السيرة العظمى في تاريخ مصر ، وعلى الرغم من قلة نصرائها إلا أنها كانت امرأة جبارة الإرادة ، إذ اعتصمت ببرج داود في قلعة بيت المقدس ودافعت عنها دفاعا دلا على قوة شكيمتها ، وأنها جديرة بالملك وبالحكم ، وكان رجال الدين من حزب الملكة الوالدة وعلى رأسهم فوشيه بطريك بيت المقدس الذى حاول عبثا لإصلاح ذات البين بين الملك وأمه ، وتمكن بلدوين الثالث في النهاية من إنزالها من برجها ، وأخذ الأمور في يديه^(٣) .

انتهت الفترة التى قامت خلالها الملكة ميليزاند وحزبها بالوصاية على عرش المملكة ، وأخذ الملك بلدوين الثالث يعمل على تحقيق سياسة أبيه فولك وهى الإبقاء على الحلف بين مملكة بيت المقدس وبين دمشق ، غير أن المراجع لا تشفى غلا هنا في معرفة المقدمات التى سبقت عودة الحلف الدمشقي الصليبي ، ولم يذكر مؤرخ تلك الحقبة — وهو ابن القلانسي — سوى أن الدماشقة عاهدوا الإفرنج أن يكونوا يدا واحدة^(٤) ، وهو نص يرجح أن الملك بلدوين الثالث سعى إلى ذلك الحلف حتى حصل على وعد بالعودة إلى المصافاة

Rey : Op. Cit., P. 412 — 413. (١)

Rey : Les Seigneurs de Berut, P. 29 ; De Cange-Rey: Les Familles (٢) d'outre-mer, P. 251.

G. T., P. 780 — 781. (٣)

(٤) ابن القلانسي : الدليل ، ص ٣٠٨ .

في أواخر ١١٤٩^(١) ، وإن كنا على غير يقين تام من شخصية المسلم الذي تم على يده عودة التحالف بين دمشق ومملكة بيت المقدس ، أهو أنز أم خليفته مؤيد الدين الرئيس^(٢) ؟ ويرجع الشك في شخصية الأمير المسلم إلى عدم النص على تاريخ الحلف في المراجع التي أشارت إليه ، ولعل أوضح تحديد له هو ما ذكره ابن القلانسي من الإشارة إليه مقرونا بتولى الظافر بالله أمر مصر ، أي في جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ هـ (= أكتوبر ١١٤٩ م) ، على حين أن أنز مات في آخر ربيع الآخر من نفس السنة ، والفترة بين موت أتابك دمشق أنز وبين تولى الظافر أقل من أن يتم فيها مثل ذلك الاتفاق ، وإذن فالأرجح - دون الجزم - أنه تم على يد معين الدين نفسه وبرضاء مجير الدين أبق .

ومهما يكن الأمر فقد علم نور الدين بأمر ذلك الاتفاق بعد عقده بقليل ، وأدرك مدى الخطر الذي تواجهه أماله من صيرورة دمشق وبلدوين الثالث إلباً واحداً عليه ، إذ دلت السوابق على الخطر الذي يهدد نور الدين من جراء وقوع المواجهة بين دمشق وبين مملكة بيت المقدس ، كما دل بلدوين الثالث على استطاعته تحويل دفة سياسة المملكة الصليبية في وقت قصير إلى غير ما صارت إليه زمن أمه الملكة ، على أنه يبدو أن نور الدين فكر في احتمال مخالفة الدماشقة لسياسة الرئيس ، كما يبدو أيضاً أنه اعتقد أن المصافاة الجديدة بين دمشق وبين بيت المقدس لم تلاق كثيراً من التشجيع بين كبار رجال المملكة الصليبية ذاتها ، وهذا ما يفسر لنا اغتنام نور الدين الفرصة عند قيام

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٤٠ .

(٢) جرت عادة أنز على الإمعان في الأكل مما أدى إلى إصابته « بالجلوسنطريا » Dysentery ومالبت أن مات يوم ٢٣ ربيع الآخر ٥٤٤ هـ (= ٢٨ أغسطس ١١٤٩) ، وحينئذ ذلك اجتمع أرباب الأمور بدمشق كحسام الدين بلان ، ومؤيد الدين الرئيس ، ومجاهد الدين بزبان ، وأعيان الأجناد بمنزل الأتابك الراحل وانفقوا على أخذ الأمور بأيديهم ، ثم مالبت الاختيار أن وقع على مؤيد الدين بن الصوفي ، راجع ابن القلانسي ، الدبل ، ص ٣٠٦ .

جماعة قليلة من الصليبيين التابعين لبلدوين الثالث بالعيث في الأعمال الحورانية، وكتابته إلى زعماء دمشق يطلب منهم أن ينجدوه بألف فارس مع أحد المقدمين (١).

لم يكن ذلك العيث من جانب الصليبيين يتطلب في الواقع مدداً ضخماً، ولكن نور الدين أراد بطلب النجدة أن يعرف موقف مدبري أمور دمشق ونزعة أهلها؛ ويلاحظ هنا أن حوران من أعمال دمشق، وليست تهم حلب اهتماماً يدعو نور الدين للنهوض إليها دون دعوة من الأمير أبق صاحب دمشق، وربما كان غرض نور الدين من حركته كلها أن يثبت أنه الشخصية الوحيدة التي تهتم بالمصالح الإسلامية وأنه مسئول عن دمشق وغيرها من البلاد مادام زعماءؤها يفرطون في مصالحها، وأنه وصى بالفعل على دمشق مادام أبق قاصراً. ولقد أدرك البعض مرمى نور الدين فردوا كتابته أسوأ رد (٢). لذلك نهض نور الدين في مارس ١١٥٠ م بمن معه من الرجال لا لدفع جماعة الصليبيين عن حوران، ولكن لنزال المسئولين في دمشق الذين ردوا عليه رداً جافياً. وأرسل هؤلاء إلى بلدوين الثالث يطلبون إليه القدوم لنجدة دمشق مما عساه يجد من الأخطار (٣). وهنا أعلن نور الدين أن في عزمه الاستيلاء على دمشق، وكأنما اعتبر رجالها من زمرة الصليبيين حين قال « لا أنحرف عن جهادهم »، غير أنه أمر جنسده وأصحابه بأن يسيروا سيرة حميدة في زحفهم في الأعمال الدمشقية حتى توصل الدعاء « له من أهل

(١) ابن الفلانسى : شرحه ، ص ٣٠٨ ؛ وأبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ٤٦٩ ، Gibb : Damascus Chronicle of the Crusades , p. 296 — 297.

(٢) لم ينص ابن الفلانسى : ص ٣٠٨ ، ص ١٩ — وهو المرجع الوحيد بين المراجع العربية والصليبية الذي انفرد بالإسهاب في تلك الناحية — على أساء من عارضوا نور الدين ، ولكن يفهم من سياق قراءة الكتاب قراءة دقيقة ، ومراجعة المواد التاريخية أن تلك المعارضة كانت من جانب مؤيد الدين الذي خلف « أنر » .

(٣) كانت بلدوين الثالث قد نهض إذ ذاك لعارة غزة ، Stevenson : Crusaders in the East , p. 167 , note 1.

دمشق وأعمالها وسائر البلاد ، مما لا يدعو إلى الشك في أنه عمل وقتذاك على التفرقة بين أهل دمشق وزعمائها . والظاهر أن الدعاية الضرورية كانت قوية فعلا حتى لقد نسب الناس إلى بركته وعدله وحسن سيرته توالي الغيث غب انقطاعه في حوران والغرطة والمرج (١) .

وفي سادس عشر ذي الحجة سنة ٥٤٢ (أبريل ١١٥٠ م) اقترب نور الدين من دمشق ، فنزل نهر الأعوج إلى الجنوب الشرقي منها ، واستقر أخيرا عند جسر الخشب (٢) الواقع جنوب داريا ، وكتب من هناك إلى أبق وإلى الرئيس ابن الصوفي الذي حل محل أنر في الأتابكية يعيرهما بتقاعدهما عن نصره المسلمين واطمئنانهما إلى الصليبيين ، كما يبين لهما قوته الشخصية وكثرة ما عنده من المال والرجال والعدة ، ويأمرهما أن ينفذا إليه حالا ألف فارس لإنقاذ عسقلان المصرية (٣) .

غير أن الرد الذي كتبه أبق على ذلك الخطاب لم يدل على شيء سوى قصر نظره إذ قال فيه مخاطبا نور الدين « ليس بيننا وبينك إلا السيف ، وسيوافينا من الإفريج ما يميننا على دفعك إن قصدتنا ونزلت علينا » ؛ ولا شك أن اعتزازه بالصليبيين أساء كثيرا إلى سمعته ، وهو أكبر ما يسمى

(١) ابن الفلاني : شرحه ، ص ٣٠٨ — ٣٠٩ .

(٢) Du:saud : Topographie de la Syrie, p. 315, note 3

(٣) أما نص هذا الخطاب الذي بعثه نور الدين إلى أرباب دمشق فهو « إني ما قصدت بنزولي هذا المنزل طالبا لمحاربتكم ولا منازلتكم ، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكايه المسلمين من أهل حوران والعربان بأن الفلاحين الذين أخذت أموالهم ، وشقت نساؤهم وأطفالهم بين الإفريج ، وعدم الناصر لهم لا يسعني مع ما أعطاني الله — وله الحمد — من الاقتدار على نصره المسلمين وجهاد المشركين ، وكثرة المسال والرجال ولا يحل لي القعود عنهم والانتصار لهم ، مع معرفتي بعمزكم عن حفظ أعمالكم والذب عنها والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالإفريج على محاربتكم وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظالما لهم وتعديا عليهم ، وهذا ما لا يرضى الله تعالى ولا أحدا من المسلمين ، ولا بد من المعونة بألف فارس تزاح (بهم) العساة ، (و) تجرد مع من توثق بشجاعته من القدمين لتخليص نفر عسقلان وغيره ، فكان الجواب عن هذه الرسالة ما هو وارد بالمتن . راجع ابن الفلاني ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠٩ ، وكتاب الروضتين ص ٦٦ ، Gibb : op. cit. p. 298 — 299 .

إليه نور الدين من تشويه الفكرة العامة عنه . ومع هذا فقد انصرف نور الدين عن الحرب ، وتقرر الصلح بينه وبين دمشق في مايو ١١٥٠ م^(١) وربما كان أبق هو الذى سعى إلى ذلك الصلح حتى نجح فيه بدليل موافقته على إقامة الخطبة لنور الدين من منابر دمشق بعد الخليفة والسلطان وكتابة اسمه على السكة^(٢) ، يضاف إلى ذلك أن نور الدين ربما رمى من وراء موادعته دمشق وأربابها إلى محاولته إظهار عطفه على أهلها اكتسابا لمحبتهم ولتأييدهم إياه ضد مدبرى أمورهم ، هذا فضلا عن أنه كان يسعى وقتذاك لتحطيم جوسلين الثانى الذى فكر فى استرداد الرها . والواقع أن نور الدين لم يكذب انتهى من عقد الصلح مع أبق حتى خف شمالا لدفع جوسلين عن الرها وسرعان ما التقى به وأسر^(٣)ه وبقى فى الأسر تسع سنوات^(٤) . ثم لم يكذب نور الدين يفرغ من أمر جوسلين حتى انقلب إلى الاستعداد لمهاجمة دمشق ، وتتفق الروايات على نهوضه لقتال دمشق فى مستهل سنة ٥٤٦ هـ (مايو ١١٥١) ونزوله على أرض عذراء ، حتى إذا أعد عدته للقتال أرسل فريقا من رجاله ليربصوا عند جبل قصيون للجند الدمشقية المعسكرة على مقربة من ذلك المكان ، غير أن ذلك الجند لم يكن مستعدا للنضال فهرب إلى داخل المدينة ، ولم يتمكن منهم نور الدين .

لذلك تقدمت الجيوش النورية حتى نزلت على عيون فاسريا ما بين دومة وعذراء^(٥) فأصبحت تهدد دمشق تهديدا واضحا ، واعتمت تلك الفرصة جماعة من

(١) Gibb : Damascus Chronicle, p. 299.

(٢) ابن الفلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠٩ ، تحت سنة ٥٤٥ هـ .

(٣) الكامل لابن الأثير ، ج ١١ ص ٦٩ — ٧٠ وابن العديم ، ص ٥٢٤ .

(٤) ابن العديم : شرحه ص ٥٢٤ ، J R A S. , 1932 p. 301

(٥) ابن الفلانسى : شرحه ص ١٢ ، Gibb : Damascus Chronicle, p. 302-303

Dussaud : Topographie de la Syrie, pp. 304, 308, 310 وقد ألم الكاتب الفرنسى بالأحوال المختلفة التى تقع فى تلك الناحية ، أمثال حوش دير العضاير ، وحوش القارة الواقع جنوب عذراء ، وحوش سمار ، وحوش الكواكب .

الأوباش فأخذوا يعيشون في الضواحي الدمشقية فسادا، ومن المحتمل أن ذلك العيث كان بتدبير نور الدين نفسه ليدفع الدماشقة إلى الثورة على ولاية أمورها، ويجعل منهم بذلك عاملا فعالا في تيسير الفتح له . ومما يرجح ذلك أن نور الدين أظهر العطف الشديد على أهل دمشق وهو على أبواب مدينتهم ، إذ أنفذ كتابا إلى «أبق» يقول له فيه «أنا ما أوتر إلاصلاح المسلمين وجهاد المشركين، وخلص من في أيديهم من الأسارى، فإن ظهرت معي في عسكر دمشق ، وتعاضدنا على الجهاد وجرى الأمر على الوفاق والسداد ، فذلك غاية الإيثار والمراد^(١) ، غير أن أبق لم يرد هذه المرة - فيما يبدو بشيء على كتاب نور الدين، والمتأمل لكتاب نور الدين يدرك إصراره على وجوب نهوض أبق لمحاربة بلديين لعل عقد التحالف الدمشقي الصليبي ينفرط من جراء هذا النهوض، والظاهر أن أبق أخذ يقارن بين مطامع نور الدين الرامية إلى القضاء على استقلال دمشق وضمها إلى ملكه وبين قصد بلديين في التحالف مع دمشق لدفع العدو المشترك ، وكان يدرك إلى جانب هذا أن هدف بلديين الأكبر هو الاستيلاء على الجنوب حيث مصر وما تبقى في يدها من بلدان الساحل الشامي ، والظاهر أيضا أن إحجام أبق عن الرد على كتاب نور الدين يرجع إلى رغبة أبق في ألا يتخذ خصمه وسيلة لإضعاف مكانته في نفوس مسلمي البلد كما فعل إزاء خطابه السابق له .

لم يلبث نور الدين أن رحل إلى مشهد القدم القريب من دمشق ، أي أنه أصبح أدنى ما يكون إلى البلد . ثم جرت المناوشات الأولى بينه وبين عسكر دمشق يوم ١٢ مايو سنة ١١٥١م^(٢) ، على أنه لم يحاول دخول المدينة عنوة حتى لا يدع مجالاً للمدع ما بأنه اغتصبها من أهلها قسرا ، بل وقف دون قتال إشفاقا من قتل النفوس وإتخان الجراح ، وفضل الحصار ؛ وسرعان

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣١٣ ، والفارقي في نس المرجع

والصفحة ، حاشية رقم ١ .

(٢) تحديدها التاريخ وارد في Gibb : Op. Cit. p. 302 وانظر الروضتين ، ص ٦٩ .

ما ارتفعت الأسعار وعظم الخطب في أرجاء دمشق ، لا سيما حين علم أهلها بنهوض مملكة بيت المقدس لنجدتهم ، لأن تلك النجدة تقتضى من الدماشقة تموين الصليبيين . فعمد نور الدين حينذاك للرحيل إلى داريا ليقطع السبيل على نجدة العدو من الدنو من دمشق ، وعلم أنهم قاصدون نهر الأبرج فسبقهم إليه واستولى على بلدة «الزبداني» وأقام مضاربه في مشارفها^(١) . على أن النجدة الصليبية استطاعت الوصول إلى دمشق بقيادة بلدوين الثالث ، فخرج أبق وأتابكة وابن الصوفي لمقابلة ملك بيت المقدس والترحيب به وبياروناته ، وم كانت خيمة الدمشقيين - أو على الأصح خيمة مدبرى أمورهم - حين أبصروا تلك النجدة الصليبية في قلة من الرجال والعدد ، إذا هي قيست إلى نور الدين وجماعته .

ثم اتفق أبق وبلدوين الثالث على الخروج بمن معهما إلى ناحية حوران أو بالتحديد بصرى ، لعلهما يصرقان نور الدين عن دمشق^(٢) . وكان نور الدين قد فصل فئة من جنده للإقامة ببصرى إلى جانب سرجال عاملها من قبله ، حتى إذا قدم الصليبيون من تلك الناحية لنجدة دمشق كانت مهمة تلك الفئة قطع الطريق عليهم ، وقد أعلن نور الدين لأهل بصرى أنه مرسل إليهم بتلك الفئة من جنده لحمايتهم مما عسى أن ينزل بهم على يد الصليبيين ، وغرضه من ذلك ضم العرب إلى جانبه ليقارنوا بين صنيعه الجميل معهم ، وبين إهمال أبق إياهم . غير أنه يلاحظ أن الصليبيين تقدموا وحدهم صوب بصرى فوصلوا إلى رأس الماء^(٣) ، والتقوا هناك بجماعة من جند نور الدين فلم يقووا عليهم . ثم تحول الصليبيون بعدئذ إلى بصرى نفسها ، فبرز لهم سرجال برجاله ، وظهر عليهم وردهم عن مقصدهم . وهنا أحس الصليبيون

(١) ابن القلانسي : شرحه ص ٣١٣ - ٣١٤ ، Cibb : Op. Cit. P. 304 - 306

(٢) ابن القلانسي : الذيل ، ص ٣١٤ ، Dussaud : Topographie, P. 315

(٣) Dussaud : op. cit. loc. cit. note 3 حيث يشير إلى المراجع العربية المختلفة التي

اعتمد عليها في تقرير موقع هذا المكان .

أن خيبتهم ترجع لنكروص « أبق » عن الخروج معهم إلى بصرى ، فأرسلوا إليه يلتمسون باقى المقاطعة المبنولة لهم ثمنا للمساعدة على ترحيل نور الدين عن دمشق (١) وقالوا له « لولا نحن ندفعه مارحل عنكم » ، وقد غضب أبق من هذا الكتاب ، وعاد الصليبيون إلى بيت المقدس دون أن يحققوا شيئا ما لأنفسهم أو لصاحبهم أبق (٢) .

لم يكد الصليبيون يرحلون عن بصرى حتى انقلب نور الدين عن فكرة الحصار إلى الهجوم مباشرة على دمشق ، واستقر رأيه هذه المرة على امتلاكها لعلمه بشدة ميل الأجناد والرعية إليه وإشارتهم إلى ولايته وعدله . فنزلت الجيوش النورية البقاع أولا يوم ٥ يولييه ١١٥١ ، ثم زحفت منها إلى أرض « كوكبا » فنزلتها يوم ٧ يوليو ١١٥١ ، وأخذت فى الاستيلاء على كل ما يمكن أن يتخذ ذخيرة يتمون بها أثناء الحصار ، وحصل نور الدين فى أثناء ذلك على الشيء الكثير من الأغنام والجمال والغلة والقمح والدواب ، فلما تم له ذلك رحل إلى جسر الحشب من أرض داريا (٣) ثم تحول عنها إلى أرض القطيعة جنوب دمشق (٤) . وبنزول نور الدين هناك أصبح فى الواقع داخل حدود دمشق ، كل هذا وجندها ساكن لم يتحرك ، ولعلمهم رأوا ألا قبل لهم بدفع الجند النورى ، ولعل هذا الاعتقاد هو الذى حمل أبق على

(١) انفراد ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٨٩ ، يذكر هذه « القطيعة » والإشارة إليها ، والمفهوم من كلامه أنها شبه جزيرة سنوية فرضها الفرنجة على الدماشقة ، وبذهب المؤرخ عنه إلى أبعد من هذا فيزعم أن تلك « القطيعة » أخافت نور الدين من امتلاك الصليبيين لدمشق « دلا يبقى حيثئذ للمسلمين بالتمام مقام » مما دفعه النهوض للدفاع عنها .

(٢) ابن القلانسي : الدليل ص ٣١٤ - ٣١٥ ، أبو شامة كتاب الروضتين ، ص ٤٧٢ ،

Gibb : Damascus Chronicle p. 307

(٣) ويذكر Dussaud , op. cit. p. 315, 317 أن موقع هذا الجسر شديد القرب من

دمشق وإلى الجنوب منها ، أنظر Gibb : Damascus Chronicle p. 308

(٤) هى أرض الميدان الحالية المعروفة لمن زار دمشق ، راجع Dussaud : op. cit. p.

317, note 1, d'après Sauvaire : Description de Damas II p. 233, وانظر أيضا

ابن القلانسي ، الدليل ، ص ٣١٥ ، Gibb : op. cit p 308

طلب الصلح من نور الدين ، وقد تم الصلح فعلا بين الفريقين يوم ٢٦ يوليو ١١٥٢ م^(١) على يدي برهان الدين علي البلخي الفقيه الدمشقي نيابة عن أبق ، والأمير أسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب نائبان عن نور الدين . ومع أن ابن القلانسي كان معاصرا وشاهد عيان لحوادث هذه الفترة بالذات يوما بيوم إلا أنه لم يذكر لنا شروط الصلح بين الطرفين ، ومن ثم خلت بقية المراجع التي أخذت عنه كابن الأثير ، وأبي المحاسن ، وأبي شامة . وهكذا تم لنور الدين بسط ساطنانه على دمشق ، وفتحها فتحا هينا فلم ينتقم ولم يبع المدينة لسكره ، بل كل ما جد أن صار « أبق » تابعا لها .

ولقد أدى هذا الموقف إلى تحفز الصليبيين للاستيلاء على عسقلان الذي أدى هو الآخر بدوره إلى قيام نور الدين بإنهاء مسألة دمشق^(٢) وذلك بضمها إليه ضمما نهائيا ، ولتحقيق ذلك الهدف عمد إلى سياسة ظاهرها المودة والإخاء ، وباطنها القضاء على أبق واستخلاص الولاية منه . فسلك سبيل التقرب إلى أبق ، وأوهمه برغبته في تناسي الماضي وإن كان في الوقت ذاته لا يدع فرصة تمر دون أن يؤلب القلوب ضد مجير الدين الذي تناهى في الظلم والذي طأطا للصليبيين ، حتى كانت رسالهم تجوب أرجاء دمشق لجمع الجزية التي فرضها عليها ، ومعنى ذلك أنها تابعة تبعية إقطاعية لصليبي بيت المقدس^(٣) وكان قصر نظر أتاك دمشق بما لم يخف بطبيعة الحال على نور الدين الذي أكثر من وصله بالهدايا والخلع الجملة بين آن وآخر ، وشرع في مكاتبته برسائل تفيض رقة استماله بها إليه . حتى إذا ضمن جانبه واطمئنانه إليه عمد إلى إثارته ضد كل من يتوسم فيهم معارضة مشروع ضم دمشق إلى المملكة النورية ، ونجحت خطة نور الدين نجاحا عظيما ، يدل عليه قيام « أبق » بالقبض على كثير من كبار رجالات دمشق ، ممن حبسهم وأبعدهم عن إدارة

(١) ابن القلانسي : القليل ، ص ٣١٥—٣١٦ ، Gibb : op. cit. p. 309 — 310

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٨٥ ، ٨٩ .

(٣) أنابكة الموصل ، لابن الأثير ، ص ١٨٩ .

الحكم أو قتلهم واستصق لنفسه أموره^(١) ، ولم يجد نور الدين - المتدين -
التقى - أية غضاضة فيما أدى إليه عمله من الإيقاع بالأبرياء . وللسياسة
أحكامها .

وكان من أولئك الوزير عطاء بن حفاظ السلمي ، الذي كان أشد الناس
حماسة لبقاء دمشق مستقلة ، وأدراهم بحقيقة نوايا نور الدين . وقد نجح
نور الدين في إيغار صدر أبق على وزيره هذا ، حتى تجهم له وأمر بقتله ، فلما
أخذوه للنطع قال لأبق : لا تقتلني ، فإن الحيلة قد تمت عليك وذهب
ملكك ، وسترى^(٢) .

ثم عهد نور الدين بعد ذلك إلى منع الموثونة عن دمشق من ناحية الشمال
فأوقع في أيدي أربابها ، وجاع الشعب ، وتعالص صيحاته ضد أبق^(٣) ،
وتأزمت الأمور إلى درجة اتخذها نور الدين ذريعة للتدخل الفعلي في دمشق ،
لذا خرج نور الدين من حلب بجيشه وحاصر دمشق يوم ١٨ أبريل ١١٥٤
وعسكر عند عيون فاسريا ، ثم تقدم إلى بيت الأديار من نواحي الغوطة .
وحينذاك فقط تبين لأبق حقيقة الموقف ، وتجلي له أنه كان مخدوعا ، وأدرك
عظم خطئه في قتله كبار الدماشقة ، كما تبين صدق ما قاله له السلمي وهو
ماض ليقتل .

لم يجد أبق أمامه وسيلة للخلاص مما هو فيه سوى مكانبة بلديون الثالث
ملك بيت المقدس للنهوض لمعاونته مرة أخرى ، وتعهد بالتخلي له عن بعلبك

(١) من هؤلاء الوزير حيدر الذي يزعم ابن الفلاني أنه ظهرت منه أشياء ومع
ما في نفس مجير الدين منه ومن أخيه السيب « فضربت عنقه صبرا . راجع أتابكة الموصل ،
ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٢) سبط بن الجوزي في ابن الفلاني : الذيل ، ص ٣٢٦ ، حاشية رقم ١ وانظر أيضا
الأتابكة لابن الأثير ، ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٣) الأتابكة : ص ١٩١ ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٨٨ - ٨٩ .

وبعض مناطق البقاع الوفيرة الإنتاج^(١) إذا هو أرسل النجدة الكافية لدفع نور الدين ، ولم يكن بلدوين الثالث بحاجة لمن يذكره بالخطر إن تمكن نور الدين من دمشق نهائيا ، لأن ذلك يسهل عليه توجيه قواته الحربية كلها ضد مملكة بيت المقدس أو يؤدي به إلى التفكير في الاستيلاء على مصر ، فيصبح الصليبيون محصورين بين قوات معادية من الشمال والجنوب والشرق ، لذلك كله لم يكن عجبا أن يسرع بلدوين الثالث لنجدة دمشق ، حتى ولو لم يكن هناك ما وعد به أبق من الأراضي الشامية .

ويبدو أن نور الدين توقع ما حدث فعلا بين أبق وبين بلدوين من المكاتبة وخاف أن يسرع الصليبيون إلى نجدة دمشق ، فبادر إلى العمل الجدي ، وقام يوم ٢٥ أبريل ١١٥٤ ، وهاجم الجيش الدمشقي حتى دفعه إلى أبواب كيسان وبذا صارت الجيوش النورية أمام الأسوار ، ثم تمكنت فئة من تسلق السور فتلقاها من الداخل ممن اشتراهم نور الدين بالمال والعطايا ، ففتحوا الباب الشرقي وباب توما ، ودخلت قوات نور الدين البلد دون أن تراق نقطة من الدماء ، وتعاملت الصيحات بالتكبير والتهليل .

وقد خاف أبق أن ينتهي الأمر بقتله ، فاعتصم بالقلعة ، ثم راسل نور الدين في تسليم البلد ، على أن يقطع مدينة حمص ، فأجابه نور الدين إلى ما طلب ، إلا أن أبق لم يلبث أن فر إلى بغداد ، وبقى بها حتى مات سنة ٥٦٤هـ^(٢) وهكذا قضى على أسرة بوري التي ملكت دمشق منذ أمد بعيد ، وآلت دمشق بجندها وإدارتها وحكومتها وإقطاعاتها إلى نور الدين ، فكان ذلك «فتح الفتوح» وصارت المملكة النورية قطعة متصلة من الشمال إلى الجنوب :

(١) الأتابكة : ص ١٩١ ، والكامل ، ج ١١ ص ٨٩ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٣٨١ ، ابن الفلانسى : الذيل ، ص ٣٢٧ - ٣٢٩ ، Gibb : Damascus Chronicle, p. 319 - 320 ، وابن الأثير ، الأتابكة ، ص ١٩١ - ١٩٢ . الكامل ج ١١ ص ٨٩ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ١٠٢ .

ويعتبر سقوط دمشق خاتمة للحركة التي بدأت منذ زمن بعيد وهي توحيد القوات الإسلامية جميعها تحت لواء واحد ، لتقف صفا واحدا أمام قوات الصليبيين ، وفي ذلك من الخطر على الصليبيين ما سوف تشرحه الحوادث شرحا وافيا . على أن عجز الصليبيين عن رد نور الدين عن دمشق يشير من ناحية أخرى إلى التدهور الذي دب في أوصال الأداة الحربية الصليبية ببلاد الشام ، وهو دليل واضح على أن نور الدين نجح نجاحا تاما في تكوين الجبهة الإسلامية المتحدة ، مما كان أبوه زنكي يسعى إليه سعيًا غير مقطوع .

الفصل الثالث

نور الدين وبقايا الصليبيين بالشام

جوسلين عدو نور الدين . تأمره مع الأرمن . هزيمته . أسره . ياتريكس أميرة
لرها . اتفاق نور الدين ومسمود ضدها . ياتريكس وبيزنطة . نور الدين وبيزنطة .
رموند دي بواتيه عدو نور الدين . وقعة يفرى . مقتل رموند . محاصرة نور الدين
لأنطاكية ورحيله عنها . خطر التوسع النورى على الصليبيين . كونستانس ومشكلة
زواجها . اتفاقية المصبصة . الصلح الفجائى بين مانويل ونور الدين . رينو دى
شاتيون فى أسر نور الدين . تأهب نور الدين لغزو أنطاكية فى غيبة أمورى
بمصر . نور الدين بأمر بوهيند الثالث . وقوفه عن متابعة الغزو .
رجوع أمورى ومفاوضته نور الدين . زيارة بوهيند لبيزنطة .
سياسة نور الدين لإزاء أنطاكية . توقيع الحلف بين الصليبيين
والبيزنطيين . الصراع حول بانياس . أسر بلدوين الثالث
مرض نور الدين . بلدوين يهاجم شيزر . نور الدين
يسترد شيزر . المواقعة بين نور الدين وبلدوين الثالث .

أصبح نور الدين بعد استيلائه على دمشق ، وقد خلى له الجولينصرف
إلى تحقيق الشطر الثانى من الإرث الزنكى وهو جهاد الصليبيين ، ووضحت له
خطة ذلك الجهاد بعد أن قامت مملكة بيت المقدس وملكها بلدوين الثالث
بما قامت به من دور واضح لمنع استيلاء نور الدين على دمشق . وإذن فقد
اتجه كل تفكيره الجديد نحو بيت المقدس وما قد تقوم به من دور لحماية نفسها
وحماية الإمارات الصليبية الأخرى منه ، متخذة فى سبيل ذلك شتى
المحاولات والسبل .

على أن أعدى أعداء نور الدين وأشدهم تطلعا للوثوب عليه من بين
الصليبيين هو جوسلين الثانى أمير الرها ، التى أصبحت مقصورة على تل باشر
وسميساط ودلوك وراوندان ، وبقيت فى نفسه إحن لا يهدأ أوارها على

البيت الأتابكي منذ أسر زنكي أباه جوسلين الأول ، بعد أن سلب منه مدينة الرها سنة ١١٤٤ . فلما قتل زنكي طمع جوسلين وجماعته بمن بقي على الولاء له من أهل الرها في استرداد تلك المدينة الهامة والقضاء على البيت الأتابكي ^(١) ، وشجعهم على ذلك انقسام المملكة الزنكية قسمين ، اعتقاداً منهم أن القسمة كفيلة بأن تجعل الضعف يدب في حلب والموصل في آن واحد ؛ وعلى الرغم من اتحاد الأخوين غازي ونور الدين فإن جوسلين لم يأل جهداً في القيام بشيء ما ضد نور الدين ^(٢) ، وذلك بتحريكه الأرمن من سكان الرها .

ولم يكن بقلعة الرها سوى حامية زنكية قليلة فأطمعت تلك القلة أولئك الأرمن المتطلعين لطرد المسلمين عن الرها ، وكان الأرمن بعكس السريان شديدي الميل للصليبيين ، لا سيما أن ابن جوسلين — كما تسميه المصادر العربية — من أم أرمنية هي أخت ليون الأول ملك الأرمن ^(٣) (١١٢٣ — ١١٤٤) ، أضف إلى هذا ما لقيه الأرمن من عطف الصليبيين عليهم وتقريبهم إليهم ، بقدر ما عاناه السريان منهم . لهذا كله دبر الأرمن فيما بينهم مؤامرة للتخلص من الحكم الإسلامي ، وطمعوا أن تمكنهم الأحوال إذ ذاك من التغلب على نور الدين الذي لما يعجموا عوده . وعرف جوسلين الثاني تلك النزعة فيهم ، فلم يكفد يبلغه خير مقل زنكي حتى كتب إليهم يستحثهم على التمرد والعصيان والامتناع على المسلمين وتسليم البلد إليه ، وواعدهم على يوم يصل إليهم فيه ^(٤) ، فلما كانت ليلة ٢٧ أكتوبر ١١٤٦ ^(٥) ، اغتتم فرصة

(١) الكامل لابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٥٥ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ص ٤٨ ، Migne : Dict. des Croisades. arte "Edesse."

(٣) Tritton : (J.R.A.S.) ، أما المؤرخ المجهول في Migne : Op. Cit. arte "Armenie."

Jorga : Brève Histoire des Croisades ، 1932 ، p. 275 ، فسميه «لابون بن دافن» ، أنظر أيضا

Croisades, P. 87 ; Michel, t. III, P. 269 ; Greg. le Prête, t. I, P. 158 ; Oraison, P. 205 — 220.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥ .

(٥) Grousset : Hist. des Croisades, t. II, P. 199 — 200.

الظلام، ووقف بجنده أمام مدينة الرها، ثم رمى الجبال على الأسوار وتسلقها، وتلقاه الأرمن من الداخل حسب الاتفاق المبرم بينهما. فلما شاهد جوسلين نفسه داخل البلد ازدهاه النصر، ولم يفكر في الاستيلاء على قلعة الرها من حاميتها الضئيلة من المسلمين، حتى إن أحد المؤرخين المسيحيين ليرميه «بالحق» لانصرافه هو ورجاله عن قلعة الرها إلى نهب البيوت والأسواق.

والواقع أن انصراف جوسلين عن القلعة جعله هو ورجاله أسرى داخل أسوار المدينة، وإذن فقد أصبح أمام جوسلين — للخلاص من الأسر الذي اختاره لنفسه — أن ينتظر مقدم الجماعات الصليبية لنجدته من الخارج، أعنى من أنطاكية (ريموند دي پواتيه)، ومن طرابلس (ريموند الثاني) ومن بيت المقدس (مليزاند).

وقد ترامت أخبار اقتحام جوسلين للرها إلى نور الدين، فاعتبر تلك الفعلة الجريمة اختباراً جدياً لقوته وتحدياً له، وأدرك إلى جانب هذا أن مبادرته إلى ضرب جوسلين قبل التمام القوات الصليبية خير من مواجهته إياها مجتمعة. لذا خرج نور الدين من حلب في جمادى الآخرة سنة ٥٤١ هـ في حشد كثيف من الفرسان عددهم عشرة آلاف، غير المشاة وغير الطلائع التي أنفذها أمامه بقيادة سيف الدولة سوار ليضرب جوسلين ضربة فاصلة. ولم يقو جوسلين على ملاقاته هذه الجموع خارج الرها أو داخلها، فلم يلبث أن انهزم أمامها إلى أحد الأبراج في عشرين من فرسانه^(١). ثم إنه أخذ يُنفذ الرسل إلى أمراء الولايات الصليبية يدعوهم لنجدته والإسراع إليه قبل أن يتمكن منه نور الدين وتندم الحيلة، وتضيع هبة الصليبيين أمام الأرمن وغير الأرمن بمن وثقوا به فوقفوا إلى جانبه. على أنه لم تصله أية نجدة، بل تمكنت القوات النورية من البلدة تمسكنا تاماً حمل جوسلين على طلب النجاة في الفرار، وخذوا حذوه الأرمن الذين أدركوا ما ينتظرهم إذا ما

(٢) ابن الفلاس: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٨٨.

بقوا بالرها ، فخرجوا من البلد ، وقد انتصف الليل ، بعد أن أضرموا النيران في كثير من البيوت (١) . وقد استطاع جوسلين الثاني النجاة إلى سميساط . غير أن كثيرا من الأرمن لم يستطيعوا إلا أن يقعوا في أيدي الجنود النورية التي حالت بينهم وبين المدينة عقابا لما برهن عليه الأرمن من نكران الجميل ، وأتاحت للمسلمين فرصة تأمين المواصلات بين حلب وبلاد الشرق الإسلامي (٢) ؛ غير أن ذلك الفشل الذريع لم يفت في عضد جوسلين الثاني ، إذ كان في عزمه أن يجازف بكل شيء فيما فوز تعقبه حياة طيبة ، أو هزيمة تتلوها ميتة بميدان القتال ، وانتهت تلك المجازفة بأسره (٣) يوم ٤ مايو ١١٥٠ ، واقتيد إلى حلب حيث بقي بها حبيسا تسع سنوات (٤) .

عندئذ وكل أمر الدفاع عما تبقى من إمارة الرها إلى زوجته الأميرة بياتريكس ، وكان لها منه ابنتان وولد (٥) ، فحاولت باسمه أن تحل محل زوجها حتى يبلغ ابنها مبلغ الرجال . غير أن توليها الحكم أطمع فيها كل من حولها ، إذ أسرع نور الدين فاستولى على عزاز في يوليو ١١٥٠ م ، ولم تلبث حارم (٦) أن سقطت في يده ، وكان غرضه من تلك السرعة أن يبني من الحاميات خطا طويلا ليحول بين الصليبيين وبين النهوض لنجدة بياتريكس ، إذا هو عقد النية على إزالة البقية الباقية من إمارة الرها . ولم يخف ذلك على بلدوين الثالث ملك بيت المقدس ، فجمع ما استطاع من قوة حربية ، وسار لنجدة الأميرة من الخطر النورى الذى يوشك أن يفقد الصليبيين كل البلاد التابعة لهم شمال حلب . غير أن بلدوين الثالث أدرك أن ما لدى

(١) ابن الأثير: الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٦ ، Michel Le Syrien: Chroniques, t., III, p. 270; JRAS, 1933, p. 293, G. T., p. 729.

(٢) Stevenson : Crusaders in the East, p. 153.

(٣) ابن الفلاس ، ص ٢١٠ ، الكامل لابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٩٦ .

(٤) J.R.A.S., 1932, p. 301.

(٥) Rev : Les Familles d'outre — mer, p. 300.

(٦) فيها يتلقى بحارم وتاريخها في هذه الفترة ، راجع ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٢٢٥

الصليبيين من قوة بالشام لا يكفي لمواجهة نور الدين ، ولذا عمد إلى الاستعانة بالدولة البيزنطية ، التي لاشك أنها قد رحبت بهذا الطلب ، ولم ترد اليد التي سألتها النجدة ، لا لأنها يهملها مصالح الصليبيين أو المسيحية في بلاد الشام ، بل لكي تقوى حدودها وتخومها عساها تتمكن من القضاء على الصليبيين والمسلمين معا في هذه المنطقة يوما ما . لذلك رأى الإمبراطور أن يسارع لنجدة ياتريكس التي هربت إلى تل باشر ، وتقدم إليها مقترحا أن يشتري منها إمارة الرها بالمال ، على أن يجرى عليها وعلى أولادها طيلة حياتهم معاشا سنويا يكفل لهم العيش الرغد وإن فقدوا السلطنة والسيطرة ، وأخذ مانويل على نفسه عهدا بمحاربة نور الدين ومسعود صاحب قونية وغيرهما من أمراء المسلمين^(١) ، وكان ذلك عرضا جميلا يشكر عليه لو أنه تجرد عن المطامع الذاتية .

مضى مانويل كومنين يغرى ياتريكس بعيشة الرفاهية وحياة الطمأنينة إذا هي لبث شروطه لتتصرف إلى الاهتمام بشئون أبنائها ، وأخذ يستميلها بمختلف الهدايا التي بعث بها إليهم كبار رجاله ، فرضيت ببيع إمارتها له^(٢) ، أفهل كان يدور بخلد بلديين أن يؤول الأمر إلى بيع تلك الإمارة الصليبية إلى إمبراطور الدولة البيزنطية الذي أفسد الحملة الصليبية المعروفة بالثانية ، كما فعل سلف له من قبل إزاء الحملة الأولى ، وعمل جهده على تفريق شمل رجالها بالخيانة والحديمة ومصافة المسلمين ؟ على أن الأمر الذي يدعو إلى الالتفات هنا هو أن عروض مانويل أدت إلى انقسام الصليبيين بالشام فيما بينهم ، فرأى بعضهم وجوب رفض طلب مانويل ، وهؤلاء كانوا مدفوعين بالعاطفة الدينية ، ولعلمهم رأوا أن نجدة الأمراء — إن أمكن — في بلاد الشام كافية لإجلاء نور الدين وأتباعه عن الأماكن التي احتلوها سواء في الرها أو في

(١) Cf. Chalandon : Comnènes, t. II, , p. 424.

C. F., p. 785 — 786; Chalandon : Comnènes, p. 424 — 425 ; (٢)

شرقي نهر العاصي . أما الفريق الثاني فإنه رأى أن الدولة البيزنطية خير من المسلمين ، ولعل هؤلاء أدركوا هدف نور الدين من كثرة فتوحه ، واستشفوا منه أنه يعمل جديدا على تكوين جبهة متحدة لقتال الصليبيين في الشرق ، ولعلمهم رأوا أيضا أن امتلاك الإمبراطورية البيزنطية للرهابسيدي إلى كثرة الاحتكاك بدولة نور الدين ويولّد النزاع بين الجارين مما يترتب عليه إضعافهما معا وإنقاذ الإمارات الصليبية على حسابهما . وقد جرى ذلك الانقسام في الرأي في جلسة عقدت خصيصا لمداولة الرأي في عروض مانويل . ولعل نظرة واحدة إلى محضر تلك الجلسة التاريخية يساعد على فهم روح ذلك العصر ؛ فقد كان وليم الصوري — أكبر مؤرخي فرنجة تلك الحقبة — حاضرا المجلس وترك لنا صورة صادقة عنه ^(١) ، وهو نص كاف لإيضاح اختلاف وجهات النظر حول تلك المسألة الهامة ، إذ يتبين منه أن بياتريكس وكلّت تقرير مصير إمارتها — أو على الأصح ما تبقى منها — إلى رأي بلدوين الثالث ملك بيت المقدس وعاهل الصليبيين في بلاد الشام ، ولم ير بلدوين أن يبت في الأمر برأي قاطع دون مشاورة باروناته ، فلما استقر الأمر على قبول مطالب مانويل كومنين حاول إقناع الأميرة ببيع تل باشر وسميساط وروم قلعة وألبيرة ودلوك وعتاب وراوندان إلى البيزنطيين ، وخرجت الأميرة وأولادها ، وتبعها في خروجهما جمهور غفير من الأرمن الذين أدركوا مقدار الخطر الذي يهددهم من بقائهم تحت سيطرة النفوذ البيزنطي ، فأرادوا الإبقاء على حياتهم وأموالهم ومعتقداتهم .

هذا ما كان من أمر ما تبقى من إمارة الرها ، على أن ذلك لم يكن كل ما هنالك بين الصليبيين ونور الدين في السنوات الأولى من حكمه ، إذ كانت هناك أنطاكية ، التي أشار صاحبها ريموندي بواتيه على الحملة الصليبية الثانية

أن تبدأ عملها بحلب ، ولو أنها نزلت عند رأيه لما توجهت وجهتها الخاطئة صوب دمشق ، ولذلك لم يكبد الصليبيون الأوريون وعلى رأسهم لويس السابع يرحلون عن أنطاكية إلى بيت المقدس حتى تأهب نور الدين للقضاء على إمارة أنطاكية وصاحبها ، الذي كان يمكن أن ينجح في توجيه الحملة الصليبية نحوه ، وكان رايوند كان يتوقع أن يتحرك نور الدين ضده في سرعة فسبقه ، وخرج بجيوش أنطاكية سنة ١١٤٩ قاصدا إمارة حلب ، ولم يكن ذلك من الأمور التي ينبغى القيام بها في مثل تلك الظروف التي زال فيها الخوف عن نفوس المسلمين عامة وأهل حلب خاصة ، لانكشاف القوات الصليبية الأوربية عن بلاد الشام ، وخرجها منها شبه منهزمة ، وظهور الخلف الشديدين الصليبيين ، وتضارب مطامع المقيمين منهم بالإمارات المختلفة .

ولم يكبد خبر تحرك الأنطاكيين يتراعى إلى سمع نور الدين حتى استعد لمقاتلتهم ، والتقى الفريقان في مكان اسمه يغرى^(١) سنة ١١٤٩ ، واقتتل شديدا انجلى عن هزيمة الصليبيين . وهذا ما رواه ابن الأثير وابن العديم ، إلا أننا لا نجد شيئا عنها في ابن القلانسي ، بل إن كل ما يشير إليه صاحب الذيل هو هزيمة نور الدين أمام ريموند أمير أنطاكية^(٢) .

وتعليل ذلك أنه ربما كانت هناك وقعتان لنور الدين مع ريموند ، شالت في الأولى كفة الصليبيين ، ثم عادت فرجحت في الثانية ، إذ يذكر المؤرخ السرياني المجهول أن نور الدين هاجم يغرى في غيبة صاحبها ريموند ، فلما علم ريموند بذلك جمع رجاله وكرّ على المسلمين كرة أرغمتهم على الفرار ، حيث نجى مع نور الدين مائتان فقط من رجاله ، أما من عداهم فقد قتلوا عن آخرهم^(٣) .

(١) Dussaud ; Topographie, p. 436 - 439

(٢) الكامل لابن الأثير ، ج ١١ ص ٦١ ، وأتابكة الموصل ، ص ١٦٤ - ١٦٥ ،
وابن العديم ، ص ٥١٧ - ٥١٨ ، وابن القلانسي ص ٣٠٢ - ٣٠٣ . Gibb : Damascus
Chronicle, P. 148 ; JRAS., p. 301.

(٣) أما كتاب الروستين ، ص ٥٦ ، فقررها كأمر مفروغ منه كما حفظ لنا الشعر العربي
إشارة لهزيمة نور الدين في يغرى ، إذ قال أحد الشعراء في مدح أسد الدين شيركوه :
=

ويمكن أن نقول إن الواقعة التي هزم فيها نور الدين على يد ريموند قد تناقل عنها بعض المؤرخين المسلمين عن قصد ، فقد نص عليها أبو شامة ، فقررها كأمر مفروغ منه .

وكيفما كان الأمر فقد أعقب نور الدين وقعة يفرى بالهجوم على حصن حارم في مايو ١١٤٩ ، وهو الحصن الواقع على الشاطئ الشرقي لنهر العاصي . وقد استولى نور الدين على ذلك الحصن وعلى أرتاح^(١) وما حولها ، ولعل هذه الحركة من جانبه كانت تأرا للهزيمة التي لحقت به من قبل أمام يفرى . ثم مضى نور الدين يخرب ما حول حوران ، ولم يلبث أن انتصر على جماعة من الصليبيين عند « أنب » شمالي أفامية ، وأزالهم عنها^(٢) .

على أن ريموند كان فيما يبدو شديدا بنور الدين في العزم على مواصلة القتال إلى النهاية ، إذ تحرك بجيوشه^(٣) حتى بلغ « معرثة »^(٤) ، مما انطوى على الخطر الشديد عليه وعلى من معه . ولم يفت ذلك أحد الإسماعيلية الذين

== إن كان آل فرنج أدركوا فلصا في يوم يفرى ونالوا منية المظفر
ففي الحطيم خطمت الكفر منصلتنا أبا المظفر بالصمصامة الذكر
نالوا يفرى نهايا واتهبت لنا على الحطيم نفوس العشر البتر
كما أن الفيسرائي يشير في إحدى قصائده التي رفعها إلى نور الدين عقب نصره على ريموند دي
بواتيه إلى هذا الحادث فيقول :

قل للطفساء وإن صمت مسامعا قولاً لصم القنا في ذكره أرب
ما يوم آنب والأيام دائلة من يوم يفرى بعيد لا ولا كتب
أغرکم خدعة الآمال ظنكم كم أسلم الجهل ظنا غرة الكذب
انظر أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ١ ، ص ٣٦١ Le Strange : Palestine
under Moslems, p. 436 — 437.

Dussaud : Topographie Hist. de la Syrie. p. 225 et seq (١)

Dussaud : Op. Cit. p. p. 168 (٢) وابن الشحنة : الدر المنتخب ، ص ١٧٧ ،

Gibb : Damascus Chronicle, p. 291 — 292 وابن القلانسي ، ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، وكان

هذا الانتصار في شهر صفر سنة ٥٤٤ هـ = (يونيو ١١٤٩ م)

Documents Armeniens, t. I., p. 161; G. T., p. 772. (٣)

Dussaud : op. cit. p. 167. (٤)

كانوا يتلصقون الوسيلة للقضاء على نور الدين ^(١) ، فقد أشار هذا الإسماعيلي على ريموند بالبقاء حيث هو نظر أقللة جنده ^(٢) وانتظاراً لمقدم ما قد يفد عليه من الإمدادات الصليبية . بيد أن ريموند أهمل مشورة الإسماعيلي ، فتركه نور الدين حتى صار أمام معركة ليلة ٢٧ يونيو ١١٤٩ ^(٣) ، وعند ذلك تقدم نحوه وقاتله أعنف قتال ، وأبى أمير أنطاكية النزول على مشورة من أشاروا عليه بالنجاة بنفسه ، بل استبسلى حتى خر صريعاً في الميدان . ولا مشاحة في أن مصرع ريموند كان من أشبهى الأمانى عند المسلمين ، فقد زال من على مسرح التضال رجل أقل ما يقال فيه إنه من أشد خصومهم قوة وأكثرهم كراهية لهم ، وحسبنا بيان شكيمته من تسميتهم إياه « باللعين » و « العاتق » ، ثم إنه عندهم أيضاً من « أبطال الصليبيين المشهورين بالفروسية وشدة البأس ، وقوة الحيلة ، وعظم الخلق ، مع اشتهاه الهيبة وكبر السطوة والتناهي في الشر » ، وهو عند المسيحيين « الأسد المحصور » ^(٤) . وقد كانت نهاية ريموند على يد أسد الدين شيركوه ، فلما عثروا على جثته فصلوا رأسه وذراعاه اليمنى وحملوهما إلى خيمة نور الدين ، وزعم ولیم الصوري أنهما حملتا من هناك إلى الخليفة ببغداد ^(٥) ومهما يكن الأمر فقد كانت تلك

(١) لإبطاله « حتى على خير العمل » ، أنظر النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٢٨٢ .

(٢) Chroniques du Michel, t. III, p. 289. وقد ذكر ابن القلانسي ص ٣٠٤ — ٣٠٥ أن جند نور الدين بلغ الستة آلاف فارس سوى المقاتلة والأتباع والسواد ، أما جند ريموند فكان أربعمئة فارس طعانة ، وألف رجل مقاتلة ، راجع أيضاً كتاب الروضتين ج ١ ص ٤٥٨ ، G.T. , p. 772 .

(٣) هذا التاريخ وارد في : Migne: Dic. des Crois.arte "Antioche" .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٦٥ ، المنتظم ص ١٢١ — ١٢٢ ، وابن القلانسي ص ٣٠٥ ، G. T. , p. 776 ; corhiques du Michel, t. III, p. 289 ; Rey : Les Familles d' outre mer p. 360 .

(٥) لم تنص المراجع العربية على تسمية المكان الذي قتل فيه أمير أنطاكية ، غير أن الشعر حفظ لنا اسمه ، فيقول أحدهم مخاطباً أسد الدين شيركوه ، ومنوها بما قد تم على يده من مصرع أمير أنطاكية

في الحطيم خطمت السكفر منصلتنا أبا المظفر بالصمصامة الذكر =

الوقعة وما أدَّتْ إليه من مقتل ريموند ثاني نكبة تنكب بها الإمارات الصليبية في الشام في مدى أعوام قلائل، ولم يعدل ألم الصليبيين بها سوى فرحة المسلمين^(١).

عدم أنطاكية من يدفع عنها عائلة المغير، إذ لم يخلف ريموند وراه سوى أرملته كونستانس وابنه الصغير بوهمند الثالث. فطمع نور الدين إذ ذاك في إرهاب أهلها، فتقدم بجيوشه حتى بلغ «باب السويداء» أحد أبواب المدينة، وطلب من أهلها الاستسلام له، فاعترضوا وخافوا على مصيرهم ومصير الإمارة، فتقدموا إليه بالهدايا والأموال عساه يرجع عما يهددهم به، بما فيه فناءهم كجاعة استقرت هناك منذ نصف قرن.

والواقع أن نور الدين لم يكن صادق الرغبة في الاستيلاء على أنطاكية، لأنه إذا اشتد في تهديدها فإنه يهيء للدولة البيزنطية ذريعة للتدخل في شؤون الإمارة، وهو ما لا يحبه مطلقاً، فجوار الصليبيين - على حد قوله - أحب إليه من مجاورة «ملك القسطنطينية»^(٢). ولا عجب إذا قبل نور الدين ما عرضه عليه الأنطاكيون من الهدايا والأموال، ورأى الارتحال عن بلدهم لمنازلة الحصون الأخرى.

ثم نزل نور الدين على أفامية^(٣) وهي من أمتع المعاقل الصليبية المطلة

== ويقول آخر عن ريموند

فاقاد في خطم المنية آفة يوم «المطيم» وأقصرت ثرواته

انظر أيضاً ابن الفلاس من ٣٠٥، G. T., p. 774.

(١) حفظ لنا الشعر العربي صورة من فرحة المسلمين بانتصارهم على ريموند ومصرعه ونكبة

أنطاكية، فيقول أحدهم مخاطباً نور الدين

أغررت سيفوك بالإفرنج راجفة فؤاد رومية الكبرى لها يجب

ضربت كبشهمو منها بقاصة أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب

طهرت أرض الأعدى من دمائمهم طهارة كل سيف عندها جنب

(٢) ابن الأثير: أتابكة الموصل، ص ٢٢٤.

G.T., p. 774; Van Berchem, Voyage en Syrie, p. 233; Dussaud; op. (٣)

cit. p. 168. وابن الفلاس، ذيل تاريخ دمشق من ٣٠٥؛ وأتابكة الموصل، ص ١٨٠؛

والكامل، ج ١١، ص ٦٧ وكان نزوله يوم ٢٦ يوليو ١١٤٠م (= ربيع الأول سنة ٥٤٤ هـ)

على نهر العاصى، كما كانت مصدر خطر جسيم على الإمارات الإسلامية التي حولها، لاسيما شيزر وحماة، فرتب نور الدين الأمير صلاح الدين لحرهما، وعهد إليه — ثقة منه به — بدفع كل قوة صليبية تفكر في إنقاذها، ويئس أهل أفامية من الانتصار حين سمعوا بما حاق بأنطاكية، وانعدم رجاؤهم في نجدة تصلهم، فلم يلبثوا أن طلبوا الأمان فأجروا إليه^(١).

وهنا يتضح لنا أن نور الدين كان يسير في تلك الحرب وفق خطة مرسومة مدبرة، فهو في جميع تلك الوقائع قد جعل نصب عينيه أمراً واحداً تينيه لنا خريطة فتوحه إبان تلك الحقبة، ألا وهو محاولته الاستيلاء على كل البلاد الواقعة شرقي العاصى. على أن تحول نور الدين عن أنطاكية إلى أفامية لم يكن معناه صرفه النظر عنها نهائياً، بل انتظر بلدين الثالث أن يعود نور الدين إلى تهديدها مرة أخرى، حتى إذا قضى لبانته منها توجهه إلى الجنوب حيث طرابلس وملكه بيت المقدس، ولذا اهتم بلدين بأمر أنطاكية أشد الاهتمام، ولا سيما أنها لم تكن مهددة من جانب نور الدين فحسب، بل كان هناك كذلك الامبراطور مانويل كومنين. والواقع أن مانويل لم يخف مطامعه في ضم أنطاكية إليه عقب مصرع ريموند دى بواتيه، ذلك أن كونستانس اعتبرته حامياً لها ولأمارتها، فرآى الفرصة سانحة لتحقيق مطامعه الملوكية، وذلك بربط إمارة أنطاكية بالامبراطورية البيزنطية برباط المصاهرة، فبعث إليها أميراً من ذوى قرباه، ولكنها صرفته بلطف، وتكرر العرض من جانب الإمبراطور أكثر من مرة^(٢).

أما بلدين الثالث فقد رأى أن زواج كونستانس من أمير صليبي من أتباعه يدعم الإمارة، وبالتالي يدفع عنها أطاع الإمبراطورية البيزنطية، ويمكن ملك بيت المقدس من الانصراف لمعالجة شؤون الإمارات الأخرى بالشام،

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ٦٣ .

(٢) Schlumberger : Renaud de Chatillon , p. 10.

ولذلك عقد بجمع في طرابلس ضم كبار الصليبيين ورجال الدين، وتصدره بلدوين الثالث^(١) وأمه وكونستانس، واستعرضوا أسماء من يطعمون في الزواج من الأرملة الشابة الحسنة، فأبت الأميرة الاقتران بأحدا، وأصرّت على أن تبقى كما هي منصرفة إلى الوصاية على ابنها، وهناك من يعلل موقفها هذا إلى تدبير من بطريك أنطاكية أمررى دى ليمجوس، ليظل صاحب الكلمة في تصريف شؤون الإمارة^(٢). ولقد كانت كونستانس فتاة في ريق الصبا وميعة الشباب، لها قلب يخفق بالحياة، فلا تقيدته أوضاع معينة، أو رتبة، أو جاه، أو مال، وما لبثت أن أحبت فتى مغامر أ هو «رينودى شاتيون» الذى لم يكن له ما يزهله للزواج بها غير جماله وفتوته، وداست هي الفارق الاجتماعى العظيم الذى يفصل بينهما، وكانت من الدهاء بمكان، فتظاهرت بضرورة الحصول على موافقة بلدوين الثالث، فبعثت زوجها المختار إليه وهو مقيم على حصار عسقلان الفاطمية، متوسلا إليه الموافقة على زواجهما من بعضهما، فتم لها ما دبر^(٣)، وعاد «رينو» إلى أنطاكية سنة ١١٥٣ م، وعُدّ توليه الحكم أكبر سسبة فى تاريخها وفى تاريخ الإمارات الصليبية عامة^(٤)، لاسيما وقد أدت سياسته الخرقاء إلى أسوأ العواقب، كما غضب لهذا الزواج البطريرك الأنطاكي .

غير أن تطور الحوادث بأنطاكية على ذلك النحو لم يجعل منها ما أراده بلدوين الثالث، الذى ما فتئ يوجس خيفة مما قد يكون الغرض التالى لنور

(١) كان سبب مقدم بلدوين إلى طرابلس محاولته التوفيق بين ريموند الثانى أميرها وبين زوجته «هديون» .

G.T., p. 790 — 791. (٢)

(٣) غير أن هناك مؤرخا يزعم ان اختيار رينودى شاتيون زوجا لكونستانس كان بتدبير بلدوين الثالث نفسه؛ راجع فى ذلك Schlumberger : op. cit., p. 5, note 1 d'après Chron. d'Ernoul.

(٤) Cf. G. T., p. 802 — 803. حيث يقول عن رينودى شاتيون Gregario nubere dignaretur أى أنه غير أهل للتولاه.

الدين بعد أفامية . ولذا رأى بلدوين الثالث أنه من الخير له أن يبحث عن حليف قوى يستطيع أن يلوِّح به في وجه نور الدين كلما هم يتنذر به بالخطر ، وقرَّ رأيه أن يتخذ من الإمبراطورية البيزنطية حليفه ، فخطب إلى الإمبراطور مانويل كومنين ابنة أخيه « تيودورا » (١) غير متجاوزة الثالثة عشرة من عمرها ، فزفها الإمبراطور إلى بلدوين الثالث أروع زفة ، وقدر حب الإمبراطور بمشروع الزواج لما فيه من وسيلة للحلف بين مملكة بيت المقدس والإمبراطورية البيزنطية ، لعله بذلك يستطيع أن ينهى ما للإمبراطورية من أطاع في أنطاكية ، حيث كانت كونستانس هي الوصية على ابنها بوهيمند الثاني ، وإلى جانبها زوجها رينودي شاتيون ، الذي لم تلبث سياسته أن أدت إلى نهوض الإمبراطور سنة ١١٥٨ ، لمعاقبته على تعديه على عملائه في قبرص وعلى رجال الكهنوت الأغرقي بأنطاكية . وخرج مانويل إلى المصيصة بجيش ضخم ارتعدت له أوصال الوصية وزوجها . فاستغاث رينو ببلدوين ، ولكن ملك بيت المقدس تلكا بإيجاه من البطريرك إيبري ليجوس ، وأدرك رينو أنه أمام اثنين أحلاهما مر : إما أن يخرج وحده لمقاومة جيش الإمبراطور وهو ما لا يستطيعه أبداً ، لأنه يرادى إلى أسره أو قتله ، وهو الحريص على الحياة وأبهة الحكم ، وأما ثانيهما فهو الخضوع للإمبراطور ، وذلك ما أشار به عليه أحد المقرين إليه وهو جيرار الناصري أسقف اللاذقية (٢) واختار رينو الطريق الثاني ومضى إلى فسطاط الإمبراطور بالمصيصة عارى الرأس ، حافى القدمين ، مبالغة في إظهار طاعته وخضوعه له ، وركع أمامه مقبلاً يده ، وأعلن نفسه تابعا لإقطاعيا له ، بل لقد ذهب أبعد من ذلك حين تعهد للإمبراطور بخلع البطريرك الكاثوليكي ، وإحلال آخر يوناني مكانه (٣)

(١) Diehl : Figures Byzantines, t II, p. 106 — 108.

(٢) Du Cange — Rey : Familles d' outre — mer, p. 797.

(٣) فيما يتعلق بهذه الصورة التمثيلية العجيبة ، وما دار في ذلك المجلس بين الإمبراطور

مانويل دي كومنين ، وبين رينو دي شاتيون ، راجع G. T., p. 890

غير أن امتداد السيادة البيزنطية على أنطاكية بهذه السهولة لم يُرق في عين بلدين الثالث ملك بيت المقدس، الذي خاف من ضياع أنطاكية وتسليم قلعتهما إلى مانويل، فأرسل رسله تعلن للإمبراطور البيزنطي قدوم مولاها الذي دخل عليه فسطاطه في المصيصة راكبا غير راجل، ولعله فعل ذلك عن قصد ليشعر الإمبراطور بتكافؤ مكائبتيهما، وقد أحسن مانويل^(١) لقاؤه، وربما كان ما قام به مانويل وقتذاك من دعوة لمهاجمة أملاك نور الدين إنما قصد به صرف الصليبيين عن التفكير فيما حدث بأنطاكية.

وكيفما كان الأمر فقد نهض نور الدين في فبراير ١١٥٩ إلى البلاد الشامية المختلفة، لتطمين أهلها من شر الحلف البيزنطي الصليبي، وسار في عسكره إلى حمص وحماة وشيزر^(٢)، وكاتب عمال الأطراف وولاية الأقاليم لإنجاده بعساكرهم لصد ما عساه ينزل بالبلاد^(٣). غير أن هناك فجوة في كتابات المؤرخين المعاصرين لتلك الحقبة، فبدلا من أخبار الاستعدادات التي انصرف إليها نور الدين للتجهز للقتال، وبدلا من أخبار تأهب مانويل بجنده وحلفائه، إذا بصلاح يتم بين المسلمين والبيزنطيين في جمادى الأولى ٥٧٤ هـ = ١١٥٩ م، كأن لم يحدث بين قيام نور الدين وإتمام الصلح شيء ما. ويشير الكاتب الأرمني القسيس جريجوار — ويتفق معه ابن القلانسي — إلى تردد رسل نور الدين على معسكر الإمبراطور، ولا شك أن نور الدين كان مستعدا للحرب، فقد تواصل الأمراء المقدمون وولاية الأعمال بجنودهم، المجاهدة أحزاب الضلال وحماية الأعمال الإسلامية من شر الروم والأفرنج، ومع هذه الكثرة العددية إلا أن نور الدين آثر الصلح مع مانويل، حتى لا يجعل مملكته بين عدوين، ووافق على إطلاق سراح الأسرى الصليبيين الذين لا زالوا في الأسر عنده منذ الحرب الصليبية الثانية^(٤) كما أرسل إليه مانويل هدية من الأثواب والديباج الفاخرة.

(١) G.T., p. 862, Doc. Armeniens, t. I, p. 188.

(٢) ابن القلانسي: الذيل، ص ٣٥٦ — ٣٥٧ — ٣٥٨ — ٣٥٩ — ٣٦٠ — ٣٦١ — ٣٦٢ — ٣٦٣ — ٣٦٤ — ٣٦٥ — ٣٦٦ — ٣٦٧ — ٣٦٨ — ٣٦٩ — ٣٧٠ — ٣٧١ — ٣٧٢ — ٣٧٣ — ٣٧٤ — ٣٧٥ — ٣٧٦ — ٣٧٧ — ٣٧٨ — ٣٧٩ — ٣٨٠ — ٣٨١ — ٣٨٢ — ٣٨٣ — ٣٨٤ — ٣٨٥ — ٣٨٦ — ٣٨٧ — ٣٨٨ — ٣٨٩ — ٣٩٠ — ٣٩١ — ٣٩٢ — ٣٩٣ — ٣٩٤ — ٣٩٥ — ٣٩٦ — ٣٩٧ — ٣٩٨ — ٣٩٩ — ٤٠٠ — ٤٠١ — ٤٠٢ — ٤٠٣ — ٤٠٤ — ٤٠٥ — ٤٠٦ — ٤٠٧ — ٤٠٨ — ٤٠٩ — ٤١٠ — ٤١١ — ٤١٢ — ٤١٣ — ٤١٤ — ٤١٥ — ٤١٦ — ٤١٧ — ٤١٨ — ٤١٩ — ٤٢٠ — ٤٢١ — ٤٢٢ — ٤٢٣ — ٤٢٤ — ٤٢٥ — ٤٢٦ — ٤٢٧ — ٤٢٨ — ٤٢٩ — ٤٣٠ — ٤٣١ — ٤٣٢ — ٤٣٣ — ٤٣٤ — ٤٣٥ — ٤٣٦ — ٤٣٧ — ٤٣٨ — ٤٣٩ — ٤٤٠ — ٤٤١ — ٤٤٢ — ٤٤٣ — ٤٤٤ — ٤٤٥ — ٤٤٦ — ٤٤٧ — ٤٤٨ — ٤٤٩ — ٤٥٠ — ٤٥١ — ٤٥٢ — ٤٥٣ — ٤٥٤ — ٤٥٥ — ٤٥٦ — ٤٥٧ — ٤٥٨ — ٤٥٩ — ٤٦٠ — ٤٦١ — ٤٦٢ — ٤٦٣ — ٤٦٤ — ٤٦٥ — ٤٦٦ — ٤٦٧ — ٤٦٨ — ٤٦٩ — ٤٧٠ — ٤٧١ — ٤٧٢ — ٤٧٣ — ٤٧٤ — ٤٧٥ — ٤٧٦ — ٤٧٧ — ٤٧٨ — ٤٧٩ — ٤٨٠ — ٤٨١ — ٤٨٢ — ٤٨٣ — ٤٨٤ — ٤٨٥ — ٤٨٦ — ٤٨٧ — ٤٨٨ — ٤٨٩ — ٤٩٠ — ٤٩١ — ٤٩٢ — ٤٩٣ — ٤٩٤ — ٤٩٥ — ٤٩٦ — ٤٩٧ — ٤٩٨ — ٤٩٩ — ٥٠٠ — ٥٠١ — ٥٠٢ — ٥٠٣ — ٥٠٤ — ٥٠٥ — ٥٠٦ — ٥٠٧ — ٥٠٨ — ٥٠٩ — ٥١٠ — ٥١١ — ٥١٢ — ٥١٣ — ٥١٤ — ٥١٥ — ٥١٦ — ٥١٧ — ٥١٨ — ٥١٩ — ٥٢٠ — ٥٢١ — ٥٢٢ — ٥٢٣ — ٥٢٤ — ٥٢٥ — ٥٢٦ — ٥٢٧ — ٥٢٨ — ٥٢٩ — ٥٣٠ — ٥٣١ — ٥٣٢ — ٥٣٣ — ٥٣٤ — ٥٣٥ — ٥٣٦ — ٥٣٧ — ٥٣٨ — ٥٣٩ — ٥٤٠ — ٥٤١ — ٥٤٢ — ٥٤٣ — ٥٤٤ — ٥٤٥ — ٥٤٦ — ٥٤٧ — ٥٤٨ — ٥٤٩ — ٥٥٠ — ٥٥١ — ٥٥٢ — ٥٥٣ — ٥٥٤ — ٥٥٥ — ٥٥٦ — ٥٥٧ — ٥٥٨ — ٥٥٩ — ٥٦٠ — ٥٦١ — ٥٦٢ — ٥٦٣ — ٥٦٤ — ٥٦٥ — ٥٦٦ — ٥٦٧ — ٥٦٨ — ٥٦٩ — ٥٧٠ — ٥٧١ — ٥٧٢ — ٥٧٣ — ٥٧٤ — ٥٧٥ — ٥٧٦ — ٥٧٧ — ٥٧٨ — ٥٧٩ — ٥٨٠ — ٥٨١ — ٥٨٢ — ٥٨٣ — ٥٨٤ — ٥٨٥ — ٥٨٦ — ٥٨٧ — ٥٨٨ — ٥٨٩ — ٥٩٠ — ٥٩١ — ٥٩٢ — ٥٩٣ — ٥٩٤ — ٥٩٥ — ٥٩٦ — ٥٩٧ — ٥٩٨ — ٥٩٩ — ٦٠٠ — ٦٠١ — ٦٠٢ — ٦٠٣ — ٦٠٤ — ٦٠٥ — ٦٠٦ — ٦٠٧ — ٦٠٨ — ٦٠٩ — ٦١٠ — ٦١١ — ٦١٢ — ٦١٣ — ٦١٤ — ٦١٥ — ٦١٦ — ٦١٧ — ٦١٨ — ٦١٩ — ٦٢٠ — ٦٢١ — ٦٢٢ — ٦٢٣ — ٦٢٤ — ٦٢٥ — ٦٢٦ — ٦٢٧ — ٦٢٨ — ٦٢٩ — ٦٣٠ — ٦٣١ — ٦٣٢ — ٦٣٣ — ٦٣٤ — ٦٣٥ — ٦٣٦ — ٦٣٧ — ٦٣٨ — ٦٣٩ — ٦٤٠ — ٦٤١ — ٦٤٢ — ٦٤٣ — ٦٤٤ — ٦٤٥ — ٦٤٦ — ٦٤٧ — ٦٤٨ — ٦٤٩ — ٦٥٠ — ٦٥١ — ٦٥٢ — ٦٥٣ — ٦٥٤ — ٦٥٥ — ٦٥٦ — ٦٥٧ — ٦٥٨ — ٦٥٩ — ٦٦٠ — ٦٦١ — ٦٦٢ — ٦٦٣ — ٦٦٤ — ٦٦٥ — ٦٦٦ — ٦٦٧ — ٦٦٨ — ٦٦٩ — ٦٧٠ — ٦٧١ — ٦٧٢ — ٦٧٣ — ٦٧٤ — ٦٧٥ — ٦٧٦ — ٦٧٧ — ٦٧٨ — ٦٧٩ — ٦٨٠ — ٦٨١ — ٦٨٢ — ٦٨٣ — ٦٨٤ — ٦٨٥ — ٦٨٦ — ٦٨٧ — ٦٨٨ — ٦٨٩ — ٦٩٠ — ٦٩١ — ٦٩٢ — ٦٩٣ — ٦٩٤ — ٦٩٥ — ٦٩٦ — ٦٩٧ — ٦٩٨ — ٦٩٩ — ٧٠٠ — ٧٠١ — ٧٠٢ — ٧٠٣ — ٧٠٤ — ٧٠٥ — ٧٠٦ — ٧٠٧ — ٧٠٨ — ٧٠٩ — ٧١٠ — ٧١١ — ٧١٢ — ٧١٣ — ٧١٤ — ٧١٥ — ٧١٦ — ٧١٧ — ٧١٨ — ٧١٩ — ٧٢٠ — ٧٢١ — ٧٢٢ — ٧٢٣ — ٧٢٤ — ٧٢٥ — ٧٢٦ — ٧٢٧ — ٧٢٨ — ٧٢٩ — ٧٣٠ — ٧٣١ — ٧٣٢ — ٧٣٣ — ٧٣٤ — ٧٣٥ — ٧٣٦ — ٧٣٧ — ٧٣٨ — ٧٣٩ — ٧٤٠ — ٧٤١ — ٧٤٢ — ٧٤٣ — ٧٤٤ — ٧٤٥ — ٧٤٦ — ٧٤٧ — ٧٤٨ — ٧٤٩ — ٧٥٠ — ٧٥١ — ٧٥٢ — ٧٥٣ — ٧٥٤ — ٧٥٥ — ٧٥٦ — ٧٥٧ — ٧٥٨ — ٧٥٩ — ٧٦٠ — ٧٦١ — ٧٦٢ — ٧٦٣ — ٧٦٤ — ٧٦٥ — ٧٦٦ — ٧٦٧ — ٧٦٨ — ٧٦٩ — ٧٧٠ — ٧٧١ — ٧٧٢ — ٧٧٣ — ٧٧٤ — ٧٧٥ — ٧٧٦ — ٧٧٧ — ٧٧٨ — ٧٧٩ — ٧٨٠ — ٧٨١ — ٧٨٢ — ٧٨٣ — ٧٨٤ — ٧٨٥ — ٧٨٦ — ٧٨٧ — ٧٨٨ — ٧٨٩ — ٧٩٠ — ٧٩١ — ٧٩٢ — ٧٩٣ — ٧٩٤ — ٧٩٥ — ٧٩٦ — ٧٩٧ — ٧٩٨ — ٧٩٩ — ٨٠٠ — ٨٠١ — ٨٠٢ — ٨٠٣ — ٨٠٤ — ٨٠٥ — ٨٠٦ — ٨٠٧ — ٨٠٨ — ٨٠٩ — ٨١٠ — ٨١١ — ٨١٢ — ٨١٣ — ٨١٤ — ٨١٥ — ٨١٦ — ٨١٧ — ٨١٨ — ٨١٩ — ٨٢٠ — ٨٢١ — ٨٢٢ — ٨٢٣ — ٨٢٤ — ٨٢٥ — ٨٢٦ — ٨٢٧ — ٨٢٨ — ٨٢٩ — ٨٣٠ — ٨٣١ — ٨٣٢ — ٨٣٣ — ٨٣٤ — ٨٣٥ — ٨٣٦ — ٨٣٧ — ٨٣٨ — ٨٣٩ — ٨٤٠ — ٨٤١ — ٨٤٢ — ٨٤٣ — ٨٤٤ — ٨٤٥ — ٨٤٦ — ٨٤٧ — ٨٤٨ — ٨٤٩ — ٨٥٠ — ٨٥١ — ٨٥٢ — ٨٥٣ — ٨٥٤ — ٨٥٥ — ٨٥٦ — ٨٥٧ — ٨٥٨ — ٨٥٩ — ٨٦٠ — ٨٦١ — ٨٦٢ — ٨٦٣ — ٨٦٤ — ٨٦٥ — ٨٦٦ — ٨٦٧ — ٨٦٨ — ٨٦٩ — ٨٧٠ — ٨٧١ — ٨٧٢ — ٨٧٣ — ٨٧٤ — ٨٧٥ — ٨٧٦ — ٨٧٧ — ٨٧٨ — ٨٧٩ — ٨٨٠ — ٨٨١ — ٨٨٢ — ٨٨٣ — ٨٨٤ — ٨٨٥ — ٨٨٦ — ٨٨٧ — ٨٨٨ — ٨٨٩ — ٨٩٠ — ٨٩١ — ٨٩٢ — ٨٩٣ — ٨٩٤ — ٨٩٥ — ٨٩٦ — ٨٩٧ — ٨٩٨ — ٨٩٩ — ٩٠٠ — ٩٠١ — ٩٠٢ — ٩٠٣ — ٩٠٤ — ٩٠٥ — ٩٠٦ — ٩٠٧ — ٩٠٨ — ٩٠٩ — ٩١٠ — ٩١١ — ٩١٢ — ٩١٣ — ٩١٤ — ٩١٥ — ٩١٦ — ٩١٧ — ٩١٨ — ٩١٩ — ٩٢٠ — ٩٢١ — ٩٢٢ — ٩٢٣ — ٩٢٤ — ٩٢٥ — ٩٢٦ — ٩٢٧ — ٩٢٨ — ٩٢٩ — ٩٣٠ — ٩٣١ — ٩٣٢ — ٩٣٣ — ٩٣٤ — ٩٣٥ — ٩٣٦ — ٩٣٧ — ٩٣٨ — ٩٣٩ — ٩٤٠ — ٩٤١ — ٩٤٢ — ٩٤٣ — ٩٤٤ — ٩٤٥ — ٩٤٦ — ٩٤٧ — ٩٤٨ — ٩٤٩ — ٩٥٠ — ٩٥١ — ٩٥٢ — ٩٥٣ — ٩٥٤ — ٩٥٥ — ٩٥٦ — ٩٥٧ — ٩٥٨ — ٩٥٩ — ٩٦٠ — ٩٦١ — ٩٦٢ — ٩٦٣ — ٩٦٤ — ٩٦٥ — ٩٦٦ — ٩٦٧ — ٩٦٨ — ٩٦٩ — ٩٧٠ — ٩٧١ — ٩٧٢ — ٩٧٣ — ٩٧٤ — ٩٧٥ — ٩٧٦ — ٩٧٧ — ٩٧٨ — ٩٧٩ — ٩٨٠ — ٩٨١ — ٩٨٢ — ٩٨٣ — ٩٨٤ — ٩٨٥ — ٩٨٦ — ٩٨٧ — ٩٨٨ — ٩٨٩ — ٩٩٠ — ٩٩١ — ٩٩٢ — ٩٩٣ — ٩٩٤ — ٩٩٥ — ٩٩٦ — ٩٩٧ — ٩٩٨ — ٩٩٩ — ١٠٠٠.

(٣) ابن القلانسي، الذيل، ص ٣٥٧.

(٤) G. T. p. 864—866; Gregoire le prêtre, t. I, p. 189—191

والجوهر النفيس ، والخيمة من الديباج ، وما استحسنت من الخيول المحلية ، ويتجلى من بقية عبارة لأبن القلانسي فرح المسلمين برحيل الإمبراطور بعد الصلح ، حيث عاد إلى بلاده « مشكوراً محموداً ، لم يؤذ أحد من المسلمين » (١) ، والواضح من ذلك كله أن مانويل كومنين لم يقصد إيذاء أحد من المسلمين ، بل كان غرضه من حركته أولاً تسوية مسألة أنطاكية ، حتى إذا تم له ذلك لم يبق عليه إلا أن يجرى على السياسة البيزنطية التقليدية ، التي رمت دائماً إلى توازن القوتين الإسلامية والصليبية في الشام ، بحيث لا تطغى إحداها على الأخرى طغياناً يهدد مصالح الإمبراطورية البيزنطية وأطاعها ، ولم يكن من صالح الإمبراطور أن يقضى القضاء للبرم على نور الدين ، هذا إلى ما ترمى إلى سمع مانويل كومنين من الاضطراب في عاصمته (٢) ، فأشار مشيروه بوجوب الإسراع في العودة إلى بلاده ، رغم أنهم أصبحوا وليس بينهم وبين أن يظرقوا أبواب حلب سوى ثلاثة أيام .

وقد كان معنى الاتفاق بين نور الدين ومانويل كومنين إطلاق يد المسلمين في الأعمال الصليبية ومكيدة صليبي الشام ، ولعل الاتفاق قد تم بينهما على أن يقوم سلطان حلب ودمشق بمراقبة شاتيون نيابة عن الإمبراطور . ومن الدليل على ذلك أنه حدث أن علم رينو بوجود عدد وفير من الماشية والأغنام لبعض المسلمين فيما بين مرعش ودلوك من أعمال إمارة الرها ، فقام في نوفمبر ١١٦٠ م وخرج في شردمة ضئيلة للاستيلاء عليها ، وقد تربص مجد الدين بن الداية عامل نور الدين على حلب لرينو في الطريق وهاجمه وأحاط به وبمن معه ، واستطاع أخذه أسيراً حيث بقى في سجن حلب إلى سنة ١١٧٦ م ، أي إلى ما بعد موت نور الدين دون أن يتحرك الإمبراطور بحركة ما لانقاذ تابعه الإقطاعي ، وهكذا أدت رعونة شاتيون إلى جلب الخطر على نفسه وعلى الإمارة المنكوبة به ، إذ أوقع في يد الوصية لا سيما

(١) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٥٨ .

(٢) Gregoire le pretre, Doc. Arm., t. 1. p. 191 - 192 .

وأن ابنها بوهيمند الثالث لم يزل غلاما حدثا ، لا يستطيع أن يأخذ مقاليد الأمور في يديه ، أو يدبر شؤون الإمارة كما ينبغي . وعند ذلك خشي بلدوين الثالث أن يقدم نور الدين على ضرب إمارة أنطاكية والاستيلاء عليها بعد أن تمكن من أسر أميرها وإذلاله ، كما أنه خشي تدخل مانويل في أمورها بحجة تعيين من يقوم مقام شائثون ، ولذا ذهب بلدوين الثالث إلى أنطاكية وجعل الوصاية في يدي البطررك إيمري ليمجوس .

* * *

ويبدو أن تلك الحركة من جانب بلدوين الثالث أنقذت أنطاكية مما كان قد بيّته نور الدين ضدها بعد أسر رينو ، إذ أنه لم يشأ مهاجمتها بعد أن قويت شوكتها ببلدوين الثالث ، لأن ذلك الهجوم يثير ضده نائرة الصليبيين والبيزنطيين معا ، فأجّل تلك الخطة إلى وقت آخر تنهأ له فيه الفرصة . والدليل على ذلك أن نور الدين لم يقم بشيء ضد أنطاكية برغم ما أعلنه من أن حربها جهاد بكل مالهذه الكلمة من مدلول في الاصطلاح الإسلامي حتى توفي بلدوين الثالث وانصرف خليفته أموري الأول نحو مشروع التدخل في مصر . حين ذاك أخذ نور الدين يتجهز لمهاجمة أنطاكية ، وطلب إلى الأمراء المختلفين مساعدته^(١) ، فخرجت قواتهم المتحالفة تحت رايته ، وأخذوا السير إلى حارم المؤدية إلى أنطاكية سنة ١١٦٤ ، مختنفا فرصة تغيب الملك أموري في حملته الأولى على مصر ، مؤملا أن يجد السبيل ميسرة أمامه والصليبيين قليلين ، والبلد أضعف من أن يقاوم ، والأمير الشاب بوهيمند الثالث أعجز عن دفعه^(٢) .

ومن هنا تختلط حركات نور الدين ضد أنطاكية خاصة والصليبيين عامة بمسألة التسابق على مصر بين الدولتين النورية والصليبية ، وليس من الممكن

(١) الكامل ، ج ١١ ، ص ٩٣ ، وأتابكة الموصل ، ص ٢٢٠ وما بعدها .

Rey: Les Princes d' Antioche, P. 374 et seq. (٢)

فهم أعمال نور الدين ضد الصليبيين من سنة ١١٦٤ حتى وفاته إلا على اعتبار أنها جزء من تلك المسابقة . على أنه لا بأس هنا من تتبع الحركات النورية بالشام في شيء من الاستقلال ، لأنها تشرح ناحية مما قام به نور الدين ضد الصليبيين بقية عهده ، ومن المحتمل جداً أنه كان يقوم بها سواء جدت مسألة النسابق على مصر أم لم تجد ، وهذا مع العلم بأن جزءاً على الأقل من تلك الحركات النورية بمصر من مد وجزر . وكيف كان الأمر فلم يكذب خبر الزحف النورى صوب حارم يذيع بين الصليبيين حتى جزعوا على أنطاكية ، ورأوا أن نجاح صاحب دمشق معناه القضاء عليها ، لا سيما بعد أن فرغ من جميع ما يشغل باله داخلياً ، فلا عجب إذا اجتمعوا على مختلف طبقاتهم وأجمعوا أمرهم على دفعه ، حتى إن أهل الصوامع والأديرة لم يتأخروا عن المساهمة في ضده ، ولما كانت أنطاكية — حسب اتفاقية المصيصة ١١٥٩ م — قد اعترفت صراحة بتبعيةها للإمبراطورية البيزنطية ، فقد أدرك قسطنطين كولمان — حاكم قيليقيا البيزنطى — مقدار الخطر الذى يهدد أملاك مولاه إذا قدّر النجاح لنور الدين فى مشروعه ، فجمع فريقاً كبيراً من الأرمن ، وسار بهم إلى حارم ، فلما سمع نور الدين بسيره ، انكفأ عنها إلى أرتاح .

غير أن نور الدين لم يتقهقر إلا تديراً وخدعة ، وقد جازت حركته على بوهيمند الثالث أمير أنطاكية ، وظن أن الموقف يتطلب منه السير وراء نور الدين لكي يلحق به الهزيمة ، لأنه لم يسبق له الاحتكاك الجدى بالمسلمين فى أساليبهم الحربية ، فأشار عليه بعض من حوله — بمن تراسوا بتلك الأساليب — ألا يقدم على السير وراء المسلمين ، فلم يعبأ بأقوالهم ، وعدّها جبناً منه إن هو أحجم ، بل سار مجداً فى إثرهم ، وإذا بهم على حين غفلة منه — وقد بعد ما بينه وبين مركزه — قد استداروا وهاجموه عند « عم ، شمال شرقى حارم »^(١) وأحرق نور الدين بالقوات الصليبية ، وأسر كثيراً

(١) ابن العديم : منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٤٠ .

من مقدميهم وفيهم بو هيمند الثالث نفسه وريموند الثالث أمير طرابلس، وعامل
بيزنطية على أرمينية^(١) فلم تلبث « حارم » أن سقطت في يده يوم ١٢ أغسطس
١١٦٤ ، وأصبح الطريق إلى أنطاكية نفسها مفتوحا ، وليس أمام نور الدين
من يتعقبه أو يسد مسالكه ، كل ذلك وأمورى الأول ملك بيت المقدس
غائب في حملته على مصر .

أصبح من المنتظر بعد ذلك أن يسير نور الدين شطر أنطاكية بعد
أن فقدت كل نصير ، والظاهر أنه أخذ في التلكؤ ، فارتاب من حوله في
الأمر ، وسألوه أن يبادر إلى اقتحامها وامتلاكها ، حتى يزيل عنها ما بقى بها
للصليبيين من قوة ، ولكنه امتنع ، فألحوا عليه ، فأجابهم بقوله : « أما المدينة
فأمرها سهل ، وأما القلعة فثيعة ، وربما سلموها إلى ملك الروم ، ومجاورة
بيمند أحب إليّ من مجاورة صاحب قسطنطينية^(٢) » . ولم يكن نور
الدين في الواقع مسرفا في ذلك الخوف ولا شديد التشاؤم ، بل كان يقدر
لرجله قبل الخطو موضعها حتى يأمن الزلزل ، ثم إنه لم يكن يرغب أن يشير
في وجهه قوة الإمبراطورية البيزنطية حتى لا يصاب بمخطر قد لا يعادل
ما يصيبه من النجاح ، أضف إلى هذا علمه بسهولة مجاورة الصليبيين ، فجوارهم
أهون عليه من مجاورة مانويل ، مما يكشف عن ضعف الصليبيين في بلاد
الشام . لكل هذه الظروف مجتمعة سلمت أنطاكية من الوقوع في يدي
نور الدين ، ولعل تبعيتها لبيزنطة هي أولى تلك الظروف .

وكان نور الدين يدرك أيضا أن احتلاله لأنطاكية لا بد وأن يدفع
بالإمبراطورية البيزنطية للنهوض لنجدتها ، ولإثبات سلطانها عليها ، كما أنه
سرعان ما يدفع أمورى للعودة من مصر ، فتلتقي القوتان المسيحتان وتحصرانه
من الشمال ومن الجنوب ، وبذلك يسعى لحتفه بظلفه ، وقد برهنت الحوادث

(١) أتابكة الموصل، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ ، والكامل، ج ١١ ، ص ١٣٥ ، ١٣٦ ، G.T. ،
p. 896 - 897 ; Dussaud ; Topographie de la Syrie, p. 231 - 232. Dict. des
Croisades, art "Tripolie"

(٢) الكامل، ج ١١ ، ص ١٣٦ ، الأتابكة، ص ٢٢٤ .

فبما بعد على بعد نظره وصدق آرائه ، وأنه كان لا يصدر في أحكامه إلا عن روية وتدبر ، وإلا عما يحفظ عليه مكانته ، ويبعد عنه شر الأحداث والفتن وأخطار المخالفات الصليبية ضده ، فقد عاد أموري من مصر في نوفمبر ١١٦٤ ، وضم قوات كونت فلاندرز أخى زوجته ، وسارا قاصدين أنطاكية ، (١) وأخذت الرسل تتردد بينه وبين نور الدين في شأن الأسرى ، وتم الاتفاق بينهما على إطلاق سراح بوهيمند الثالث ، لأنه من الأهون على نفس ملك دمشق أن يرى بوهيمند على عرش أنطاكية ، من أن يجاوره أموري في قيامه بالوصاية ، إن ظل أميرها الشرعي في أسره .

لم يخف على أحد مقدار العامل البيزنطي في تلك الناحية (٢) إذ المتأمل للنصوص المختلفة المتعلقة بتلك المسألة يدرك أن تحرك القوات الصليبية كان تحت تأثير دفع الإمبراطورية البيزنطية ، بل الظاهر أن بوهيمند نفسه كان ينسب تحريره من الأسر إلى نفوذ الإمبراطور أكثر من نسبه إلى أى عامل آخر ، فما كاد يطلق سراحه حتى زار في سنة ١١٦٥ القسطنطينية شاكرًا للإمبراطور يده عليه ، مؤملاً أن يمده ببقية الدية التي تعهد بدفعها لنور الدين . ثم انعقدت الوصلة بين بوهيمند وبين تيودورا ابنة أخى الإمبراطور ، ورضى أمير أنطاكية أن ينفذ ما اشترطه من قبل رينودى شاتيون على نفسه ، وأضحت مصالح أنطاكية مرتبطة أشد الارتباط بمصالح الدولة البيزنطية ، (٣) وتتلخص في سوق الزعامة الدينية بأنطاكية إلى بطرك أرثوذكسى هو أثناس الثانى الرومى الملكانى ، مما حمل السكهنوت الكاثوليكي على التعصب ضد بوهيمند ذاته ، كما أن إيمرى دى ليمجوس ارتد إلى حصن القصير تاركا أنطاكية . وهنا دلت سياسة نور الدين على أنه مدرك خير إدراك لعواقب الأمور

G.T., p. 900. (١)

G.T., p. 901. (٢)

G.T., p. 901 ; Michel le Syr. t. III, p. 335, 336 — Rey : Colonies (٣)

Françaises, p. 337 ; Rey ; Dignitaires de la principaute d'Antioche, p. 136 — 137., Dussaud : op. cit. p. 429 ; Van Berchem : Voyage en Syrie, p. 246.

ولنا أن نُقدّر مقدار الخسائر التي كان لابد وأن ينفق بها لو أنه أطاع من أغروه بالوثوب على أنطاكية واحتلالها بعد أسر صاحبها، ثم حكمته في إطلاق سراحه عاجلاً في الوقت الذي أبقى فيه رينودى شاتيون - عدو الإمبراطور البيزنطي - رهن القيد، مما يدل على مراعاته لخاطر الدولة البيزنطية حتى لا تكون يد أعدده، ولو فعل ما أشار به عليه من حوله لأدى ذلك إلى تكوين جبهة مسيحية ضده، قوامها الجماعات الصليبية والبيزنطية على السواء .

أما النضال الذي شب بين نور الدين ومملكة بيت المقدس فقد تداخل في نزاعه مع بقية الإمارات اللاتينية الأخرى، وسبب ذلك أنه لم يكن يفكر مطلقاً في أن يضرب بيت المقدس ضربة تهوى بها، لأنه بذلك يؤلب دول أوربة قاطبة، ويفتح مجالاً جديداً للمغامرين جُدد، يريدون أن يجدوا ذريعة للقدوم إلى الشرق الإسلامي والاستقرار فيه، كذلك كانت مملكة بيت المقدس قد احتلت الصدارة بين الإمارات اللاتينية في الشام إبان القرن الثاني عشر، واستطاعت بفضل شخصية ملوكها المتتابعين أن تكون لها السيادة الفعلية، فكانت ملاذ كل أمير صليبي حزبه أمر أو اعترضته مشكلة داخلية أو خارجية، لذلك فتاريخها في تلك الحقبة شديد التداخل في تاريخ الإمارات الأخرى، بل إنه يصعب الفصل بين تاريخها وبين تاريخ الولايات الصليبية الأخرى إلا في شيء من التعسف لا يستقيم ومنطق الحوادث، حتى إن وليم الصوري نفسه - الذي جعل حولياته تدور حول تلك المملكة - لم يستطع ذلك الفصل، لأنه بذلك الوضع يتر جزءاً حيوياً من تاريخها، والعلّة في هذا أنه كانت للملوكها سياسة تقليدية أملاها عليهم وضعهم السياسي والاجتماعي ومكانة البلد الدينية، ولم يخف ذلك على نور الدين، فلم يحاول الاحتكاك الجدي مع هذه المملكة، حتى لا يشير نائرة فرنيجة الشام أجمعين، وفي الوقت ذاته قد

يبعث أوربة—وربما الإمبراطورية البيزنطية أيضا— لإشهار حرب عليه ،
وحينذاك لا يستطيع لها دفعا أو منها تخلصا .

ولعل أهم ضروب الصراع التي كانت بين نور الدين ومملكة بيت المقدس—
وهو ما يكشف لنا عن تعادل قوى الفريقين — ذلك الصراع الذي طال
أمده حول حصن بانياس^(١) سنة ١١٥٧ ، وقت أن كان في يد الهنفرى الثانى
أصدق الناس لبلدوين الثالث .

لما رأى الهنفرى تطلع نور الدين لامتلاك البلد والحصن استعان بفرقة
من الاسبتارية الذين قاسموه نصف دخل البلد لقاء مساعدتهم إياه وذلك
بإشارة من بلدوين نفسه^(٢) ، وكان الحصن مركزا من مراكز الدفاع والهجوم
القوية ، حصين الموقع ، عزيزا على من يرومه^(٣) .

أقام الصليبيون فى قلعة «الصبيبة»^(٤) وتوالت الإمدادات عليهم بالذخائر
والمؤن ، وقدم منهم قرابة سبعمائة من أبطال الاسبتارية والسر جنديّة
والداوية سوى الرجالة ، فنهض إليهم الأمير نصره الدين أمير ميران أخو
نور الدين ،^(٥) ، وذلك يوم ٢٨ أبريل ١١٥٧ م (= ١٥ ربيع الأول
سنة ٥٥٢ هـ) ، وانتصر عليهم وسلبهم معظم ما معهم ، وأسر جماعة منهم قادم
إلى دمشق .

كان نور الدين مقبلا إذ ذاك ببعلبك ، وترامت إليه أخبار انتصار جماعته
وجماعة أسد الدين شيركوه ، وأدرك أنه لم يبق للدفاع عن بانياس سوى

(١) ترجع تسمية الحصن بهذا الاسم إلى وقوع دير اسمه Panium على مقربة منه ، راجع
Dussaud : Op. Cit. P. 391.

G.T., p. 837. (٢)

Rey . Les Colonies Françaises, p 473. (٣)

(٤) فيما يتعلق بالدور الذى لعبته هذه القلعة فى تاريخ الحروب الصليبية ، راجع
G. Demombynes : la Syrie, p. 179, note 5.

(٥) ابن الفلانسى ص ٣٣٨ — ٣٣٩ ، Gibb : Damascus Chronicle, p330, et note 1.
وأبو شامة ، كتاب الروضتين ص ٨٥ — ٨٦ وأتابكة الموصل لابن الأثير ص ٣٣٤ ، G.T., p.838

الهنفري، فقرر قصد بلدوين رغم عله بقوته ومنعة حصنه ، وتشبته به واستبساله في الدفاع عنه ، وعد هذا القصد جهادا يثاب عليه من يشترك فيه ، ورأى إلى جانب هذا أن يخرج إليه بما يتكافأ وما سيلقاه من المقاومة ، فجهز الجيش ، ونردى في البلد « في الغزاة والمجاهدين والأحداث والمتطوعة من فتيان البلد والغرباء بالتأهب والاستعداد لمجاهدة الإفرنج^(١) » ، وتقدمت سرية أسدالدين شيركوه ، فظنها الصليبيون في العدد القليل ، فباغتوها سنة ١١٥٧م ، لكن السرية تمكنت من التغلب على من خرج إليها في « هونين » ، ووصلت البشائر بذلك إلى نور الدين ، وتلى ذلك افتتاح مدينة بانياس بالسيف قهرآ ، وبذلك أصبح الهنفري وابنه سجينين في الحصن ، لا يملكان الاتصال بالعالم الخارجي ، وأحيط بهم من كل جانب ، واشتدت مضايقة نور الدين للحصن ، حتى خشى من فيه عليه^(٢) .

لما علم بلدوين بذلك رأى نجدة الهنفري حقا واجبا عليه ، ووصل إلى المكان على حين غفلة من المسلمين ، فاضطر نور الدين للابتعاد عن طريقه ، وبذلك تمكن ملك بيت المقدس من إنقاذ من في حصن بانياس من جماعات الصليبيين ، ودخل مدينة بانياس ذاتها ، فوجدها أطلالا خربة مهتمة ، فعز ذلك الإنقاذ على نور الدين ، ولا شك أنه قدر الخسارة التي منى بها من جراء امتناعه عن إعطاء الأمان الذي طلبه منه الهنفري ، فأباه عليه^(٣) .

عاد بلدوين الثالث إلى بيت المقدس بعد أن ظن أن الأمور قد استتبت وعادت المياه إلى مجاريها ، وانفصل عنه في الطريق كثير من الأشراف الذين رأوا أن مهمتهم قد انتهت ، فلما علم نور الدين بذلك رأى الفرصة سانحة لمباغطة بلدوين والشرذمة الضئيلين الذين معه ، وعلم أنهم قد

(١) ابن القلانسي ، شرحه ، ص ٣٤١ . Rey : Lee Familles d'outre-mer, p. 471.

(٢) الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ص ٢٣٣ — ٢٣٦ .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٤١ ، ولم يشر ولم الصوري إلى طلب أصحاب

بانياس الأمان ، وانظر أيضا Rey : Les Familles d' outre-mer, p. 471

نزلوا على « الملاحه » بين طبرية وبانياس ، وتقاتل الفريقان ، وترجل نور الدين وانعقد النصر له (١) . ويذكر ولیم الصوری أسماء جماعة من فرسان الصليبيين الذين وقعوا أسرى في يد صاحب دمشق ، منهم برتراند كبير فرسان المعبد ، وأخذوهم إلى دمشق ، وكان هذا بلا شك نصراً عظيماً للمسلمين ، حتى ليصف ابن القلانسی أسر هذا الرعيل الكريم من وجوه الصليبيين فيقول « أما المقدمون منهم ، وولاية المعاقل والأعمال فكل واحد منهم على فرس وعليه الزردية والخوذة وفي يده راية ، والرجال من السرجندية والدركولية كل ثلاثة أو أربعة أو أكثر أو أقل في جبل ، وخرج من أهل البلد الخلق الذي لا يحصى لهم عدد من الشيوخ والشبان والنسوان والصبيان (٢) .

ومع ذلك فقد تمكن بلديون الثالث من النجاة في جماعة لا تتجاوز أصابع اليدين ، وهرب إلى قلعة صفد واحتتم بها بضعة أيام ، لا يعلم أحد خبره ، حتى ليقول أحد المؤرخين المعاصرين (٣) « إن ملكهم — لعنهم الله — قيل في الهاربين . وقيل إنه في جملة القتلى ، ولم يعرف له خبر » وهذه العبارة هامة من ناحيتين . الأولى أنها تبين جهل المسلمين بمصير بلديون ، والثانية دلالتها الصريحة على أن ابن القلانسی كتبها في يوم مباشرة القتال ، ويشير

(١) G.T., p. 841.

(٢) ابن القلانسی، ذیل تاریخ دمشق من ٣٤١، والروضتين، ص ٩٠، Gibb : Damascus

843 — 842. G.T.p. 327. Ghronicle، وما قيل في وصف هذا اليوم :

مثل يوم الفرنج حين علمتهم	ذلة الأسر والبلاء والشقاء
وبراياتهم على العيس زفوا	بين ذل وحسرة وعناء
بعد عزهم وهيبة ذكر	في مصاف الحروب والهيجاء
هكذا هكذا هلاك الأعدى	عند شن الإغارة الشعواء

أنظر حبشي : الحرب الصليبية الأولى ، ص ١٠٠ .

(٣) ابن القلانسی : الذیل ، ص ٣٤٣ وفي 843 — 842 G. T. p.

الكاتب الصليبي وليم الصوري — هو الآخر — إلى ماترامى من الإرجاف في بلاد الصليبيين كهكا وبيت المقدس من الأخبار الباعثة على الخوف على مصير الملك ، والظاهر أن إقامته في صفد ثلاثة أيام ، وانقطاع كل خبر عنه ، كان من أكبر الدواعى إلى ذلك الإرجاف ، وإلى ما رآه ابن القلانسى من أنه عد الملك الصليبي بين القتلى .

وقد استطاع بلدوين — حين عجز التركان عن قص أثره — النجاة إلى عكا ، وفرح من بهافرحة شديدة للاثمندان عليه ، ولم يحاول وليم الصوري إخفاء هذا السرور ، مما يفصح عن الخطر العظيم الذى توقعه الصليبيون من جراء تلك الحملة ، فنجاة بلدوين الثالث من الأسر أو القتل نجاة صادقة للإمارات اللاتينية ذاتها ، إذ هو الأمير الذى انعقدت عليه آمالهم جميعا بعد تلك الضربات التى نزلت على بقية الأمراء الفرنجة وتحاذلهم على شتى الصور .

رأى نور الدين معاودة الكرة فى مهاجمة بانياس ، علته يستخلصه هذه المرة ، لا سيما وقد اطمأن باله من حيث قلة المدافعين عنه ، وظن أن بلدوين لن يقدم على إنجاده ، بعد أن كانت نجاته إحدى الأعاجيب . كان نور الدين مخطئا فيما ذهب ، إليه ، فلم يعد الدفاع عن بانياس دفاعا عن أحد الحصون القوية فحسب ، لكنه أصبح مسألة كرامة شخصية تهم جميع الأمراء ، كما تهم على الحصرص ملك بيت المقدس ، الذى دعى رينودى شاتيون ورايموند الثالث كرونت طرابلس فخرجوا بعساكرهم فاضطر نور الدين لرفع الحصار عن بانياس (١) .

كان خروج الصليبيين أيضا للاتصال بتبير الإلزابسى كونت فلاندر الذى قدم للبحر وأرسى فى بيروت ، وطمع بلدوين أن يتمكّن من التغلب على نور

(١) دقائق الصراع حول بانياس مذكورة بالتفصيل فى حوليات المؤرخ الصليبي وليم الصوري

G.T., p. 844 ، وإن سكّت عنها ابن القلانسى ومن أخذ عنه .

الدين من جراء توالى الزلازل ببلاد الشام ، وهدم كثير من المدن الشامية برمتها (١) ، واقتصر الصليبيون هذه الفرصة فأغاروا على حصن (٢) الروج Chastel Rugil ، وعملت الظروف على معاونة الصليبيين بقيام الشيعة في حلب باغتنام فرصة مرض نور الدين؛ وطلبوا من اخيه نصره الدين إعادة رسمهم في الأذان « حتى على خير العمل، محمد وعلى ، خير البشر» واضطربت الأحوال في البيئـة الاسلامـية .

رأى بلدوين الثالث اغتنام الفرصة من الاضطراب لتحقيق هدفه وهو القضاء أو الحد من قوة نور الدين الآخذة في الازدياد يوماً بعد يوم، فخرج بمجموعه سنة ٥٥٢هـ (١١٥٧م) قاصداً حصن شيزر ، وغرضه من ذلك قطع الطريق بين حلب ودمشق ، نظراً لوقوعها بين أفامية وحماة ، وكانت يد بني منقذ (٣) ، كما طمع الصليبيون أن يجدوا عوناً لهم من فئة الاسماعيلية الذين كانوا متمكنين من بعض نواحيها ، وكانوا شديدي الكراهية لسياسة نور الدين السنية ، غير أن ظنهم خاب . فعلى الرغم من تمكن بعض الصليبيين من بعض نواحيها وإعمالهم القتل والأسر والنهب ، إلا أن الاسماعيلية دافعوا بشدة (٤) . ولعل وليم الصوري — أهم مؤرخ صليبي لتلك الحملة

(١) راجع خبر هذه الزلازل بالتفصيل في ابن الفلانسى ، شرحه ، ص ٢٤٢ — ٣٤٧ ،

وكذلك الاعتبار لإسامة بن منقذ ، وكتاب الروضتين لأبى شامة ، ج ١ ص ١٠٦ من الطبعة المصرية ، ابن الجوزى : شذورالعقود في تاريخ العمود ، (تصوير شمسي بدارالكتب) ، ص ١٧٠ .

(٢) Van Berchem : Voyage en Syrie, p. 135 وراجع الدائرة مادة — Hisen

al-akrad وهذه القاعة الهامة تتسلط على طريقين رئيسيين أحدهما قادم من الشرق عبر طرابلس والآخر من حماة ، أضف إلى هذا أن حصن السكرك الذى تجمعت فيه القوات الصليبية وهو المواجه لمحصن يهدد المواصلات عبر الأراضي الإسلامية؛ أنظر ابن الفلانسى ، ص ٣٤٨ — ٣٤٩ وأبو شامة ص ٩٤ — ٩٥ Dussaud ٩٥ — 848 Rey ; Le Topographie de la Syrie, p. 91 — 92, 158, 176 G; G.T., p. 847— 848 Colonies Françaises, p. 350—363.

(٣) ابن الأثير : أنابكة الموصل ، ص ٢٠٠ والدائرة مادة شيزر Derenbourg : La vie d'Ousama, II, p. 276 — 281.

(٤) ابن الفلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٤٩ ، G.T., p. 849 — 850; Van

Berchem : Voyage en Syrie, p. 188.

يفصح لنا عن الاتفاقات التي جرت بين زعماء الحملة الصليبية بشأن شيزر ، ذلك أن بلدوين الثالث أراد أن يجعل شيزر من نصيب زوج أخته تير الإلزامي ، غير أن حمق رينودي شاتيون وسفاهته وعدم احترامه للقواعد الملوكية أفسدت خطة الملك. فقد طلب رينو من تير أن يقسم له عيّن الولاة ، وهو أمر تأباه نفس السكونت كل الآباء وصرح بذلك ، فاغتاز أمير أنطاكية ، وعد نفسه أرفع مكانة من مكانة كونت فلاندر ، وخيل إليه أن الناس قد نسوا ماضيه — إن كان له ماض ما — فها هو إلا أفأق مغامر ، وربما كان يكون له شيء من الاعتداد لو تقدم به الزمن نصف قرن فجاء مع الحملة الصليبية الأولى .

ولكنها العنجهية صوّرت له ما أوجب معه التشدد في مطلبه ، بما كان في صالح نور الدين ، فدبت الشحنة بين أشرف الحملة وقوادها على تلك المسألة الخطيرة السابقة لأوانها ، وبذلك أتيج من الزمن فرصة للسلطان المسلم ، استطاع خلالها أن ينقّه من مرضه ، وأن يعود لتدبير أمور الحرب ودفع الصليبيين .

عهد نور الدين إلى أحد قواده بالنهوض إلى شيزر واحتلالها ، فحقق القائد رغبة مولاه الذي زارها بعد ذلك ووجد تحصيناتها ، وولى عليها أخاه في الرضاة مجد الدين أبا بكر بن الداية ، وكان فئسل الصليبيين أمام شيزر أكبر ما استفاده نور الدين ، إذ ضم الإمارة الإسلامية الباقية بالشام إلى ملكه ، بعد أن أعجى ذلك عماد الدين بجد السيف^(١) .

أراد الصليبيون الاستعاضة عن ردهم عن شيزر باستلاب حصن حارم من يد عدوهم نور الدين ، وأخذوا في مضايقة الحامية المقيمة به وملكوه

(١) يورد ابن الأثير في السكامل ، ج ١١ ص ٩٨ ، ٩٩ قصة امتلاك نور الدين لشيزر ، وفيها يشير إلى أن نور الدين بلغه أن القائميين عليها يرأسلون الصليبيين ، فأثار ذلك العمل حنقه عليهم ولكنه كظم غيظه حتى تمهدت له الأسباب ، من جراء الزلازل التي حربت كثيراً من أرباضها .

بالسيف^(١)، وكان امتلاكهم الحصن دافعا لإياهم إلى شن الغارات على الأعمال الشامية، إذ أصبح لهم — بامتلاكهم حارم — حق التسلط على الإقليم الواقع شرقي نهر العاص .

اضطر بلدوين أن يعود على جناح السرعة إلى بيت المقدس ، نظراً لموت البطريرك فوشيه ، وخاف من تدخل أمه الملكة ، وماكاد يفرغ من اختيار البطريرك الجديد حتى عاد لمضايقة نور الدين في أملاكه ، مغتتما فرصة معاودة المرض لنور الدين^(٢) ، وأخذ في تجهيز سرية أغار بها على «داريا» وإقليم «بلان»^(٣) ، وشرع الصليبيون في النهب والسلب والأسر .

ما لبث نور الدين أن خرج بنفسه — بعد معافاته — إلى ناحية جسر الخشب فلقبه أسد الدين شيركوه قافلا من غزوته لصيدا .

التقى الملك العادل وهو في عسكره ومعداته ، بقائده أسد الدين ، وعورّلا على التوغل في أرض الصليبيين ، وفعلا وطأها نور الدين^(٤) ، فنهض إليه بلدوين وتير الإلزامي ، ورأى عاهلا المسيحية والاسلام في الشام أن الخير لهما في المودعة ، فلا يظأ أحدهما أرض الآخر ، وتمت بذلك المودعة .

(١) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٥٠ ، Gibb: Damascus Chronicle, p.344 حيث يشير إلى أن هذا الامتلاك وقع في أوائل الحرم ٥٥٣هـ أما ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ص ١٢٧ — ١٢٨ فيجعلها تحت سنة ٥٥٨هـ ، وهو خطأ واضح يدحضه تطور الحوادث وعودة بلدوين وزوج أخته إلى بيت القدس للاشتراك في انتخاب البطريرك الكاثوليكي الجديد . أنظر الأتابكة ، ص ١٩٤ ، G.T., p. 852-854 .

(٢) ابن القلانسي ، شرحه ، ص ٣٥١ .

(٣) تحديد هذا المكان وارد بالاسم في 1 note , p.345 : Gibb : أما ابن القلانسي فلم يسمه بغير « الإقليم »

(٤) ابن القلانسي ، شرحه ص ٣٥٢ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ٩٩ — ١٠٠ Dussaud : Topographie Historique, p. 82. حيث يذكر اسم المكان الذي التقوا عنده وهو « البطحاء » .

من هذا نرى أن نور الدين كان في جهاد دائم ضد الصليبيين ، القصد
منه استزاهم من معاقلهم التي على حدوده ، أو إضعاف قوتهم ، حتى لا يكونوا
خطراً يهدد أطرافه ، ولكنه لم يسع للقضاء التام عليهم ، خوفاً من أن
يؤلب ذلك أوربة والإمبراطورية البيزنطية عليه . أما علاقته بالدولة
البيزنطية فلم يحاول الالتحام الجدى بها ، سياسةً منه ، حتى يأمن خطرهما على
حدوده الشمالية .

الفصل الرابع

التنازع على مصر

بين السلطان نور الدين والملك أمورى

النزاع بين شاور وضرغام . المحاولات الصليبية لفتح مصر . حملة أمورى ١١٦٣ . استنجاد شاور بنور الدين وضرغام بأمورى . رجوع شاور في شروطه وتحالفه مع أمورى . حملة أمورى الثانية ١١٦٤ . الحملة النورية ١١٦٧ . حملة أمورى ١١٦٧ . وفشلها . الاتفاق بين رسل أمورى وبين العاضد . وقعة البابين ١١٦٧ تنازع الجانبين على الإسكندرية . تسليم شاور بمطالب أمورى . صليبيو مصر يحرضون أمورى على فتحها . زواج أمورى بنت أخى مانويل كومنين . التفكير في حملة بيزنطية صليبية على مصر . انفراد أمورى بالزحف . تخوف شاور من حملة أمورى ١١٦٨ . وقعة بليس . حرق القسطنطينية . حملة شيركوه واحتلالها مصر . مكيدة شاور ضد شيركوه . مقتل شاور . استوزار شيركوه للعاضد . موت شيركوه وتولى صلاح الدين . استعانة أمورى بالإمبراطورية البيزنطية . حصار ديباط ١١٦٩ . اضطراب أمور الصليبيين . أمورى يحاول إثارة المصريين ضد البيزنطيين . الهدنة مع المصريين . لإغارة صلاح الدين بأمر نور الدين على أملاك الصليبيين . العودة للاستعانة بالإمبراطورية البيزنطية . رحلة أمورى إلى بيزنطة . الخاتمة .

تحوّل النضال بين نور الدين والصليبيين من بعد سنة ١١٦١م^(١) إلى تنافس على مصر لأسباب معظمها خارج عن إرادة الطرفين، ذلك أن الدولة الفاطمية بدت في أواسط القرن الثاني عشر في دور الاحتضار^(٢) . ومن

(١) ذلك أنه في هذه السنة اغتتم بلدوين الثالث — كما يقرر اثنان من كبار مؤرخي الصليبيين — فرصة دور الضعف الذى تمر به الخلافة الفاطمية، واستطاع أن ينال وعداً، قطعت به مصر على نفسها قطيعة قدرها مائة وستون ألف دينار، راجع: Michel Le Syrien: Chroniques, t. III, p. 890 — 892

(٢) كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ، ص ٢٠ — ٢١، ٢٤ — ٢٦ : ٩٣، حافل =

علامات الاحتضار أن وزراءها أصبحوا من دون الخلفاء الفاطميين أصحاب السلطة الحقيقية، بل أولياء السكلمة العليا النافذة في اختيار الخلفاء، ومن أولئك شاور الذي صارت إليه الوزارة على غرار ما صارت إلى أسلافه من وزراء الدولة الفاطمية في عهدها الأخير، وكان الخليفة وقتذاك العاضد، وعمره لا يتجاوز التاسعة، فطمع شاور في الاستبداد بالحكم وبالخليفة معا، ولذلك خرج عليه القائد ضرغام بن عامر والى الصعيد، معتمداً على بغض أهل القاهرة للوزير المستبد، وتمكن بمعاوئتهم من التغلب عليه، وحمله على مشاركته في الحكم بالبلاد. إلا أن ضرغاماً سرعان ما استبد بالأمر هو الآخر، وسار سيرة حمقاء، فكانت مصر تسير كل يوم من سيء إلى أسوأ، وقد جهل أولئك المغامرون مقدار الخطر الذي تعرضت له مصر والدولة الفاطمية بسبب تلك الفتن والقلقل، مما أطمع فيها كلام من أموري ونور الدين.

لم يكن أموري جديد الاتصال بمصر، فقد تولى زمن أخيه بلدوين الثالث حكم عسقلان، واتجهت همته منذ ذلك الحين إلى التوسع في الجنوب، فلما آلت إليه مملكة بيت المقدس سنة ١١٦٢، وحمل اللواء بعد بلدوين الثالث رأى تحقيق سياسته بفتح مصر. على أن أموري لم يكن في تفكيره في الحملة على مصر بالناهج نهجاً جديداً، بل كان يسير وفق خطة صليبية قديمة^(١)، من دلائها دأب الصليبيين على فتح البلاد الجنوبية، التي كان آخرها

== بالصور القلمية العجيبة عن مدى التدهور الاجتماعي والحلقي الذي نكبت به الدولة الفاطمية في ختام أيامها؛ وقد ساءم أسامة نفسه في كثير من حوادث تلك الحقبة، أنظر أيضاً السكالم لابن الأثير، ج ١١، ص ٦٣، ٨٣، والنجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٣٦٤ : *Derenbourg* La Vie d'Ousama, t. II, P. 241 — 245 ; G. T., P. 833

(١) لعل أول محاولة صليبية لاحتلال مصر هي التي قام بها بلدوين الأول، وقد مهد لذلك باحتلال أرسوف، وكانت تابعة لمصر، بمساعدة جماعة من الجنوئين البحرين سنة ١١١٠ م. (١٤٩٤ هـ) راجع : Heyd : *Hist. du Commerce*, t. I, P. 136. p. كما فضي على صور، فلما ==

عسقلان . وقد أعد أموري العدة لغزو مصر سنة ١١٦٣ م ، متذرعاً بأن الدولة الفاطمية قد منعت عن مملكة بيت المقدس جزية كانت قد قطعها على نفسها لبلدوين الثالث منذ سنة ١١٦١ ، وقدرها مائة وستون ألف دينار سورية^(١) . مع أنه ليس يوجد بالمراجع ما ينبئ بدفع تلك الجزية ، بل إن سكوت الكتاب جميعهم — إلا القليل — عن الإشارة إليها مما يؤدي أنها لم تكن سوى مال تعهد به أحد وزراء الدولة الفاطمية للملك بلدوين الثالث لأمر لا يزال غامضاً ، إلا أن أموري أصر على طلب تلك « الجزية » رغم وفاة بلدوين . وأعلن أن حملته ليست إلا لإرغام مصر على العودة إلى دفعها ، وكان يعلم تمام العلم أن ضعف البلد وتنافس أربابه على السلطة لا يلبث أن يؤدي إلى تحقيق مطالبه كاملة . وكيف كان الأمر فقد خرج أموري بجيشه أول سبتمبر ١١٦٣ ، والتقى بالجيش الفاطمي بقيادة ضرغام ، فهزمه عند أطراف مديرية الشرقية الحالية ، ثم تابع سيره إلى بليديس فحاصرها ، ولم يرتد عنها إلا لفيفضان النيل^(٢) . ثم كتب أموري إلى لويس السابع ملك فرنسا يذكر له مبلغ تقدم الجيش الصليبي في مصر ، ويطلب منه النجدة لإتمام فتحها لخدمة المصالح الصليبية^(٣) .

== كانت سنة ١١١٦ نهض بلدوين بحملة بلغ بها « آيلة » على البحر الأحمر ، ففر أهلها عنها مذعورين ، وعمل الصليبيون على تحصين جزيرة فرعون المعروفة « بقرية » ، يريدون من وراء ذلك السيطرة على طريق القوافل بين مصر وبلاد الشام . وفي مارس ١١١٨ فاجأ بلدوين الفرما وأصاب منها غنيمة وافرة ، ثم واصل الزحف إلى العريش ففتح البلاد المصرية . راجع في ذلك النجوم الزاهرة ، ج ٢ ص ٢٩٤ — ٢٩٥ ، والكامل لابن الأثير (طبعة أوربة) ص ٤٣١٤ G.T., p. 499 — 507 ; Albert d'Aix, p. 783 — 705 ; Stevenson : Crusaders in the East, p. 66 ; Chabot, p. 496 ; Lane — Poole : Hisi. of Egypt in the Middle Ages, p. 41.

Schlumberger : Les Compagnes du Roi Amaury en Egypte, P 38, notes (١)

1 et 26 ويظهر من كلام Stevenson : Op. Cit., P. 186 شكه في وجود تلك الضريبة

(٢) Schlumberger : Op. Cit., P. 48 ; Lane-Poole : Saladin, p. 81.

Schlumberger . Op. Cit. P. 41 — 42. (٣)

لم تتم عين نور الدين عن ذلك كله ، بل إنه انتهز فرصة مغامرة أمورى وأراد إفساد تلك المغامرة ، فأغار على حصن حارم ، وأمورى لا يزال بمصر ، ثم ما لبث أن انكشف عنه صلحا^(١) ، ثم عاد فهاجم حصن الأكراد^(٢) ، ولم يقبل موادعة الصليبيين ، وذلك أنه خشى إن تمت الموادعة أن يرى الصليبيون كل شيء أمامهم ميسرا لفتح مصر ، فألى أن يجعلهم في خوف مقيم منه ، فلا يقدمون على مشروعهم الخطير ، وليجعل لمصر - من ناحية أخرى - أملا في الاستعانة به أن حزبا الأمر . وكان نور الدين هنا يقصد أن ينتفع من انصراف الصليبيين عنه بمصر ، ليكمل هو بعض خطته بالشام .

ثم ما لبثت الأمور أن تعقدت بمصر من جراء النزاع بين الوزير شاور وبين القائد ضرغام ، فهرب شاور إلى دمشق في أكتوبر سنة ١١٦٣م^(٣) (ذو القعدة ٥٥٨ هـ) ، وتوسل إلى نور الدين أن ينفذ حملة إلى مصر عساها ترده إلى ما كان فيه ، وطبعى أن يرحب سلطان دمشق بتلك الفرصة للتدخل في شئون مصر كمنقذ للإسلام والمسلمين من الخطر الصليبي ، بعد أن وضحت له أغراض أمورى . ولقد تعهد شاور لنور الدين مقابل مساعدته بثلاث دخل بيت المال الفاطمى سنويا ، بعد دفع رواتب الجنود وأن يكون للوالى نور الدين حقه في مصر^(٤) ، بل ذهب شاور أبعد من ذلك حين تعهد بأن يحكم البلد وفق أوامر سلطان دمشق ، ولم تكن هذه أول مرة تستصرخ فيها

(١) ابن الأثير : الأتابكة ، ص ٢٠٧ ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١٢٩ - ١٣٠ ،

Van Berchem : Voyage en Syrie, P. 233.

Chalandon : Comnènes, t. II, p. 525, note 2; Rey : Colonies Franques (٢)

en Syrie, p. 363; Stevenson : op. cit. p. 188- 189; Huart : Hist. des Arabes, p. 28.

والمروستين لأنى شامة ، ج ١ ص ١٣٣ ، ١٦٧ ، ومن الطبعة الأوربية ، ص

١٠٩ ، ١٢٥

(٣) Stevenson : op. cit. p. 186, notes 1 et 2 "Shawar" مادة

(٤) الكامل ، ج ١١ ، ص ١٣٣ ، وأتابكة الموصل ، ص ٢١٥ - ٢١٦ ، وكتب

المروستين ، ص ١٠٧ .

مصر بنور الدين ، فقد سبق لها ذلك حين أنفذ ابن السلار الأمير أسامة ابن منقذ في سفارة إليه ^(١) .

غير أن نور الدين تظاهر بعدم المبالاة ، وتمهل في قبول الشروط حتى يتدبر الموقف . ولعله فعل ذلك حتى يزن الأمور ، ويرى مقدار قوة خصمه في مصر ، أما أنه كان عازفا عن التدخل فقول مردود لا يميزه منطلق الحوادث وتتابع الأحداث ^(٢) ، والعهد غير بعيد بموقف صديقه أسامة في محاولته التضريب بين الوزير عباس الصنهاجى والخليفة الفاطمى ، ومحاولاته إثارة العباس بكلمات جارحة ينال بها من شرفه ، وإنما كان نور الدين رجلا سياسيا ، لا يجب أن يظهر أمام الملأ بالطامع في مصر ، الراغب في امتلاكها ، أو المتطلع لإطاحة الخلافة الشيعية ، ولقد أشار البعض ^(٣) إلى هذا التردد عند نور الدين من أنه « كان يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، تارة يحمله رعاية قصد شاوور وطلب الزيادة في الملك والتقوى على الإفرنج ، وتارة يمنعه خطر الطريق ، وكون الأفرنج فيه إلا أن يوغلوا في البر فيتعرضوا لخطر آخر ، كذلك يزعم مؤرخوه أنه استخار القرآن واستفتحه فتأهب للفتح ، فأنفذ مع شاوور حملة بقيادة أسد الدين شيركوه ، الذى كان يعمل دائما على إغراء مولاة على فتحها ، ولعله هو الآخر كان يرى لأن تكون مصر من نصيبه ، فيستعمله نور الدين واليا عليها .

أدرك ضرغام الأقبلي قبل له بدفع جيش دمشق الناهض مع عدوه شاوور في إبريل ١١٦٤ ، وأدرك إلى جانب ذلك أن انتصار خصمه معناه زحزحته عما يديه ، وربما أدى ذلك إلى هلكه وهلك من حوله ، والحوطة على أملاكهم ، لذلك كاتب أمورى لعله بشدة تلهفه هو الآخر لفتح مصر ، ووعدده بدفع

(١) الدكتور حسن ابراهيم : الفاطميون في مصر ، ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

(٢) راجع الاعتبار ، ص ١٩ - ٢٠ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروستين ص ١٠٧ . Stevenson: Crusaders in the East, p. 187.

جزيرة سنوية . فبادر ملك بيت المقدس وأعدَّ جيشاً لمساعدة ضرغام^(١) ، غير أن نجدهت إياه جاءت متأخرة ، إذ كان الجيش النورى قد جاوز الصحراء ، وهزم الجيش الفاطمى بقيادة نصر الدين أخى ضرغام فى تل بسطة قرب الرقازيق الحالية فى مايو سنة ١١٦٤ ، كما حاول ضرغام نفسه الفرار ، فمات مقتولاً عند مشهد السيدة نفيسة ، بعد أن حاول إثارة القاهرة إلى مقاومة أخيرة ضد شيركوه ، وبذلك خلا الجو لشاور ، ولم تقم حملة أمورى بشىء ما ، بل عدت تلك السنة نقطة انتقال فى التاريخ ، لأنها السنة التى اتخذت فيها أول خطوة لتوحيد مصر وبلاد الشام^(٢) .

لكن الجو خلا لشاور ليعاود صراعاً جديداً مع نائب سيده الجديد ، إذ أراد الرجوع فى عهده لنور الدين ، وأبى أن يدفع لعسكر دمشق القطيعة المتفق عليها ، وطلب إلى القائد شيركوه العودة إلى الشام ، وهدده بماسيكون من أمره إذا أصر على البقاء ، وذلك بعد أن اطمأن إلى عدم وجود منافس له — كضرغام — قد ينضم إلى شيركوه ضده ، كما حشد المتظاهرين يهتفون له بشوارع القاهرة^(٣) . غير أن شيركوه لم يكن من أولئك الذين ينزلون عما يصلون إليه لمجرد التهديد ، بل كان لديه كل ما يغريه بالبقاء فى مصر « حلوبة بيت المال^(٤) » على قول أبى شامة ، بل يذهب أبو شامة إلى أبعد من ذلك فيقول إن شيركوه صار فى قلبه الداء الدوى من مصر والدولة الفاطمية ، أى أنه طمع فى احتلالها ، وفى إزالة حكم الفاطميين عنها ، واستخلاصها منهم .

G.T., p. 892. (١)

Stevenson : op. cit. p. 186. (٢)

(٣) كان من الهفافات التى نادى بها المتظاهرون قول الشاعر فيه :

شجر الحديد من الحديد وشاور فى نصر آل محمد لم يضجر
حلف الزمان ليأتين بمثله حثت يمينك يا زمان فكفر

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٣٤ ، ١٣٩ ، ١٤٤ .

لذلك عسكر شيركوه في بلبليس وأقام نفسه حاكماً للشرقية، فلما^(١) رأى شاور الإصرار من ناحية قائد العسكر النورى، وأنه لا قبل له بدفعه عما اعتزمه، لم يجد بداً من أن يطرق بدوره باب أمورى، واعدأ إياه بأكثر مما وعد به ضرغام من قبل^(٢). وعقد أمورى مؤتمراً ببیت المقدس جمع وجوه الصليبيين^(٣)، وقرر المؤتمر أن يستجيب ملك بيت المقدس لدعوة شاور لا للمال فحسب، ولا لاثراء مصر الفاحش^(٤)، بل كى لا تقع مصر فريسة في يدي نور الدين، فتطبق جيوشه على الإمارات اللاتينية من الشمال والجنوب، واستولى هذا الخاطر على أمورى، فلم يعبأ بمسير سلطان دمشق لأطراف مملكته في تلك السنة « لعله أن الخطر في مقامه إذا ملك أسد الدين مصر^(٥) » وخرج أمورى بجيش كثيف صوب مصر في مايو ١١٦٤، وانضم إليه فريق من الحجاج الأوربيين القادمين لزيارة بيت المقدس، فكانت هذه حملة صليبية، وإن لم تحمل في تاريخ مشلاتها رقماً عددياً.

غير أن أمورى لم يشأ أن يتناول أجره مؤخرآ، فأخذ يتسلم من شاور في كل مرحلة يقطعها ألف دينار، فبلغ ما تسلمه سبعة وعشرين ألفاً^(٦) حين أصبح على مقربة من « فقوس »، أى فاقوس الحالية بمديرية الشرقية، وأخذ شيركوه يحصن معسكره في بلبليس استعداداً لمقاومة ذلك الخطر الدانى منه يوماً بعد يوم، وساعده عرب كنانة النازلون في تلك الناحية^(٧)

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ١١ ص ١٣٤، والأتابكة، ص ٢١٦ — ٢١٧، وراجع ما كتبه فيبت في الدائرة، مادة "Al - Sharkiya"

(٢) الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ١٣٤، G.T., p. 948

(٣) Ibid. loc. cit.

(٤) Heyd : Hist. de Commerce du Levant, t. I, p. 378 — 379.

(٥) ابن الأثير : الكامل، ج ١١ ص ١٣٤، وأبو شامة، ص ١٢٥.

(٦) كتاب الروضتين ٤ ص ١٢٥، وانظر تفاصيل هذه الحملة وأخير سيرها في

Schlumberger : Les Campagnes du roi Amaury, p. 63 — 80.

(٧) الدائرة، مادة « كنانة ».

مسانعة كبيرة بالمال والسلاح . أما شاور فقد مضى لمقابلة حليفه الصليبي لتنسيق الخطط معه ضد شيركوه ، وما لبث شيركوه أن وجد نفسه محوياً ببليس ، غير أنه قاوم مقاومة عنيفة على الرغم من ضعف استعداداته ، وقلة تحصينات بليس ، بالنسبة لما كان عليه أعداؤه من قوة المؤونة ، وكثرة العدد ، وقوة التحصين . وهنا داخل اليأس نفس أمورى بعد أن امتدت مقاومة شيركوه إلى ثلاثة أشهر (من أغسطس إلى أكتوبر ١١٦٤) ، لا سيما أنه قد تراسل إلى سمعه أيضاً أن نور الدين هاجم بانياس ، وانتصر على قلعتها^(١) . وكيفما كان الأمر فقد عزم أمورى على العودة إلى فلسطين ، إلا أن شاوراً التمس منه البقاء ، وكتب في الوقت ذاته شيركوه يطلب إليه الصلح ، مما يدل على تقلبه ، فلم يجد أمورى بدأ في النهاية من الاتفاق مع شيركوه ، على أن يغادر كل منهما أرض مصر ويتركاها للبصريين ، فغادرها شيركوه ، وتبعه أمورى في أكتوبر ١١٦٤^(٣) .

هنا تبدو ناحية تميظ اللثام عن الفرقة السائدة في الرأى بين الخليفة الفاطمى وبين وزيره شاور ، الذى لاشك أنه قد فرض نفسه على الحياة المصرية فرضا ، حتى لقد نظم عمارة اليمنى — شاعر القصر الفاطمى وصاحب المدائح الكثر فى شاور^(٣) — شعراً يمدح فيه أسد الدين شيركوه بعد مغادرته مصر ، واصفاً فيه بطولة الجيش النورى^(٤) . وعلى أية حال فمن الممكن أن يعد خروج الصليبيين والجيش النورى من مصر نصراً لشاور

(١) كتاب الروضين ، ص ١٦٧ .

(٢) Lane — Poole : Saladin , p. 81 .

(٣) Derenbourg : Oumara de Yemen , t. II , Part 2 , p. 424 .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٣٥ ، وأبو شامة : كتاب الروضين ،

ج ٤١ ، ص ١٥٨ ، ومما قاله فيه :

أخذتم على الأفرنج كل ثنية
وقلم لأيدى الخيل مرى على مرى
لئن نصبوا فى البر جسراً فإنكم
عبرتم بحر من حديد على الجسر

ولسكنه نصر موقوت ، ولو كان هذا الوزير رجلا بعيد النظر لأدرك أن كلا منهما اضطر إلى تلك المغادرة اضطراراً ، ولا عجب إذا أخذ كلاهما يلتمس الأسباب للرجوع إلى مصر . أما نور الدين فقد رأى أن يجعل من حربه على مصر جهاداً دينياً ، فهو بفتحه إياها — كما يزعم — إنما يحارب عدوين للإسلام ، أحدهما الخلافة الفاطمية وثانيهما الصليبيون ، وبذلك ينقذ الإسلام وهذا البلد — كما يدعى — من الفوضى السياسية وغيرها . كما يلاحظ أن الخليفة العباسي بعث إليه من قبل عهداً بالسلطنة ، وأمره بالمسير إلى مصر^(١) . ولذا يم نور الدين وجهه نحو بغداد ، وبعث إلى الخليفة العباسي يطلب منه أن يأذن له بإخراج جنده لقهر جيوش الدولة الفاطمية . ومن العجيب ألا يذكر ابن الأثير — وهو السني المتعصب لنور الدين — خبر هذه الوفادة إنما يشير فقط إلى وصول جواب الخليفة بالتهوض بالحملة ، ولكنها وردت بالتفصيل عند وليم الصوري^(٢) ، وليس من المستبعد وقوع هذه السفارة^(٣) ، لاسيما إذا علمنا أنه كان على رأسها أسد الدين شيركوه ، خصوصاً وأن ابن الأثير وأبا شامة يشيران إلى حرصه على قصدها وكثرة تحذره عنها بعد عودته منها ، بل إن ابن الأثير نفسه يشير إلى أن نور الدين كان كارها لهذا المسير ، ولم يوافق على خطته إلا بعدلأى «خوفاً من حادث يتجدد عليهم فيضعف الإسلام» ، وإذن فليس من المستبعد أن يكون أسد الدين قد سافر إلى بغداد ، حتى يضع مولاه نور الدين أمام الأمر الواقع ، زد على هذا أنه كان يعرف من أين تؤكل الكتف ، فلا عجب أن ينهض نور الدين للحرب إن سميت جهاداً .

لذا خرجت الحملة النورية الثانية على مصر في مستهل عام ١١٦٧ ، وحاولت

(١) أنظر الكامل (طبعة أوربة) ص ٥٥٧ .

(٢) G.T., P. 902 — 903 .

(٣) G.T., p. 908 ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٥ .

(٤) أبو شامة : الروضتين ، ص ١٣٤ ، ١٣٩ ، ١٤٤ .

تجنب عبور بلاد الصليبيين ، فوصلت - وهي في ألقي فارس بقيادة شيركوه - صحراء التيه ، متحملة شدة العواصف الرملية التي أرغمت الجند مراراً على إغماض أعينهم وسد أفواههم^(١) . ثم وصل شيركوه مصر ، وتقدم حتى صار على مقربة من العاصمة ، لكنه أحجم عن مهاجمتها ، بل عسكر عند أطفيج جنوبيها ، ومن هناك عبر النيل ، وعسكر في الجزيرة مقابل الفسطاط^(٢) .

لم يكد شاور يعلم بخبر الحملة النورية الثانية وزحفها نحو مصر حتى أرسل إلى أمورى يستحثه على القدوم لنجدته ، فما كان من أمورى إلا أن عقد مجلساً في نابلس^(٣) ، حضره أشرف الصليبيين في الشام ومقدموهم ، وعرض عليهم ما يهدد إماراتهم من الخطر الجسيم إن وقعت مصر في يدي الجيش النورى ، ولم يكونوا في حاجة لمن يذكرهم بهذا الخطر الدائم ، فوافقوه على النهوض للحرب^(٤) ، لعله يلقي شركوه قبل أن يبلغ الحدود المصرية . وغادر أمورى فلسطين على رأس جيش كبير في إثر الجيش النورى ، وفي أمله أن يلحقه في بعض الطريق ، لكن خاب ما أمل ، إذ كان شيركوه قد غادر صحراء التيه ، فاضطر أمورى للعودة إلى بيت المقدس آتياً من جديد لحمته الكبرى على مصر . ثم أخذ أمورى يُسعد في عسقلان كل ماتحتاجه الحملة على مصر ، فلما كان يوم ٣٠ يناير سنة ١١٦٧ م ، خرجت الحملة من غزة إلى العريش ، ودخلت أرض مصر وأدركت بلييس ، فقويت نفس شاور بالصليبيين الذين جاءوه على الصعب والذلول ، غير ناظر إلى ما سيترتب على ذلك القدوم من ثمن غال ، قد يكلفه استقلال مصر ، وهو ما لا يهتم به أبداً ، ما دام في ذلك احتفاظه بكرسى الوزارة ،

(١) G.T., p. 910 ، ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٥ .

(٢) ابن الأثير : الأتابكة ، ص ٢٣٦ .

(٣) الكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٥ ، Schlumberger : Les G.T., p. 904 ،

Campagnes du roi Amaury p. 104, note 2

G.T., p 904 . (٤)

وإظهار سيطرته وتحكمه ، وإرضاء شهوة العظمة الجوفاء في نفسه الفارغة ،
وسر شارو بهذه النجدة ، وخرج لاستقبال الصليبيين ، ودلّهم على الطريق
إلى القاهرة ، حيث عسكروا على شاطئ النيل الأيمن قبالة شيركوه ، وهكذا
وقف الطامعان الأجنيبان وجهاً لوجه ، وكل منهما على مرأى البصر من
عدوه ، لا يفصلهما سوى الماء .

غير أن كلا من أموري وشاور كان يشك في نوايا صاحبه حياله
ويخشى أن يغدر به ، فطلب أموري أن يتعهد شاور بدفع أربعمائة ألف دينار ،
ثمنا لمجيئه لإخراج شيركوه من مصر ، وأصرّ على أخذ نصف هذا المبلغ
مقدماً ، فقبل شاور هذا الطلب على شرط ألا يغادر أموري مصر قبل
إتمامه إخراج شيركوه منها . واتفقوا على هذه الاتفاقية أرسل أموري مندوبين
من قبله إلى الخليفة الفاطمي العاضد ، وهما هيج القيصري وجود فروى فولخر
من فرسان الداوية ؛ وقد ذكر هذان المبعوثان لوليم الصوري ما شاهداه
من أهبة القصر الخلفي أهبة لا تليق إلا بملوك مصر ، ولا تتوفر إلا في قصور
ملوك مصر العظام ، وما أبصرها من مناظر لم ير الغرب لها مثيلاً وإنما
علم بها سماعاً^(١) . وأفضى الخليفة بالخطر الذي يهدد مصر إن تمكن الأمر
لشيركوه ، وكان يرى أن خليفة بغداد قد بعثته الكراهية الشديدة للخلافة
الشيوعية المصرية إلى إنفاذ هذه الحملة ، ثم أقسم رجال كلا الفريقين الأيمان
المغلظة على تأييد صاحبه ومعاونته^(٢) .

لم تكن للخليفة الفاطمي يد فيما تم من الاتفاق ، ولعله كان يئن من وطأة
استبداد وزيره شاور وتفرده بالأمر رغم مظاهر الاحترام التي كان يبديها
شاور له أمام رسولى أموري ، إيهاما لهما بأهمية الأمر . وعلى كل حال فقد
أدرك شيركوه أن الصليبيين والفاطميين جادون هذه المرة ، وأدرك هو

G.T., p. 910 — 913. (١)

Schlumberger : op. cit. p. 116 — 127. (٢)

وكثيرون ممن معه ضعفهم إزاء الحليفين ، والدليل على ذلك أنه جمع زعماء
رجاله - وقد خاف أن تهن نفوسهم عن القتال - واستعرض معهم الموقف
من جميع نواحيه ، وطلب منهم الرأي ، فأجمع القوم على وجوب المبادرة
بالرحيل إلى الشام ^(١) . غير أنه يبدو أن شيركوه لم يجمع أولئك الزعماء إلا
ليحصل منهم على مرافقته على القتال ، إذ يظهر أنه دس جماعة بينهم من ذوى
المكانة والصوت الجمهوري ، سفّته رأى الداعين إلى الرحيل ، « إذ من
يخاف القتل والأسر لا يخدم الملوك بل يكون في بيته مع امرأته » وخوفهم
من أن يسترجع نور الدين منهم إقطاعاتهم وجامكياتهم « حتى لا يأخذوا
أموال المسلمين ويفرون عن عدوهم » ويعيرهم بتسليمهم مصر إلى الصليبيين ^(٢)
فما لبث القوم أن أجمعوا على وجوب الاستمرار في القتال ، ثم بعث شيركوه
إلى شاور كتاباً يعرض عليه أن يكونا يداً واحدة في مناهضة أموري والقضاء
على الصليبيين ^(٣) ، فرد شاور رداً لحنته الجهل ، وسداه الغلظة والفظاظة ،
وأظهر منتهى الفساد في الرأي ، إذ قتل رسول شيركوه ، وأعلم الصليبيين بما
يريده أسد الدين منه ^(٤) .

أما أموري فإنه أقام جسراً من المراكب وجذوع النخيل على النيل

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٤٥ - ١٤٦ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٤٦ .

(٣) أورد أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٢٩ - ١٣٠ ، من طبعة أوربة ، ج ١
ص ١٦٨ من الطبعة المصرية ، نص خطاب شيركوه وفيه يقول له « أنا أحلف لك بالله الذي
لا إله إلا هو ، وبكل يمين يثق بها المسلم من أخيه ، أنني لا أقيم ببلاد مصر ، ولا أعاود إليها
أبداً ، ولا أمكن أحداً من التعرض إليها ، ومن عارضك فيها كت معك إلها عليه ، وما أوئل
منك إلا نصر الإسلام فقط ، وهو أن العدو وقد حصل بهذه البلاد والنجدة عنه بعيدة ،
وخلصه عسر ، وأريد منك أن تجتمع أنا وأنت عليه . و تنتهز فيه الفرصة التي قد أمكنت ،
والغنيمة التي قد كتبت ، فنستأصل شأفته ، ونحمد نائرتي ، وما أظن به يعود ، ويتفق للإسلام
مثل هذه الغنيمة أبداً » .

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٦٨ .

ما بين الجزيرة والروضة ، ليحبر عليه هو وجنده إلى حيث شيركوه وفرسانه (١) ، فكان أول جسر يقام بين الجزيرة والروضة ، وفهم أسد الدين ما يرمى إليه الصليبيون من عملهم هذا ، فتركهم يقيمون الجسر ، حتى إذا توسطوا النهر أخذ ينصحبهم بالنبال والسهم والقسي ، فارتد الصليبيون ، وطال بقاء الفريقين أمام بعضهما مدة شهرين ، نقصت خلالها الأوقات عند جيش شيركوه نقصا ملحوسا .

ثم وصل إلى الصليبيين إذ ذاك مدد من بلادهم على رأسه الهنفرى صاحب شقيف تيرون ، وفيليب النابلسى ، فقويت بهما وبمن معهما عزيمة جيش أمورى ، وعند ذلك عقد ملك بيت المقدس مجلساً حريياً ، ألح فيه على المجتمعين بوجوب عبور النيل ، إذ لا معنى لطول بقائهم حيث هم ، في الوقت الذى لا يبعد أن يغتتمه نور الدين للعيث في أطراف الإمارات اللاتينية (٢) ، فأيد المؤتمرون الفكرة من حيث المبدأ ، ولكنهم اختلفوا من حيث الجهة التى يعبرون النيل عندها . ثم لم يكد الصليبيون يتوسطون النهر ليلاً (٣) حتى هبت عاصفة هوجاء أرغمتهم على الالتجاء إلى إحدى الجزر (٤) ، ولعلها جزيرة «الوراق» الواقعة جنوبي كوبرى عباس الحالى . أما شيركوه فما كاد يعلم بتلك الحركة حتى رحل بجنده تحت جناح الظلام من القسطنطينية ، صاعداً فى النيل إلى الصعيد ، وكان المدد قد جاءه هو الآخر من عند نور الدين .

ولقد أغذ شيركوه السير بجيشه جنوباً حتى بلغ ملوى ، حيث أدركه

(١) G.T., p. 918 — 919.

(٢) Ibid., loc. cit. ، وأبو شامة ، شرحه ، ص ١٣٠ .

(٣) كانت القيادة فى هذا الجمع البحرى لهيج الإبلينى والسكامل بن شاور ، ولقد كان المتحالفان يتقاسمان القيادة دائماً فى كل شىء ، من ذلك أنهم حينما دخلوا القاهرة بعد رحيل شيركوه عنها إلى الوجه القبلى ، وكلت حراسة أبوابها وأسوارها وحصونها إلى جيراردى بوجى وأحد أبناء شاور ، راجع C. T., p. 920

(٤) Ibid., op. cit. loc. cit.

مورى وشاور بفريق كبير من الصليبيين والفاطميين ، وما كان شاور في الحقيقة إلا كلاً على حليفه ملك بيت المقدس . وجرى المصاف بين الفريقين عند «البابين»^(١) يوم ١٨ أبريل ١١٦٧ م^(٢) ، وكان القوم في الصعيد ينظرون إلى أسد الدين بعين الخذر . ومع علم شيركوه باستيحاء المصريين منه ، إلا أنه أصر على مقاتلة الجيوش المتحالفة . فقسم جيشه في تلك الواقعة إلى ميمنة وميسرة وقلب ، وجعل الأثقال في القلب وعليه صلاح الدين ابن أخيه ، وأمره أن لا يصدقهم في القتال ، بل يتظاهر بالانهزام حتى يغتر أمورى فيتبعه ، وأما أسد الدين فقد اختار جماعة ممن يثق بصدق عزيمتهم وصبرهم في اللقاء ووقف بهم في الميمنة ، والتحم الحصان ، وكر الصليبيون على قلب العسكر النورى ، وصلاح الدين يتقهقر متظاهراً بالهزيمة ، حتى قام شيركوه بمهاجمة من تخلف من عسكر الصليبيين وشاور ، وأسر العدو الجهم ، ففر الباقيون على وجوههم ، فكان هذا من «عجب ما يؤرخ ، أن ألقي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل»^(٣) .

ويذكر ولیم الصورى أسباب هزيمة الصليبيين عند البابين ، فيرى أن أمورى حمل على قلب الجيش النورى اعتقاداً منه بوجود شيركوه فيه ، وإذا ذلك حملت ميمنة شيركوه على ميسرة المتحالفين ، فأصابتهم بما يتفوق في تفاصيله مع الرواية الإسلامية ، وأصابته غنيمة كبيرة لم تجد في الاستيلاء عليها

(١) Derenbourg : op. cit., p. 311, note 6

(٢) التاريخ العربى مختلف فى المراجع العربية ، راجع السكامل لابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٤٥ ، والأتابكة ، ص ١٣٧ ، الذهبى : تاريخ الإسلام ، ص ٢٣٧ وأنظر أيضاً

Schlumberger : op. cit. p. 136, note 3 d'après Rohricht ; G.T., p. 921.

(٣) ابن الأثير ، السكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٦ ، أتابكة الموصل ، ص ٢٣٨ — ٢٣٩ ،

أبو شامة ، كتاب الروضتين ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٤٩ ، وحاشية رقم ١ فى نفس الصفحة ، الذهبى ، ص ٢٣٦ ، درر التيجان ، ص ٣٦٧ ، والدكتور حسن

إبراهيم ، الفاطميون فى مصر ، ص ٣٠٤ ، Schlumberger : Les , C. T., p. 926 — 927.

Campagnes du roi Amaury en Egypte, p. 142 — 143.

أدنى مقاومة ، بعد أن قضت على الكثيرين قتلا وأسرا ، ولم ينج إلا أموري ، فكانت نجاته إحدى المعجزات (١) .

ثم رحل شيركوه إلى الإسكندرية عقب هزيمة الصليبيين في موقعة البابين ، ويرى البعض أنه لو ساق خلفهم صوب القاهرة لملكها منهم (٢) ، والظاهر أن أهل الإسكندرية أنفوا من شاور واستعانت به بأعداء دينهم ووطنهم ، فكتبوا أسد الدين ، وبعثوا إليه برسالة حملها إليه رجل اسمه الإدريسي (٣) يخبرونه فيها « أن السلاح واصل » ، ثم وصلت بعد ذلك بيومين « خزانة من السلاح » ، وأخذ شيركوه في مناوشة الصليبيين ومناهضتهم وإزعاجهم ، وجرت بينه وبينهم وقائع كاد أموري في إحداها أن يذهب ضحية الأسر . ولم يدر بخلد الصليبيين وشاور أن شيركوه سيقصد الإسكندرية ، بل كانا بالقاهرة ينتظران مقدمه لمبادرته بالقتال ، على حين كان هو إذ ذاك يحاصر الإسكندرية . ومن المبالغة أن نسمى وقوف شيركوه أمامها حصاراً لها ، إذ كان أهلها أكره الناس لمصافة الصليبيين ، وقد نعموا على شاور محالفته إياهم ، بل لقد أخذ ابن مصال يستحث شيركوه على سرعة النهوض إليها ، فسهل عليه تملكها . ثم أتى شيركوه عنه ابن أخيه صلاح الدين بالإسكندرية ، ورجع هو إلى الصعيد

(١) C. T. , p, 928

(٢) يفسر ذهاب شيركوه رأساً إلى الإسكندرية بأن أموري عاد إلى المنيا حيث وجد جبرادى بوجى على رأس خمسمائة فارس مستعدين للجيلولة دون مسير شيركوه وجنده . أما المشاة فكانوا بقيادة جوسلين الثالث . وقد عاد أموري بقواته إلى القاهرة ، وعسكر عند الصغاط بجنده الذى ازداد عدده بما جاءه من الإمدادات الوفيرة ، وبجيش شاور الذى لم يسأم مساهمة جدية ، تؤدى به أو بالكثير منه إلى القتل أو الأسر ، هذا إلى ما ترامى إلى سمع الفريقين من أن نجات صليبية وفيرة غادرت فلسطين بقيادة كثير من الأشراف او المقدمين لمساعدة أموري فى استخلاص مصر ، وهذا الخبر — على علته — كفيلى بقوة نفوس الصليبيين ، لذلك انصرف أسد الدين شيركوه عن القاهرة ، راجع أبا شامة ، كتاب الروضتين ، ص ١٣٠ — ١٣٢ ، G. T. p. 227 — 229 ، والدائرة مادة « أشمونين » ، Ashmunain ، والكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٦ ، والنجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٤٩ .

(٣) أبو شامة ، شرحه ، ص ١٣٠ — ١٣١ .

حيث مضى إلى قوص لجمع الجزية . وعند ذلك قرر الصليبيون وشاور
محصنة الثغر برا وبحرا^(١) وترتيب جماعة^(٢) ، وفي بضعة سفن لمنع وصول
الأطعمة إلى المدينة ، أما من ناحية البر فقد أجهرا أمرهم على أن يخرج
أمورى بمساكره فيعسكر فيما بين تروجة ودمهور . وتحرك أمورى فعلا ليضرب
خيامه في تلك الجهات ، كما حوصرت الإسكندرية برأ وبحرا^(٣) ، وآتت خطتهم
أكملها ، فما انقضى شهر على هذا الحصار حتى أحس الإسكندريون بوطأته ،
إذ قلت الأقوات وأشرفت المدينة على المجاعة ، وضاعف أمورى حصاره
ليضعف الروح المعنوية ، وليصرف أهل البلد عن نصره صلاح الدين ، ونجحت
الحيلة ، وتحرك الإسكندريون بما أزعج خاطر صلاح الدين ، فكتب عمه
سرا يشرح له حرج موقفه ، لاسيما وقد أفسد شاور جماعة التركان على الصلاح^(٤) .
لذلك بادر أسد الدين بالمسير من قوص في يونيو ١١٦٧ لتجدة ابن أخيه ،
وعسكر في بركة الحبش^(٥) فاصدامن وراء ذلك إلى الاستيلاء على القسطنطينية ،
غير أن شدة عزيمة هييج الأبليني أفسدت تلك الخطة . وإذ ذاك رأى شيركوه
أن يبعث إلى الصليبيين بشروطه لوقف القتال بينه وبينهم^(٦) ، وذلك على يد
أسيره هييج القيصري ، واتفق الطرفان على تبادل الأسرى ، ورفع الحصار
الصليبي عن الإسكندرية ، ومغادرة شيركوه وأمورى لمصر . وقد رجب
أمورى بتلك الاتفاقية لأنها منعت مصر من الوقوع في يدي نور الدين ،

(١) درر النيجان ، ص ٣٦٧ .

(٢) كان ممن ساهم في هذا القتال إلى جانب أمورى جماعات من أهل ييزا بأسطولهم راجع
أسباب هذه المساهمة في Heyd : Hist. du Commerce du Levant, t. 1, p. 396.

(٣) Ibid., op. cit. loc. cit.

(٤) الكامل ، ج ١١ ص ١٤٦ .

(٥) وكانت تقع ظاهر مدينة القسطنطينية ، ومحلها اليوم قرية «دارالسلام أو دير الطين قديما»
وكذلك معظم الأراضي الزراعية التابعة لتمام البساتين . راجع في ذلك ياقوت : معجم البلدان ،
والمقرئزي الخطط ، ج ٢ ص ١٥٦ ، وانظر أيضا تعليقات المرحوم محمد بك رمزي في النجوم
الزاهرة ، ج ٥ ص ١٤ حاشية رقم ٢ ، ج ٦ ، ص ٣٨١-٣٨٣ .

(٦) G. T., p. 934 - 935.

بور الدين إن عاودت الهجوم . كما اتفق الطرفان — المصري والصليبي فوق هذا كله — على أن يكون للصليبيين مائة ألف دينار سنويا من دخل مصر^(١) .
 ومعنى ذلك كله أن جالية صليبية غير قليلة بقيت بمصر بعد رحيل أموري وشيركوه ، ولم تلبث تلك الجالية أن كانت أموري ليحجى إليهم برغم ما قطعه على نفسه من وعود ، واقترحت عليه أن يكتب إلى ملوك فرنسا وإنجلترا وألمانيا وجميع أقطار أوربة المسيحية يطلب إليهم النجدة . غير أن أموري لم يرد أن يستنفر ملوك أوربا ، لعلمه بشدة طمع فرسانهم في تكوين إمارات صليبية جديدة بالشرق . لذلك آثر أموري الاستنجد بالدولة البيزنطية ، ورأى أولا أن يخاطب إلى بلاط القسطنطينية إحدى فتياته اللاتي يصلحن للتربع على عرش مملكة بيت المقدس^(٢) ، وأنفذ إلى الإمبراطور مانويل كومنين سفارة سنة ١١٦٥ برئاسة المؤرخ الكبير وليم الصوري ، واستغرقت هذه السفارة في البحث عامين^(٣) ، انتهت بعدها إلى اختيار الأميرة ماري ابنة أخي الإمبراطور لتكون ملكة بيت المقدس^(٤) ، ولقي أموري زوجته البيزنطية في صور ، وعقد له عليها بكنيسة البلد يوم ٢٩ أغسطس

(١) كل ما سبق بشأن الصلح منى على ما قرره وليم الصوري ، أما رواية ابن الأثير في الكامل ، ج ١١ ص ١٤٦ ، فتختلف كثيرا — لا سيما في المقدمة — عما أورده المؤرخ الصليبي ، فيذكر ابن الأثير أنه لما اشتد حصار الفرنجة لصلاح الدين — سار شيركوه من قوس إليهم ، فجاءته رسالهم يطلبون الصلح ، وبدلوا له خمسين ألف دينار ، سوي ما أخذه من البلاد ، غير أن الدقة التي امتاز بها وليم الصوري في إيراد حوادث هذه الفترة بالتدريج تجعل لروايته الصدارة على كل ما عداها ، لا سيما إذا ذكرنا تضارب روايات ابن الأثير بشأن تاريخ تلك الحملة في كتابيه الكامل ، شرحه ، والأتابكة ، ص ٢٤٠ ، ٢٤٦ .

(٢) لم تسكن هذه أول مرة يتزوج فيها أموري ، فقد سبق له أن تزوج من « آني دي كورتناي » وقد ولدت له ابنه بلدوين الرابع الذي خلفه على عرش المملكة (١١٧٤ — ١١٨٥) راجع 5 note ، t. II ، p. 504 ، Grousset : Hist. des Croisades ،

(٣) هناك من يرى أن علة طول إقامة السفارة أثناء المفاوضات راجعة إلى أن المفاوضات على فتح مصر كانت تجري في الوقت عينه . انظر Chalandon : Comnènes ، t. II ، p. 536

Chalandon : O p. Cit. Loc. Cit. (٤)

سنة ١١٦٧^(١)، وتمخض هذا الاتصال بين مانويل وأمورى عن الاتفاق على إنفاذ حملة مشتركة إلى مصر، لا لمساعدة شاور أو العاضد، بل لاحتلال البلد احتلالاً تاماً.

وقد بعث الإمبراطور مانويل - وقت وجود أمورى بصرة - رسولين يحملان من قبله الاقتراح بمهاجمة مصر، وذكر ولم الصورى^(٢) أنهم ما قالوا « إن الإمبراطور رأى أن المملكة المصرية التي كانت زمنًا طويلًا قوية وغنية قد آلت أمورها إلى يد حكومتهم يسوسها رجال ضعاف لا يستطيعون حمل السلاح ولا المحافظة على البلد... وأن الإمبراطور صادق الرغبة في الاتفاق مع أمورى على احتلالها ». وفي ذلك دلالة واضحة على أن الإمبراطور مانويل كومنين كان يريد المساهمة في مشروع الاستيلاء على مصر لخدمة المصالح البيزنطية البحتة، ولذلك أراد أن يكسب أقصى كسب بأقل غرم، فرأى أن يتخذ أمورى مخلصًا لتحقيق مظامعه، ولم يفك ذلك أمورى نفسه وهو وحيد نسجه « شجاعة ومكرا ودهاء »^(٣).

ولما كان المشروع أكبر من أن يبت فيه سريعاً فقد تطلب الأمر تبادل الآراء والشروط بين الجانبين، لذلك أرسل أمورى صديقه المؤرخ الكبير ولیم الصورى إلى الإمبراطور مانويل كومنين مرة أخرى سنة ١١٦٨؛ والظاهر أن أمورى قد فرضه الاتفاق بما يرى، وأن يمضى الاتفاق نيابة عنه. وتم الاتفاق في سبتمبر ١١٦٨، وبذلك تحقق على يد ولیم الصورى أكبر مشروع خطير يمس مباشرة تاريخ مصر في العصور الوسطى في أواخر الدولة الفاطمية، وهو أن يخرج الجيشان: البيزنطى والصليبي بقيادة أمورى لفتح مصر في السنة التالية^(٤)، واتفق الطرفان على أن تكون الرياسة لملك بيت

(١) G. T., p. 942 - 943.

(٢) G. T., p. 945; Schlumberger: Les Campagnes du roi Amaury en Egypte, p. 184.

(٣) الكامل، ج ١١ ص ١٥٠، كتاب الروضتين، ص ١١٣ - ١١٤ من الطبعة الأوربية، ج ١ ص ١٥٤ (الطبعة المصرية).

(٤) G. T., p. 947.

المقدس وأن يطيع القائد البيزنطي في كل ما يأمر به ^(١) ، وشرعت الإمبراطورية البيزنطية تستعد بجماعة من خيرة عساكرها لتساهم في الفتح ، لاسيما وأنها تعلم أن نور الدين لا بد وأن ينهض لدفعهم من مصر بكل ماله من قوة وعتاد .

غير أن الظروف جرت بما لم يدركها بخلد ولحم الصوري أو مانويل كومنين ؛ وعملت على مساعدة نور الدين ، فقد نهض أموري بغتة بجيشه الصليبي ، وزحف على مصر تحت إلهام من بها من جالية الصليبيين على قول المؤرخ ميخائيل الشامي وغيره من المؤرخين ^(٢) . وغير بعيد أن يكون ذلك الزحف قد تم بناء على ما ترامي إلى سمح الجالية الصليبية بمصر من الاتفاق المبرم بين الإمبراطور وأموري بشأن فتح مصر ، وخافوا — إن تم ذلك — أن يشاركهم البيزنطيون في ثروتها وخيراتها ، ولم يفت ذلك الأمر أموري ، فتظاهر بكراهية الاقدام على ذلك الفتح حتى يكون له عذره أمام مانويل كومنين . غير أن وليم الصوري يرجع العلة الكبرى في إسراع أموري بتلك الحملة التي أفسدت المشروع وخدمت نور الدين إلى إلهام جلبت الأسبيلي مقدم الفرسان الاستبارية ، إذ دفعه طمعه في الحصول على إقطاع كبير في بلد خصب كمصر إلى إقناع أموري بالإسراع بالغزو ^(٣) ، على أن هناك من المعاذير ما يمكن أن يفسر به إسراع أموري في الزحف على مصر قبل عليه بالموادعة المكذوبة ، بأن شاوور أرى أن يحمل إلى نور الدين ما لا كل سنة ^(٤) ، وأنه خطب أخت صلاح الدين ، إلا أن أمثال تلك التعللات لا تكفي لتبرير موقف أموري

G. T., p. 968. (١)

G. T., p. 947, Michel Le Syrien, Chroniques, p. 332. (٢)

ص ١٥٠ ، وأتابكة الموصل ، ص ٢٤٠ — ٢٤١ ، ٢٤٦ ، وأبو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٤ .

G. T., p. 948 — 949 ; Michel, t. III, p. 333 Chalandon : op. cit. t. II, p. (٣)
537 — 538.

(٤) الكامل ، ج ١١ ص ١٤٧ ، والأتابكة ، ص ٢٤٠ — ٢٤١ ، وأبو شامة ص ١٣٦ .

من الامبراطورية البيزنطية ورضائه وبالاتفاق معها ، وتسييرها إياه كيفما تهوى ، وإخراج الحملة على مصر في الوقت الذي يرضيه.

لكن هناك سببا آخر ألا وهو النزاع الذي شب بين نور الدين وبين شهاب الدين مالك بن علي العقيلي صاحب قلعة جعبر ، حيث انتهى الأمر باستيلاء السلطان الملك العادل على تلك القلعة^(١) ، يؤيد هذا قول الصليبيين في مصر لأمورى حين خوفهم من مجيء نور الدين أنه « حتى يجهز عسكر عدوهم يكونون هم قد ملكوا مصر ، وفرغوا من تدبير أمرها^(٢) » ، والظاهر أن تجنيد حملة على مصر أطمع كثيرا من المخاطرين الأوربيين في المساهمة فيها ، فقد حضر إلى بيت المقدس الكونت ولیم الرابع مع حشد كثيف من فرسانه للقضاء على أعداء « الملة المسيحية » ، ومع أن الموت قد عاجله إلا أن الدافع له على المجيء ظل حيا في نفوس رجاله^(٣) ، لذلك كان من المعقول أن يفكر أمورى تفكيراً جدياً في الإسراع في مهاجمة مصر دون انتظار حلفائه البيزنطيين ، وهذا أقصى ما يمكن أن تبرر به موقفه حيالهم ، وانفراده بالهجوم على مصر .

وكيفما كان الأمر فقد خرج أمورى في شهر أكتوبر ١١٦٨ على رأس الحملة التي جهزها تحت تأثير بيزنطية لفتح مصر ، وأراد أن يصرف نور الدين

(١) Michel, t. III, p. 332 ، والكامل ، ج ١١ ص ١٤٩ - ١٥٠ ، وأتابكة الموصل ، ص ٢٤٠ - ٢٤١ ، والدائرة ، مادة Dija'bar ، وقد أورد ابن الأثير إلى جانب هذا قصة نزاع جرى بين نور الدين وبين قوة أرسلان ، وبدرجها تحت سنة ٥٦٠ هـ ، غير أن هناك ما يدحض وقوعها في تلك السنة مما انبه إليه المؤرخ ذاته فقال « وينبغي أن تكون هذه الحادثة قبل هذا التاريخ ٥٦٠ هـ » وأشار إشارة قد تبرر ذكره لها في تلك السنة وهي « أنه يمتثل أن يكون هذا التنافس كان أيام الصالح بن رزيق ثم امتد إلى الآن » راجع الكامل ، ج ١١ ص ١٤٢ ، وكذلك الإشارة الشديدة الإيجاز الواردة بشأن تسلّم نور الدين لتلك القلعة في الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٥ .

(٢) كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٤ .

(٣)

وشيركوه عما عزم عليه، فأعلن بأنه يبغى مهاجمة حمص^(١)، وجازت الحيلة على سلطان دمشق، فكتب الأمراء بالقدوم عليه، واستقدم عساكره للنهوض إلى أموري ودفعه عن مقصده. وفي ذلك الوقت بالذات كانت الحملة الصليبية برياسة ملك بيت المقدس في طريقها إلى مصر، وإن بقي خبر زحفها سرا مطوياً عن شاور، الذي لم يعلم به إلا حين بلغ أموري قلعة «الدارون» المعروفة بدير البلاح. فانزعج الوزير الفاطمي لهذا القدوم الذي لا مبرر له، وتوقع الشر — هذه المرة — من حلفائه الصليبيين، إذ لم يكن ثمة ما يدعوهم للنهوض إلى مصر، لا سيما وهو قائم بالمحافظة على تعهدهاته لهم. ولم يكن عند المصريين — أو شاور على الأصح — ما يبرر قيام أموري بتلك الحملة الصليبية لمهاجمة حليفته الإسلامية، بعد أن ارتضت من الحلف مكانة التابع بدفع قطيعة سنوية للصليبيين^(٢)، وإقامتها إياهم حراساً على أبوابها، حتى لا يتمكن جند نور الدين من الوثوب عليها في غفلة من أربابها.

لذلك بادر شاور بإرسال أحد مشيريه ممن يثق بهم واسمه الأمير بدران إلى أموري قبل وصوله القاهرة، مستفسراً منه عما دعاه للبعث، عساه أن يتدارك هفوته كي لا يدع مجالاً لسلطان دمشق للبعث هو الآخر إلى مصر، فما كان من الصليبيين إلا أن استمالوا الأمير بدران إليهم، بعد أن وعدوه بإقطاعه إقطاعاً زمامه ثلاث عشرة قرية، فلما أبطأ بدران تسرب الخوف إلى نفس شاور، وبعث إليهم برسول آخر من المقربين إليه اسمه شمس الخلافة محمد بن مختار، فطمأن أموري خاطره بما لا يجوز على أحد مطلقاً. فقد زعم أنه أراد التوسط بين المصريين وبين جماعة أروبية جاءت من وراء البحار قاصدة غزو مصر، كما زعم أن محبته لأهل البلد وحليفه

(١) أبو شامة، الروضتين، ج ١، ص ١٥٤.

(٢) ذكر أبو شامة في الروضتين، ج ١، ص ١٧٠ أن شاوراً كان قد قطع الجزية

السنوية إلى أموري، مما دعاه للقيام بمحاملته كما جاء في رسالته إليه.

شاور وتحتّم عليه النهوض لدفع هذا الخطر الأوربي عن مصر^(١)، وقرن القول بالعمل، فتحرك شطر الوادي وأغذّ السير حتى تهيأ له الوقوف أمام شهر صفر ٥٦٤^(٢)، وحينئذ أيقن شاور بما كان قد ترامى إلى سمعه من أن بلبيس في هناك فتة من الأمراء المصريين، أمثال ابن الخياط وابن النحاس وابن قرجلة^(٣) كاتبوا أموري يجيبون إليه القدوم إلى مصر، ويهوتون عليه فتحها، ويعيدونه بالانضمام إلى جانبه إذا قدم بجيشه ورجاله^(٤).

نزل أموري بظاهر بلبيس، وطلب من حاكمها طي بن شاور أن يأذن له بدخولها ليصكر فيها بجيشه، ووقف الابن موقفا كريما^(٥)، وناضل الصليبيين نضالا أثار حفيظتهم عليه وعلى المصريين عامة، وأنكر على المهاجم زعمه وتقدمه داخل الحدود المصرية، وقتل جماعة من كبار رجال مملكة بيت المقدس^(٦)، وعرف أموري أن المصريين مدركون لقصد، فأقام على حصار بلبيس ثلاثة أئام بلباليها يغادها ويراوحها بالقتال، استولى عليها بعدها، وإذ ذاك أسرف أموري في الانتقام من بلبيس بهدم بيوتها والتنكيل بأهلها، وكان له عندها ثأرا أميئا، وقتل كل من صادفه من النساء والشيوخ والأطفال بشهادة وليم الصوري وغيره^(٧) من المؤرخين الصليبيين، وهناك من يبرّر هذه القسوة من جانب الصليبيين، فيزعم أن أموري رأى أنه لن يستطيع حماية البلد إذا هاجمه أسد الدين شيركوه مثلا ولذا سوسى بيوتها بالأرض^(٨)، وهو تبرير يحتاج إلى تبرير، ويقوم على ساقين من طين.

(١) أبو شامة، شرحه، ج ١، ص ١٦٩ — ١٧٠.

(٢) الكامل، ج ١١، ص ١٥٠، وذلك يوم أول نوفمبر ١١٦٨ م.

(٣) ابن الأثير: الأنايسكة، ص ٢٤٧.

(٤) ابن الأثير، نفس المرجع والصفحة، Lane — Poole: History of Egypt in the Middle Ages, p. 184.

(٥) أبو شامة، كتاب الروضتين، ص ١٣٧.

(٦) Grousset: Hist. des Croisades, t. II, p. 522.

(٧) G. T., p. 950. Schlumberger: op. cit. p. 196, note 1. p. 313, note 3.

راجع أيضا الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ١٥٠ — ١٥١.

(٨) Grousset op. cit., t. II, p. 522 d'après Ernoul.

على أية حال كان مسلك أموري والصليبيين الوحشي سنة ١١٦٨ في بليس
متكبا بهم طريق السداد (١) ، وسرعان ما أدركوا خطأهم حين أبي أهل
القاهرة أن يلاقوا مصير أهل بليس، من العذاب والتنكيل والأسر، فلموت
في الدفاع عن بيضة الحمى أعذب من حياة في ظل العبودية . واشتد نفورهم
من الصليبيين مما ساعد على ميلهم إلى جانب نور الدين ، فلا عجب إذا هم
اعتزموا ألا يسلبوا العاصمة ، وألا يدخلها الصليبيون إلا وأهلها جثث
هامدة (٢) .

وقد استغرقت المسافة بين بليس والقاهرة عشرة أيام ، والأرجح أن
المفاوضات كانت دائرة بين أموري وبين جماعة المصريين المواليين له ، أو
بينه وبين رسل شاور إليه وهو في أثناء الطريق . ومهما تكن دواعي الإبطاء
فقد بلغ أمروري القاهرة يوم ١٣ نوفمبر ١١٦٨ ، وعسكر عند بركة الحبش ،
ولم يجد أدنى معونة من المصريين الذين أحجموا عن كل ما من شأنه مساعدة
الفتاح على تحقيق هدفه، وكانوا قد أدخلوا ناحية الفسطاط بأكملها لأمر دبّره
شاور ، وحملوا معهم كل ما استطاعوا حمله من متاع وطعام ، وتركوا الدار
تنعى من بنوها ، ثم أضرموها فيها النيران التي بقيت متأججة أربعة وخمسين
يوما سويا (٣) ، وألستها تشرق بالليل فتضيء فحمتها ، وبالنهار تذكىها حرارته،
ولا تزال آثار ذلك الحريق بادية في بعض خرائب الفسطاط الحالية .

نظر أموري بعين الأسى إلى تلك المدينة الزاهية والنار تلتهمها، والمصريون
راضون بذلك ، فللنار تأكل متاعهم أهون على نفوسهم من أن تقع بلادهم
في يد دخيل أجنبي . وكانت مقاومتهم لجيوش بيت المقدس من الشدة بمكان
حتى أياست أموري ، وأدرك أنه لن يستطيع لها امتلاكاً ، وكيف يتأتى له

Lane — Poole : op. cit. p. 184. (١)

(٢) أبو شامة ، شرحه من ١٤٠ ، التهي ، من ٢٣٧ .

(٣) الكامل ، ج ١١ ، من ١٥١ ، والروضتين ، ج ١ من ١٥٤ ، ١٧٠ ، (١١٤) ،

١٣٩ من الطبعة الأوروبية) وأتابكة الموصل ، من ١٣٩ — ١٤٠ ودرر التيجان من ٦٣٨
Lane — Poole : Hist. of Egypt, p. 184.

امتلاك بلاد هؤلاء أهلها ، وقد باتوا على الطرقات ما يقرب من شهرين لا يلوون على شيء سوى متابعة القتال ، فلا جرم أن رجب بما عرضه عليه شاور من الأموال ^(١) ، التي لم يستطع أن يجمع له منها سوى خمسة آلاف دينار . ولقد رضى أمرى بذلك خوفا من مقدم أسد الدين وإفساد كل شيء ، لأنه علم أن الخليفة العاضد أرسل مستنجدا بنور الدين ، وبعث إليه بشعور النسوة ، وهو أقوى مظهر من مظاهر التوسل ، كما استغاث به به وبأسد الدين جماعة من المصريين ، وعرضوا عليه ثلث دخل البلاد . وتختلف المراجع العربية في تحديد الشخص أو الأشخاص الذين ذهبوا تلك المرة يطلبون النجدة من نور الدين ، وهناك من يقول إن الذي قام بذلك هو شاور ^(٢) نفسه ، ويقول غيره بل هو الكامل بن شاور بإشارة من شمس الخلافة ^(٣) ، ويقول غيرهم بل هو العاضد ذاته ^(٤) ؛ فإن صح هذا القول الأخير فليس لدينا نص الرسائل التي أنفذها الخليفة الفاطمي إلى سلطان دمشق ، وكل ما لدينا في هذا الموضوع ما ذكره ابن الأثير من أن العاضد أرسل إلى نور الدين ليستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج ، ثم عاود مرسلته بعد رحيل الصليبيين عنها ، معلما إياها بما لقي المسلمون من الفرنج ، وبذل له ثلث

(١) — اضطر شاور — وقد أزعجته أعمال الصليبيين — لإعمال الحيلة معهم فأرسل إليهم يذكركم بمودته لهم ، ويلقى بالنسبة على الخليفة العاضد . ويشير شاور على أمورى بالرحيل عن مصر لقاء ألف ألف دينار . وكان أكبر المحيدين لأمرى على قبول هذا التسليم ميلز دي بلانسي ، Mills of Plancy التي يحمله ولم الصوري تبعة فشل حملة أمورى على مصر ١١٦٨ ، بينما خالفهما بقية الأشراف والفرسان ، ومقدمو الجيش في هذا الرأي ، كما أنهم رأوا أنفسهم وقد اكتسبوا عداوة بزنتة لإخلائهم بالاتفاق المبرم بينهم وبينها فلا أقل من متابعة الحرب . راجع الكامل ، ج ١١ ص ١٥١ ، وكتاب الروضتين لأبي شامة ، ص ١١٤ — ١١٥ . Schlumberger. les Campagnes du roi Amaury en Egypte, p. 253.

(٢) الدكتور حسن إبراهيم : الفاطميون في مصر ، ص ٣٠٦ ، وحاشية رقم ٢ ، والذهبي ، ص ٢٣٨ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ص ١٣٨ — ١٣٩ ، Schlumberger : Op. Cit. ، p. 200 — 201 ; Lane-Poole : Hist. of Egypt, p. 183 — 184.

(٤) الروضتين ، ص ١٣٩ ، أنابكة الموصل ، ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ .

بلاد مصر ، وأن يكون أسد الدين شيركوه مقبلاً عنده في عسكر ، وإقطاعهم عليه خارجاً عن الثلث الذي لنور الدين ، والظاهر أن ذلك كان يعلم شاور أيضاً ، إذ يذكر ابن الأثير كذلك أن شاور لم يتجاسر على إظهار ما في نفسه ، فكتمه وهو يماطل أسد الدين في تقرير ما كان قد بذل له من المال والإقطاع للعساكر وإفراد ثلث البلاد لنور الدين .

على أية حال ما كاد نور الدين - وهو في حلب - يتسلم رسائل الاستغاثة حتى تحركت فيه عوامل الشفقة والرحمة ، وعملت جنباً إلى جنب مع ما تنطوي عليه نفسه من الطمع في الاستيلاء على مصر وتخليصها من أيدي فئة طاغية كشاور ، ولعله رأى أن تخليصها قديرٌ دى به إلى إعادة المذهب السنن إليها ، بعد أن تمكنت منها الشيعة زمناً طويلاً ، وبذلك يكتسب عطف بغداد وتأييدها إليها . وأدرك نور الدين من رسائل العاصد وكثير من المصريين أن البلد سيخدو من نصيبه هذه المرة ، ولم يكن في ذلك مبالغاً . ومن ثم بعث إلى قائده أسد الدين شيركوه - وكان بمحمص - يأمره بالتجهز بالحملة على مصر ، وأعطاه مائتي ألف دينار ، سوى الثياب والدواب والأسلحة ... وحكمته في العساكر والخزائن ... وأعطى نور الدين كل فارس ممن مع أسد الدين عشرين ديناراً معونة غير محسوبة من جامكيتته (١) . ولنا أن نقارن بين قلة الأموال في مصر حتى ليعجز شاور عن جمع ما لا يزيد عن خمسة آلاف دينار ، وبين كثرتها عند جيش نور الدين الذي أنفذ مع شيركوه جماعة من كبار الأمراء الذين يثق بهم أشد الثقة .

خرجت هذه الحملة في ١٧ ديسمبر ١١٦٨ ، وحدث حين سمع شاور بمقدم شيركوه وبلوغه قلعة الصدر بشبه جزيرة سيناء أن بعث بشمس الخلافة إلى أموري ، طالباً إليه أن يتخلى عن جزء من المبلغ المتفق عليه ، فدل ذلك أبلغ دلالة على أن وزير الفاطميين بمصر يهدد حليفه الصليبي ، كما دل من

(١) الكامل لابن الأثير ، ج ١١ ص ١٥١ ، الأناطكة ص ٢٥٠ ، Schlumberger :
op. cit. p. 213, Lane-Poole : op. cit. p. 185.

ناحية أخرى على أنه لم يعد له من القوة والسلطان ما يستطيع به دفع هذين الخصمين، ولا شك أن المصريين كانوا من خلفه يؤيدونه في موقفه هذا، عسى أن يخف العبء عن كاهلهم^(١)، وإن كانوا في الوقت ذاته يتمنون النصر لجند نور الدين.

دخل جيش نور الدين القاهرة يوم ٨ يناير ١١٥٩^(٢) (= ٧ ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ)، ولم يجد أدنى مقاومة من المصريين، ولعلمهم رأوا في حملة شيركوه خلاصاً لهم من الصليبيين ومن استبداد شاور، الذي ضج منه الجميع حتى أقرب الناس إليه وهو ولده الكامل: وطمع الكل أن يشرق عليهم عهد جديد من الطمأنينة والهدوء بعد تلك النكبات الجسام، التي تابعت عليهم أخذ بعضها بحجز البعض الآخر، أما الخليفة العاضد فكان يرقب الأمور بحسرة لا تجدى، ولم تكن له يدان في دفع تلك الأخطار التي توقع — عن حق — أن تذهب بعرشه الذي ورثه عن أبائه.

أصبح من الضروري لأمرى — بعد أن عرف موقف المصريين حياله — أن يتراجع عن القاهرة، مخافة أن يهاجمه أسد الدين، وأن يثب عليه المصريون من الخلف، واضطر إلى الارتداد إلى بليس، مؤملاً ألا يجد صعوبة في الرحيل إلى فلسطين إن جد من الأمور ما يقتضيه الابتعاد عن مصر. أما شيركوه فإنه عاد يشير إلى الاتفاق القديم، الذي قدمه شاور لنور الدين، ثم نكث فيه، فطالبه به، فاطله، وكان شاور عاجزاً بطبيعة الحال عن أداء المال المطلوب لصاحب دمشق، ومن أين له الوفاء به، وقد احترقت بيوت أهل مصر،

(١) ذكر أبو شامة نص الشروط التي تم الاتفاق عليها بين شمس الخلافة نائب شاور وبين أموري، فقد وهب أموري نصف المال الذي استطلقه إياه شمس الخلافة، وعرض شاور (بلسان نائبه) أن يرحل أموري عن البلاد، وقد استجاب ملك بيت المقدس لما طلبه منه شاور، كما أنه أطلق طي ابن شاور وجميع من عنده من عسكر المسلمين ولم يأخذ من بليس شيئاً.

(٢) تحقيق هذا التاريخ بناء على ما ذكره Stevenson: Crusaders in the East,

p. 194, note 1, بعد مناقشة المصادر العربية المختلفة، ومعارضتها بعضها ببعض.

وهم لا يقدرّون على الأقوات ، فضلا عن الأقساط ، مما لم يخف على شيركوه .
ثم رحل الصليبيون عن مصر يوم ١٨ يناير ١١٦٩ ، بعد أن يشوا من
امتلاكها ، وأدركوا بعد فترات الوقت — خطأهم الجسيم في إقدامهم على
الحملة التي أفقدتهم ما كان لهم من مظاهر ملكية مصر ^(١) ، لكنها المقادير
أبت لإلّا خدمة البلد ومعاونة نور الدين على تحقيق هدفه مما كان فيه أكبر الخطر
على الخلافة الفاطمية ^(٢) ، ولم يفت شاور أنه لم يبق في مصر سوى شيركوه
ورجاله ، فأخذ هذا المنافق يدبر حيلة تمكنه من القضاء على أسد الدين ومن
معه من الأمراء عسى أن يخلص له أمر مصر . لذلك رأى دعوتهم إلى مأدبة
يقيمها من أجلهم ، ثم يلقى القبض على زعمائهم ويقتلهم جميعا ، ثم يستخدم
جندهم في دفع الصليبيين إن عادوا لمهاجمة البلد ، وبذلك يصيب عصفورين
بمحجر واحد . غير أنه انصرف عن تلك المكيدة ، لارحمة بهم ، بل خوفا مما
هو أشد وأنكى ، ويقال إن الذي صرفه عن ذلك هو ابنه الكامل ، حين
هدده بإيقاف شيركوه على المكيدة التي بيّتها له شاور ، وكان هوى ابنه مع
المصريين ومع جيش نور الدين ، وقال له «لأن نقتل ونحن مسلمون، والبلاد
إسلامية ، خير من أن نقتل وقدملكها الفرنج ، فإنه ليس بينك وبين عودهم
إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه » ، وبذلك نجح الجيش ^(٣) النورى رغم
إرادة شاور ، الذي دل سوء تدبيره على قصر نظره ، فما كان له أن يحقق هذا
الأمر وهو في قلة من الأعوان والجند ، إذا قيس إلى جيش شيركوه الكشيف
القوى ، أضف إلى هذا ما أعده نور الدين من قبل من تزويده بكثير من
أشد أتباعه إخلاصا له ^(٤) ورعايته لمصالحه ، واستماتة في تمكين الأمر له بمصر ؛
ولو قدّر لشاور النجاح في القضاء على شيركوه لخلفه من رجاله من يملأ الفراغ

(١) Steverson : op. cit. p. 194.

(٢) عمارة النجى . الذكت العصرية ، ص ٨١ .

(٣) الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥٢ ، وكتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٦ — ١٥٧ .

(٤) شرحه ، ج ١ ، ص ١٥٤ .

الذى يتركة . لكن الظاهر أن شيركوه علم بما بيّته له عدوه ، فرأى أن يعالجه فيجهز عليه ، رغم ما يذهب إليه ابن الأثير من أن أسد الدين قد نهى صلاح الدين وعز الدين جردريك وغيرهما عن قتل شاور (١) . وبما يضعف رأى ابن الأثير ، ويدعم القول بعزم شيركوه على القضاء على شاور أن الخليفة العاضد عرض على شيركوه التخلص من شاور بقتله (٢) ، على أن يستوزره مكانه ، فوَقعت هذه الفكرة من نفسه موقع الرضاء والقبول ، ورأى الفرصة سانحة للخلاص من الوزير الفاطمي ، وإضعاف شركة الخليفة والاستيلاء على « حلوبة بيت المال ودار الإسلام » . لذلك جمع شيركوه أصحابه ، وخطبهم خطبة حفظها لنا أحد المؤرخين (٣) ، كشف فيها الثقب عن رغبته الصريحة فيها ، « وحرصه عليها لا سيما وقد تحقق أن عند الصليبيين منها ما عنده ... وعندة أن يثب عليها قبل وثوبهم ، وأن يملكها قبل ملكتهم ، ويتخلص من شاور الذى يلعب به وبهم » . أيشك أحد بعدئذ في أن قتل شاور كان بتدبير سابق من شيركوه نفسه ؟ بل وأنه كان عالما بيوم مصرعه وساعته ، وإن خفي الأمر إلا عن واكل إليهم قتله ، رغم أنه قد أراد التحايل وتبرئة نفسه أمام التاريخ من دمه ؟ إذ ذهب لزيارة قبر الشافعي يوم مصرعه ، فلما قصده شاور في خيمته كعادته كل يوم لم يجده ، فرأى أن يمضى إليه هناك ، فخرج إليه بصحبة الصلاح وجردريك اللذين تمسكنا منه ، وأخذاه أسيرا إلى شيركوه « إذ لم يمكنهم قتله بغير أمره » فلما جاءه لم يمكنه إلا إتمام ما عملوا ، أفهل يمتري أحد بعد ذلك في أن مصرع شاور كان بتدبير نور الدين ؟ وهكذا انتهى رجل تربع في دست الوزارة المصرية فترة طويلة واستبد بالأمر ،

(١) الكامل لابن الأثير ، ج ١١ ص ١٥٢ .

(٢) الكامل لابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٥٢ ، ١٥٤ ، وأبو شامة : كتاب الروضتين

ج ١ ص ١٧١ ، الذهبى ص ٢٣٩ ، وبذكر العصاى : سمط النجوم ، ج ٢ ، ورقة ٣٢٩ — ٣٣٠ أن ذلك القتل تم بمشاوره أسد الدين ، وكان العاضد قد أسر اليه أمورا منها قتل الوزير شاور .

(٣) أبو شامة ، شرحه ، ج ١ ص ١٧٢ .

وحارب البلد والقصر ، واستعان بالأجنبي^(١) . والواقع أن مقتل شاوور كان آخر حلقة من سلسلة المتاعب التي منيت بها مصر في أواخر العهد الفاطمي ، ولم يعد للصليبيين من مساعد في البلاد ، وكان خروج الصليبيين من مصر في نظر نور الدين فتحا جديدا للبلد وحفظا لسائر بلاد الشام^(٢) ، وفرح لهذا الفتح فرحا شديدا « وواصل الحمد والثناء على الله تعالى ، إذ كان الفتح في زمنه ، وعلى يده ، وأمر بضرب البشائر في جميع ولايته ، وتزيين جميع بلاده » ، وأرسل إلى الخليفة يعلمه بذلك مع ابن عسرون « فزينت بغداد ، وغلقت الأسواق ، وفرح المسلمون فرحا شديدا^(٣) » أما شيركوه فقد خلا الجوله ، لا سيما بعد أن وافقه الخليفة الفاطمي على ما تم ، وبعد أن خلع عليه خلع الوزارة ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش ، وقد ختم العاصد ذلك كله بأن كتب إلى شيركوه تقليدا بالوزارة^(٤) ؛ على أنه كان في كل خطوة من تلك الخطوات يحفر لنفسه ولأسرته ولخلافته قبرا يوشك أن يتردى فيه ، إذ لم يعد هناك من ينافس قائد جيش نور الدين الذي أصبح وزيرا ؛ بل زاد على ذلك بأن راح يقطع الإقطاعات لمساكره ؛ ويستعمل على البلاد من الولاية من أصحابه من يثق بهم . وأصبح لنور الدين حكم مصر وبلاد الشام^(٥) .

(١) هناك ما يحمل على الظن بأن لشيركوه بدا في قتل الشجاع كامل ابن شاوور أيضا ، إذ يذكر ابن الأثير أنه لما قتل أبوه دخل هو وأخوته القصر « معتصمين » ، به فكان ذلك آخر العهد به ، فاما معنى « الاعتصام » والجند جند نور الدين صاحب الكامل الذي كتب إليه نور الدين ، حين أخبره بما بينته أبوه « أن اكتم الخبر عن أيبك » . وغير بعيد أن يكون شيركوه قد خاف أن يستدعى نور الدين الكامل بعد استتباب الأمور في مصر ، ويقطعه الأمر ولعل هذا هو علة غضب نور الدين على شيركوه . انظر الكامل لابن الأثير ، ج ١١ ص ١٥٢ . وأتابكة الموصل ، ص ٢٥١-٢٥٣ ، والروضتين ، ج ١ ص ١٧٠ - ١٧٢ ، ودرر التيجان ، ص ٣٦٨ .

(٢) أتابكة الموصل ، ص ٢٥١ - ٢٥١ .

(٣) العاصمى : سمط النجوم ، ج ٢ ص ٣٣١ .

(٤) عمارة : النكت العصرية ، وابن خلكان في وفيات الأعيان ، والذهبي ٢٣٨ - ٢٣٩ .

(٥) لم يفت الشعر تسجيل هذا الحادث الخطير في تاريخ الشرق في العصر الوسيط ، راجع =

غير أن نور الدين كره أن يكون شيركوه وزيراً لمصر وللعاقد الفاطمي؛ ولعله كان يرى في قائده الرغبة في الاستئثار بحكم مصر حتى لقد قال أحدهم « لقد جرى ذكر فتح مصر فوالله ما ابتهج به نور الدين » ، كما أنه لما اتصل به استوزاره للعاقد واستبداده بالأمر أمضه ذلك وأقلقه ، وظهرت في مخايل قسامته وفتلات كلامه الكراهية ؛ وأخذ في الفكرة في أمره وسهره ليالي ؛ غير أنه لم يُقيض لأسد الدين أن يعيش طويلاً بعد الفتح ؛ فلم يلبث أن مات يوم السبت ٢٢ جمادى الآخرة ٥٦٤ هـ (٢٣ مارس ١١٦٩) ^(١) وهو ذروة مجده ؛ وحسبه أن مهد الأمر في مصر لمن سيأتي بعده ، وما ذلك بالقليل .

كان فتح مصر الحلقة الأخيرة التي أضيفت إلى السلسلة المحكمة الحلقات من التمهيد لتكوين الجبهة الإسلامية ؛ وأدى ذلك إلى سقوط الخلافة الفاطمية ؛ وكانت في تشيعها وضعفها أكبر خطر على نور الدين ؛ ولعل أكبر خدمة أداها الصليبيون للعالم الإسلامي إذ ذاك هي التوحيد — عن غير قصد — بين مصر والشام . ورن دوى هذا الفتح في بغداد ، حتى لقد أقبل الشعراء يهنئون الخليفة به ^(٢) ، ويظهر لنا من نص وارد في بعض المخطوطات ^(٣) أن العباسيين كانوا يتطلعون لفتحها منذ زمن ، فقد كتب المقتفي بأمر الله عهداً

== كتاب الروضتين ، ج ١ ص ١٧٤ — ١٧٥ ، وفضيلة العماد التي يهنيء فيها نور الدين بذلك الفتح ويشير فيها إلى اتحاد البلدين .

فلك مصر وملك الشام قد نظما في عقد عز من الإسلام منتظم

Wiet : *Precis de l'Histoire d'Egypte* t. II, P. 197, Lane-Poole : *Op.* (١)
Cit., p. 186 ; Stevenson : *op. cit.*, p. 194 ; Schumberger : *op. cit.* p. 234.

(٢) من ذلك ما ذكره ابن الجوزي : المنتظم ، ورقة ١٨٣ ، من قصيدة رفعها صاحب

الوزير إلى الخليفة يقول له فيها :

ليهنك يا مولى الأنام بشارة بها سيف دين الله بالحق يرهف
ضربت به هام الأعدى بهمة تقاصر عنها السمهرى المنغف
كشفت بها عن آل هاشم سبة وعاراً أبى إلا بسيفك يكشف

(٣) المنتظم ، ص ١٤٠ ، وانظر أيضاً ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ١٥٢ .

لنور الدين وولاه مصر وأعمالها والساحل ، بعث إليه المراكب والتحف وأمره بالمسير إليها ، وذلك سنة ٥٤٩ هـ .

كذلك تركز خطورة هذا الفتح في حصر الإمارات اللاتينية من الشمال والجنوب بين قوات خضمها القوى ، أضف إلى هذا أنه أصبح في مكنته نور الدين أن يعيد الأسطول المصري إلى سيرته الأولى ، وبذلك تصبح السواحل الشامية — وهي في يد الصليبيين — مهددة بإغاراته بين حين وآخر ، كما أنه يقطع بينهم وبين أوربة سبل الاتصال ، وانقطع مصدر كبير من مصادر الثروة الصليبية ألا وهو تجارتهم البحرية مع مصر .

وأدى استتباب الأمر لجند نور الدين في مصر إلى زحزحة الخلافة الفاطمية من مسرح السياسة الإسلامية ، وكان الصليبيون يعملون دائماً على إثارة الخلاف بين جماعة السنة في الشام والعراق ، وبين الشيعة في مصر ^(١) . ما كاد أسد الدين يوارى التراب حتى انبعثت أطاع مقدمي الجيش من الأمراء الذين يطلب كل منهم الوزارة لنفسه ، غير أن العاضد أرسل إلى صلاح الدين يوليه إياها ، وخلع عليه خلعتها من العمامة والجبّة والعقد والسيف ومرسوم الوزارة وكان ملفوفاً في ثوب أطلس أبيض ^(٢) ، فاهى العلة في اختيار صلاح الدين ؟ .

الظاهر أن الخليفة العاضد تطلع للاستئثار بحكم البلاد ، بعد أن تخلص من الصليبيين ومن وزرائه الذين حرموه من كل حق كخليفة لمصر ، ورأى الفرصة سانحة لاسترداد سلطانه المسلوب ، وخيل إليه أن الظروف جد مواتية له ، وما الذي يعوقه عن ذلك ؟ حقيقة أن هناك جماعة من قواد نور الدين الأقوياء الذين زاملوا شيركوه ، وكل منهم طامع في أن يخلف القائد الأعلى في تدبير أمور الحرب ، ومن هو صلاح الدين إن قيس بهؤلاء ، وما فيهم إلا كل عبقرى السياسة والتدبير ؟ غير أن عين الدولة الباروقى ،

(١) G.T., p. 902, 903.

(٢) كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٣ ، الذهبى ، ص ٢٤٠ .

وقطب الدين إبنال بن حسان المنبجى ، وسيف الدين المشطوب الهكارى خال صلاح الدين هم الذين يعزى إليهم التأثير على العاضد فى إثاره للصلاح ، لأنه أضعف الجماعة وأصغرهم سنا ، فإن ولى الوزارة فإنه لا يخرج من تحت حكم العاضد (١) .

و جرى من الأحداث بمصر ما دل على أن البلاد تجتاز مرحلة خطيرة فى تاريخها ، فقد قامت جماعة بمكاتبة الصليبيين ودعوتهم إلى مصر ، وأخذ صلاح الدين جماعة السو دانية بالعنف بعد أن وقف على مرامهم (٢) ، ذلك أن كبيرها مؤتمن الخلافة طمع أن يخلف شاورا فلم يفلح ، فضى يدبر الدسائس ويحوك المؤامرات ضد صلاح الدين الذى لم يفته شىء مما يدور فى الخفاء ، إذ قبض على رسول مؤتمن الخلافة ، موفد إلى أمورى ، يدعو فيه دعوة شاور لفتح مصر ، ويعدده بوثوب الجند السو دانية على من يبقى من الجيش النورى للمحافظة على القاهرة ، ثم يثبون من بعد ذلك على صلاح الدين من الخلف ، وحينذاك تبين لصلاح الدين أن الواجب يقتضيه تقليم أظفار كل طامع فى الحكم ، ورأى وجوب ما ألح عليه نور الدين به ، وهو إزالة الخلافة الفاطمية (٣)

لم تكن الأحداث التى تمت عقب رحيل أمورى عن مصر دون أن

(١) راجع الكلبل ، ج ١١ ص ١٥٤ ، وأتابكة الموصل ، ص ٢٥٥ ، والروضتين ، ص ١٦١ .

(٢) الذهبى ، ص ١٤١ .

(٣) أخذ الناس يحرصون صلاح الدين على الوثوب على الخليفة ، حتى إن الشاعر العماد ، كتب إليه محرضا ، وما كان للعماد أن يجرؤ على هذا لولا ما رآه من الرغبة الصريحة عند صلاح الدين فى القضاء على العاضد ، ولا شك أن نور الدين — وإن كان ينكر القتل — إلا أنه كان يطمع فى إزالة الخلافة الفاطمية من مصر ، وفى ذلك يقول الشاعر :

رد الخلافة عباسية ودع الدعى فيها يصادف شر منقلب
لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها فالخزم عندى قطع الرأس والذند
راجع الروضتين ص ١٦٥ ، ذرة السلوك ، ص ٦ ب .

يحقق هدفه أحداثا داخلية محضنة ، بل لقد رأى الصليبيون فيها ما يهدد كيانهم كمتقربين في بلاد الشرق الأدنى ، ولم تفت هذه الحقيقة أحداً من صليبي الشام ولا الإمبراطورية البيزنطية ، التي وقفت ترقب ذلك الصراع عن بعد ، وهي غاضبة على أموري أكثر مما هي غاضبة من نور الدين ، ورأت مملكة بيت المقدس نفسها تواجه أشد الأخطار من جراء ازدياد نفوذ نور الدين المتواصل في مصر ، ورأت الضرورة تدعوها لإجباط خطته بها ، ولم تجد في مواعده خيراً لها ، ولذلك استقر الرأي في المملكة الصليبية على وجوب إثارة حرب صليبية جديدة ، وإذا كان سقوط الرها - في يد زنكي قد بعث ملك فرنسا وإمبراطور ألمانيا على النهوض بحملتهما الصليبية المعروفة بالثانية سنة ١١٤٨ - وإن فشلت - فإن استيلاء نور الدين على مصر أحق بأن يثير ممالك أوربة جميعها . لذلك رأى أموري ، ورجاله أن يبعثوا إلى ممالك أوربة سفارة ، تستنجدهم لدفع خطر نور الدين الذي يوشك أن يقضى على الإمارات اللاتينية المسيحية بالشام ، واستقر الرأي أخيراً على تأليف هذه السفارة من أموري بطريك بيت المقدس ، وهرنسيوس مطران قيصرية ، ووليم مطران عكا ، ولم يخف خبر تلك السفارة عن نور الدين ^(١) . كما علم بمكاتبة صليبي الشام لفرنجة الأندلس ، وأزمع أموري مكاتبة لويس السابع ملك فرنسا ، وهنرى الثانى ملك إنجلترا ، وفرديك بربروسة إمبراطور ألمانيا ، ووليم الثانى ملك صقلية ، وفيليب كونت فلاندر ، وهنرى كونت شمبانيا ، وعلى الرغم من العواصف والأعاصير البحرية فقد تمكن البطرك أموري من الوصول سالماً إلى فرنسا ، حيث استعرض أمام ملكها لويس السابع الأخطار الجسام التي تهدد بيت المقدس ، وكان ذكرى نهوضه قبل ذلك بعشرين عاماً قد نكأت جرحه المندمل ، فتعلل بانشغاله بمحاربة الإنجليز الذين ينازعونه العرش ،

(١) راجع الكامل، ج ١١ ص ١٥٧ واتبكة الموصل ص ٢٥٨ - ٢٥٩ ، G,T,p. 960

وأثارت هذه الذكريات نفسها جماعات عدة من الفرسان في مختلف الممالك الأوربية ، فأحجموا عن الإقدام على خوض غمار حرب لم يعد العامل الديني يثيرهم على القيام بها كما أثار آباءهم منذ نصف قرن^(١) ، أما بعثة بيت المقدس فقد دعيت إلى إنجلترا ، حيث قابلت هنرى الثانى ، فأخذ يماطلها حتى مات أحد رجالها فعاد من بقى حياً دون تحقيق الهدف الذى يسعى إليه أمورى ، وحينئذك أيقن صليبيو الشام أن الاستعانة بأوربة المسيحية ، والتفكير فى معاوتها إنما هو وهم باطل ، وهيات أن تقدم أوربة على ذلك ما لم تحظ بنصيب الأسد .

حينذاك تلفت أمورى حوله ينشد حليفاً جديداً لمعاوته فى القضاء على نور الدين بمصر واسترجاعها منه ، فلم يجد بداً من الاستعانة بالإمبراطورية البيزنطية ، وبالإمبراطور مانويل ، الذى كان — رغم غضبه من تعجل أمورى فى القيام بمحملته منفرداً — ينظر بعين الخوف هو الآخر إلى التوسع النورى رغم أنه فى الجنوب ، فلا عجب إذا رحّب بمد يد المعونة إلى أمورى مرة أخرى فى حربته ضد نور الدين ، والواقع أن أمورى رأى — من قبل — من إمبراطور بيزنطة ما أدرك معه رغبته الصريحة فى النهوض بحرب صليبية^(٢) .

أنفذ مانويل فى يوليو ١١٦٩ م إلى أمورى أسطولاً قويا بقيادة إندرونيك كونستفانوس Andronic Constiphanos بعد أن مر بقبرص ، وتزود بالمئونة الكافية لثلاثة أشهر ، وانضمت إليه هناك ستون سفينة بيزنطية أخرى ، وكان هذا أكبر أسطول قدر للصليبيين أن يشهدوه ، كذلك أنفذ مانويل قوة كبيرة من الفرسان والمشاة والميرة وآلات الحرب وعدد

(١) Tout : Empire and Papacy, p. 246 — 273.

(٢) G.T., p. 961.

القتال مع أقوى رجاله^(١)، وذلك لأن الإمبراطور البيزنطي كان طامعا في تحقيق أطاعه وأهدافه في التوسع، حتى تدخل مصر ضمن دائرة نفوذه، ولعل التفاتة بسيطة إلى ذلك العدد الضخم من السفن والجند والاستعدادات الهائلة كفيلة بكشف القناع عن رغبة الإمبراطور الصريحة في الاستيلاء على مصر، وهو تعبير مادي صريح في الرغبة في الانفراد دون الصليبيين بحكمها، ولم يفت ذلك أموري، مما يتجلى في تأجيله الرد على قائد الأسطول البيزنطي في قبرص ما يزيد على شهرين حتى مات أسد الدين وملك صلاح الدين البلاد^(٢).

ثم وصلت هذه الحملة البيزنطية ترافقها جنود من مملكة بيت المقدس بقيادة أموري إلى صور فعسقلان، التي غادرتها يوم ١٦ أكتوبر، وبلغت الفرما في اليوم التاسع من مبارحتها عسقلان، وهناك أبصرت الأسطول البيزنطي في انتظارها. ومضت الحملة والأسطول معا إلى بلدلم يكن في حساب مصر أبدا، ذلك هو دمياط «ودمياط عقيلة الإسلام وثغر الديار المصرية»^(٣) رغم أنها لم تكن محصنة^(٤)، واختيار هذه المدينة بالذات يفصح عن أن المحرك في السير إنما هو البيزنطيون، اعتمادا منهم على أسطولهم، وعلى أية حال قد أمضى البيزنطيون وحلفاؤهم ثلاثة أيام في نصب الخيام أمامها، وبذلك أتاحوا لها أن تستعد لصددهم، وما كان للبيدنة أن تعز عليهم، لو أنهم باغتها بالهجوم، كما باغتها بالقدوم.

كان لا بد لصلاح الدين من النهوض لدفعهم، غير أن خوفه من أن يغتتم الناقدون عليه الفرصة فيثيرون العامة ويحركونها ضده اضطره للبقاء

G.T., p. 961. Schlumberger : Les Campagnes du roi Amaury, p. 258 (١)
— 261.

(٢) ابن الاثير، الكامل، ج ١١، ص ١٥٧.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب، ص ٣٧٤.

G.T., p. 964—969. (٤)

بالقاهرة مكتوف اليدين، كما كتب إلى نور الدين يصرِّح له بخوفه من مؤامرات القصر الفاطمي وجند السودان (١) المحيطين بالخليفة العاضد، فبعث إليه نور الدين عساكر الشام (٢) التي بلغت دمياط في منتصف ربيع الأول ٥٦٥ هـ (٣)، وقام هو في الوقت ذاته بنهب بعض بلاد الإمارات اللاتينية بالشام (٤)، كما أنفذ صلاح الدين العسكر إلى دمياط عن طريق النيل، وزودهم بالسلاح والذخائر، وبعث السفن بقيادة أخيه تقي الدين عمر (٥)، وقريبه شهاب الدين محمود، وبذلك استطاعت دمياط مقاومة غزاتها الذين أمضوا أيامهم في التأهب لمهاجمتها، وأحجموا عنها وقت خلوها من كل من يقف في سبيلهم (٦). أما وقد بلغت هذه الإنجادات من الداخل والخارج فقد أصبحت في حال تمكنها من دفعهم، فلا عجب إذا هي عزت عليهم رغم ضخامة حملتهم، بل لقد ذهب المدافعون أبعد من ذلك فبنوا برجاً يشهد ولیم الصوري أنه أكبر من البرج الذي أقامه الصليبيون لرميها منه بالمنجنيق، كما ينص على أن المسلمين والأقباط كانوا يدا واحدة في دفع المغيرين. ولقد زاد الطين بلة تحت أقدام البيزنطيين «هطول الأمطار ليلاً ونهاراً» فتحولت خيام الصليبيين ومعسكراتهم إلى طين وماء، حتى اضطروا «لحفر الحفرة حولها لتتجمع فيها مياه الأمطار» (٧)، ثم طلب صلاح الدين النجدة السريعة من مولاه نور الدين (٨)، نظراً لشدة وطأة الصليبيين وإلحاحهم في مهاجمة دمياط، غير أنه لم يلبث أن دب بين المغيرين أنفسهم ما أضعف عزائم

(١) ابن الأثير، أنابكة الموصل، ص ٢٥٩.

(٢) أنابكة الموصل، ص ٢٥٩.

(٣) أبو شامة، ص ١٥١.

(٤) أنابكة، ص ٢٥٩.

(٥) الروستين، ص ١٥١، درر التيجان، ج ٤، ص ٣٦٨ — ٣٦٩.

(٦) ابن الأثير: الكامل، ج ١١، ص ١٥٧.

(٧) راجع الروستين، ص ١٤٩ — ١٥١، G.T.P 667، وما بين الأقواس مترجم عن

للرجع الأخير.

(٨) الكامل، ج ١١، ص ١٥٧، أنابكة، ص ٢٥٩.

جندهم ، وهو نقصان الطعام عندهم يوماً بعد يوم ، لأن الأسطول البيزنطي لم يجلب معه غير مئونة ثلاثة أشهر ، استنفدت معظمها في المدة التي انقضت منذ خروجه من بلاده حتى مغادرته عسقلان . يضاف إلى ذلك أن الكثرة العددية جعلت مشكلة التزويد صعبة ، فضلاً عن استحالة الحصول على شيء من دمياط وما جاورها (١) . ثم إن جماعات من المصريين والعرب اغتصمت الفرصة ، وشرعت تغير بين آن وآخر على خيام العدو فنسلب ما تصل إليه أيديها ، كما تمكنت من إضرام النار في بعض سفن الأسطول (٢) . فأدت تلك الظروف مجتمعة إلى تسرب القلق إلى نفوس الصليبيين والبيزنطيين ، إلا أنهم أخذوا مع هذا في مداومة الحصار . غير أن لكل شيء نهاية ، إذ سرعان ما أحس القائد البيزنطي بشدة فتك الجوع بجنده ، وأدرك أن البقية منهم لن تستطيع الصبر طويلاً على ذلك الجهد الشاق ، ومرأوحة القتال مع قلة الزاد ، وبعد الديار ، ومشقة الحرب ، فأشار على ملك بيت المقدس بمهاجمة البلد مرة واحدة ، حتى يسقط في أيديهم ، فيتفرغوا لبقية البلاد التي في طريقهم والتقدم شطر العاصمة . غير أن أموري لم يوافق على خطته ، متمللاً بأنها تؤدي إلى هزيمة الجيش ، فأنكر ذلك كونستفانوس ، وعقد — بعد منتصف إحدى الليالي — مجلساً من مقدمي جيشه ، واستعرض معهم الموقف ، وأمرهم بمهاجمة البلد والاحتلال بالهجوم دون الصليبيين فكان ذلك أول تصدع للحلف البيزنطي الصليبي ، مما أغضب أموري الذي رأى أنه أدري من كونستفانوس بخطط القتال في مصر (٣) . ولعل ملك بيت المقدس الطامع في الاستبداد بحكم بلاد النيل قد رأى أن البيزنطيين يرمون من وراء انفرادهم بالفتح إلى الانفراد بحكمها ، وبذلك تضيع جميع جهود الصليبيين . أضف إلى هذا ما كان يؤمله أموري من أن يرهق الحصار صلاح الدين فيعود إلى ما كان

(١) G.T.p. 967. ، القرظي : المخطط ، ج ١ ، ص ٣٤٦ — ٣٤٧ .

(٢) G.T.p. 968.

(٣) Schlumberger: op. cit. p. 278-280 (d'après Nicetas).

متفقاً عليه من قبل بين مصر وبيت المقدس أيام شاوور، من دفع الجزية السنوية، التي ينص وليم الصوري على أنها *annua tributi pensio* ، لذلك دبر أموري وسيلة للاتصال بينه وبين المصريين ، ليفسد على البيزنطيين خطتهم ، وإن كان يعتقد في الوقت ذاته أنه قد أفسد آماله في الاستيلاء على مصر، ويظهر أن البيزنطيين أنفسهم قد لجأوا إلى مثل ذلك الاتصال بالمصريين (١) ، غير أننا لا ندرى على وجه التحقيق الشروط التي تم الاتفاق عليها (٢) ولا ندرى من البادى بمفاوضة المصريين : البيزنطيون أم الصليبيون؟ ويذهب وليم الصوري إلى أن البيزنطيين هم الذين عمدوا إليها أولاً ، وقد يبدو ذلك محتملاً نظراً لقلّة ما بيدهم من الذخيرة، غير أنه يمكن استبعاد هذا لأنهم كانوا يأملون أن تسقط دمياط في أيديهم فيعوضهم ذلك شيئاً ، والأمر الثاني أنه يهمهم فتح مصر بحد السيف ، لتغدو حقاً للإمبراطورية لا ينازعهم فيه منازع .

لكن الأرجح هو أن أموري كان البادى بالمفاوضة ، ليفسد على حليفه البيزنطي خطته ، وليستطيع أن يعود سريعاً إلى فلسطين، لمواجهة نور الدين الذي اغتم فرصة خلو الإمارات اللاتينية بالشام من أربابها فأخذ في الإغارة على حصن الكرك (٣) وغيره من النواحي التي بأيديهم ، وعلى أية حال ففسد أمر الحملة الصليبية البيزنطية على مصر ، وما أقسى تهكم ابن الأثير حين شبهها في خذلانها بالنعامة خرجت تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين (٤) ، وهكذا انعقدت الهدنة أو المودعة بين المتحاربين ، وأخذوا في التزاور فيما بينهم ، ورحب المصريون بالصليبيين ودعواهم إلى بيوتهم ، ورجع مقدم الأسطول البيزنطي

(١) G.T.p 968 — 999.

(٢) ليست لدينا أية معلومات عن الشروط التي تم الاتفاق عليها بين المصريين والمغربين ، بل إن Schlumberger : *Les Campagnes du roi Amaury en Egypte*, p. 282. ليدحض ما يزعمه المؤرخ البيزنطي نكتاس من أن المصريين عرضوا أن يدفعوا لبيزنطة جزية سنوية .

(٣) الكامل ، طبعة أوربة ، ص ٥٧٠ .

(٤) الكامل ، ج ١١ ص ١٥٨ ، الذهبى ص ٢٤٣ .

إلى بلاده ، وما لبث أن وافاه هناك جماعة من المصريين يحملون الهدايا وشروط الصلح إلى الإمبراطور البيزنطي^(١). أما أموري فقد رجع بجيشه إلى بلاده ، وكانت نكبة الإمبراطورية البيزنطية لا تقل عن نكبة الصليبيين ، إذ أتلقت العاصفة في الرجوع كثيرا من السفن ، وهلك كثيرون من الجند والبحارة^(٢) ولم يكن ذلك كل ما تمخضت عنه الحملة ، بل هناك ما هو أشد وأنكى ، ألا وهو تمكن الأمر لصلاح الدين — أو لمولاه نور الدين مؤقنا — في مصر ، الأمر الذي يخشاه كل من البيزنطيين والصليبيين ، كما ضعف أمر الخليفة العاضد الذي أصبح تابعا لنور الدين سلطان دمشق ولا عاضد له ، كما انقطعت التجارة بين مصر وبلدان الساحل الفلسطيني^(٣).

وهكذا باتت القوى الصليبية بين شقي الرحي ، وهو ما أراده نور الدين ، وما لبثت مملكة بيت المقدس أن أحست بما صارت إليه حين خرج صلاح الدين في مستهل ديسمبر ١١٧٠ (= ٥٦٦ هـ) قاصدا غزة ، حتى إذا وصل إلى دير البلح (الداروم^(٤)) استقر هناك ، وأرسل سرية هاجمت ربض غزة^(٥) التي كان أموري قد أقام بها حصنا وحامية لدفع أي خطرياً تيه من الجنوب ، وعلى الرغم من قوة تلك الحامية فإنها عجزت عن دفع هجوم صلاح الدين ، الذي استمر يومين سوياً . وبلغ الخبر أموري ، فخشى أن تقع تلك المنطقة في يد عدوه ، فتصبح مملكته أدنى إلى شقي الرحي ، وبعث في جميع الجهات مناديا أن يخرج الفرسان لدفع الخطر الجديد ، فلبى الكثيرون نداءه ، لا سيما وقد أدركوا أنهم أصبحوا عرضة للغارات وما يتبعها من ضياع السطوة والسلطان ،

(١) Schlumberger : op. cit. p. 284 (d'après Nicéas).

(٢) اغتم نور الدين هذه الفرصة فأخذ يعبث فساداً في نواحي البلاد الصليبية ، كما فعل في عشر التي نزل عليها ولم يرحبها حتى وأتاه خبر زلزال ١١٧٠ ، الذي أتاح لكل من الفريقين فرصة اشتغالا فيها بعبارة بلادما ، راجع Dassaud : Topogr. Hist. de la Syrie ; p. 328

(٣) Heyd : op. cit. p. 399 — 400.

(٤) cf. G. T., p. 973.

(٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٦٤ .

وقديو دى الأمر فى النهاية إلى إخراجهم من بلاد الشام ، دون أن يجدوا فى أوربا منجدا أو معينا ، لا سيما أنه لم يصد لهم أمل ما فى مساعدة الدولة البيزنطية لهم ، بعد أن فجعوها فى آمالها مرتين متعاقبتين ، أدت ثابتهما إلى فقد قسم كبير من الأسطول البيزنطى .

ثم خرج الصليبيون فى الشهر ذاته فى العدد الكثيف إلى حيث صلاح الدين ، فرأى أن يغادر « دير البلح » إلى غزة ، معقل فرسان الداوية ، لعله يصيب منها غرضاً ، ولكن قلعها عزت عليه ، فاضطر للرجوع إلى مصر كما عاد أمورى إلى فلسطين .

غير أن هذه السرية أظهرت للعيان مقدار ما أضحت فيه القوى الصليبية من خطر داهم من الشمال والجنوب ، وتجلى ذلك بأوضح صورة مرة أخرى حينما أغار صلاح الدين مصر على « أيلة »^(٢) ، كما أغار نور الدين على أنطاكية وطرابلس فى وقت واحد أى فى سنة ١١٧٠ م ، حتى يمكن القول بأن صلاح الدين كان يسير فى غزواته بأمر نور الدين ، على أن المراجع العربية تجمع على أن صلاح الدين لم يشأ مقابلة نور الدين فى تلك السنوات ، وهو بما لا يدخل فى صلب العلاقات بين الصليبيين وبين الملك نور الدين ، الذى أغار على بعض بلدان الإمارات اللاتينية بالشام ، وذلك أنه استغل حادثة جرت لمركبين خارجين من مصر ، لجآ لمدينة اللاذقية ، فاستولى عليهما أهلها الصليبيون ، وادعوا أنهما انكسرا ودخلهما الماء ، وكان من الشروط المبرمة بينهم وبين المسلمين أن كل مركب ينكسر ويدخله الماء يأخذونه لهم ، لكن نور الدين لم يقبل هذه الحجة ، بل رأى الفرصة سانحة للإغارة على

(١) لما كانت أيلة على خليج العقبة على ساحل البحر الأحمر مما يلى الحجاز فقد رأى صلاح الدين لإنشاء أسطول جديد تقى فى دمه ، تمكن بواسطته من محاصرة البلد بحرا وبراً ، فلم يلبث أن سقط فى يده ، وأسر الحامية وساقها إلى القاهرة واستباح أهل أيلة ، وكان سقوطها فى يده فى ربيع الآخر ٥٦٦ (ديسمبر ١١٧٠ م) . راجع النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٨٥ — ٣٨٦ ، ابن الأثير . الكامل ، ج ١١ ص ١٦٤ ، وأتابكة الموصل ، ص ٢٧٩ — ٢٨٠ والروشتين ، ص ١٥٥ ، درر التيجان ، ق ٤ ، ص ٣٦٩ .

بلادهم ، فأرسل سرية إلى أنطاكية ، ونهض هو بنفسه في جماعة من العسكر إلى طرابلس حيث حاصر حصن « عرقة » ، وخرّب روضه ، ولم يستطع الاستيلاء على الحصن ، كما أنفذ سرية أخرى إلى قلعة « العريمة » وصافينا فاستولى عليهما عنوة ، واشتد نور الدين في بعث تلك السرايا التي أزججت الصليبيين الذين أدركوا أنهم لن يستفيدوا شيئاً من ورائها ، سوى ضياع الكثير من قلاعهم وحصونهم إن استمرت الحال على هذا المنوال ، وأنه من الخير لهم أن يجيئوه إلى ما طلبه ، وهكذا ضمنوا العيش في هدوء ، وأسلبوه شحنة المركبين المصريين^(١) ، ولا شك في أن عدم التعاون بين نور الدين وصلاح الدين في تلك السنوات جعل أعمال نور الدين بصدد الصليبيين تسير على غير خطة معينة ، وتقتصر أحيانا على مناورات سياسية .

ولعل أوضح الأمثلة على ذلك أنه عندما اتفق « أمورى » والإمبراطور مانويل كومنين مرة أخرى على العمل معاً لمقاومة نور الدين ، لجأ نور الدين إلى إثارة سلطان سلاجقة الأناضول ضد الدولة البيزنطية ، وكان أمورى قد رأى — قبل مفاتحة الإمبراطور في هذا الموضوع الخطير — أن يعقد مؤتمراً من الصليبيين بالشام ، لبحث فكرة الاستعانة بالإمبراطورية البيزنطية ، والتأم المؤتمر في مستهل سنة ١١٧١ في بيت المقدس ، ودعى المؤتمر للنظر في القيام بحرب صليبية ، والاستعانة بمانويل كومنين . ثم مضى أمورى بنفسه إلى القسطنطينية في نفر من وجوه الصليبيين وأشرفهم ورجال الدين ، واستثنى من ذلك وليم الصورى حتى لا ينكأ الجرح ، فيذكّر القوم الحلف الذى ولد في بزنطة وما لبث أن مات في بيت المقدس ، وأبحر الوفد الصليبي يوم ١٠ مارس ١١٧١ ورافقه فيليب دى بيللى بأسطوله^(٢) ، وذلك لكي يأمن أمورى حوادث الطريق وعواصفه . وتلقى البيزنطيون الوفد

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ص ١٥٩ ، ١٦٧ ، والأتابكة ، ص ٢٧٩ — ٢٨٠ ، والروضتين ، ص ١٥٥ .

(٢) Du Gange-Rey : Familles d'outre-mer, p. 875. (٢)

الصلبي بالترحاب^(١) فما هي علة هذا الترحاب؟ أم هي الرغبة من جانب البيزنطيين في العودة إلى التحالف القديم؟ أم هي المتعة في رؤية ملك الصليبيين يغادر بلاده لمفاوضة وريث ألكسيس كومنين؟ على أية حال فقد بالغ الإمبراطور في الاحتفاء بالملك، حتى لكان القوم في استعراض^(٢)، وطال دور الترحيب، حتى كاد أموري أن يمل المقام ومشاهدة آثار البلاد والنزهة على شواطئ البسفور، ولما جاء دور المفاوضات التي جرت بين العاهلين على انفراد، استعرض أموري الموقف من جميع نواحيه، وأشار إلى مآدب بين نور الدين وصلاح الدين من الجفوة التي لا بد من اغتنامها^(٣)، ولم يفته أن ينص على إثارة المصريين^(٤) وأشاد إلى تعلقهم بالشيعة الفاطمية كذهب^(٥)، حتى وافق الإمبراطور مانويل كومنين على القيام بعمل مشترك^(٦).

أما نور الدين فقد رأى أن يقابل تلك الحركة بحركة ضد الدولة البيزنطية، فدفع قلعج أرسلان بن مسعود بن قلعج أرسلان صاحب ملاطية وسيواس إلى غزو أطراف الإمبراطورية البيزنطية، أو إنجاده نور الدين بعسكر من عسكره لمحاربتها^(٧)، وقصد نور الدين من ذلك أن تجدد الدولة البيزنطية نفسها بين عدوين يتآخمانها ويغيران عليها قلعج أرسلان و«مليح» صاحب الدروب الأقصى، ومن ثم ينصرف الإمبراطور مانويل عن تنفيذ ما اتفق عليه مع أموري. وهذه هي علة إبطاء مانويل كومنين في تنفيذ اتفاقه مع

(١) G.T., p. 981 — 982. ويلاحظ سكوت معظم المؤرخين البيزنطيين عن هذه السفارة، بينما أشار «كناموس» إليها إشارة موجزة لا تعدو ثلاثة أسطر، وذلك بتحقيق Schlumberger: op. cit. p. 311 غير أن وليم الصوري هو الذي أفاض في ذكر تفاصيلها ودقائقها.

(٢) G.T., p. 984 — 987.

(٣) G.T., p. 984 — 985.

(٤) Ibid., Loc. cit. (٤)

(٥) Ibid., loc. cit. (٥)

(٦) Ibid., p. 987 — 988.

(٧) ابن الأثير. الكامل، ج ١١ ص ١٧٦، الأناطكة ص ٢٩٠ — ٩٢١.

ملك بيت المقدس^(١) . ويشير ابن الأثير إلى أن قلعج أرسلان أجاب دعوة نور الدين . أما شالندون فيشير إلى أنه رفض ملتزمه ، وأنه التقى بمأنويل سنة ١١٧٣ ، وأكد له حرصه على ما بينهما من المواقعة ، عازف عن مد يد المعونة إلى نور الدين ، والظاهر أن الرأي اللاتيني أصح ، لأننا لانسمع شيئاً من جانب قلعج أرسلان ، على حين قام « ملبج » الأرمني فاستولى على أذنة والمصيصة وسيواس .

غير أن القدر لم يمهل نور الدين طويلاً ، فما لبث أن مات^(٢) بقلعة دمشق ودفن بها ، ونخيل إلى أمورى أن الفرصة جد مواتية لتحقيق هدفه ، إلا أن الأجل لم ينسأ في حياته هو الآخر فمات في ١١ يوليو ١١٧٤ . وبذلك انطوت صفحة من تاريخ الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، لتبدأ صفحة جديدة من التجمع والوحدة .

Schlumberger : op. cit. p. 335. (٢)

(٣) درر التيجان ، ص ٣٧٠ ، الذهبى ، تاريخ الإسلام ، ص ٢٥١ ، الجواهر الثمين ،

ص ٩٢ ، الدول المقطعة ، ورقة ١٦٤ ، ب .

الفصل الخامس

مظاهر الحياة العامة في المجتمعين الصليبي والاسلامي

في الشرق الأدنى خلال القرن الثاني عشر

الجيال المختلفة في بلاد الشام . طبقات المجتمع الصليبي . بعض
الوظائف والعادات الدالة على تأثير الصليبيين بالمجتمع الشرقى
ونظمه الحكومية . النظم الصليبية العامة . العلاقات
الاجتماعية بين أفراد المجتمع وطبقاته المختلفة
حفلات الزواج

ربما خرج القارىء للفصول السابقة بصورة للعلاقات بين المسلمين
والصليبيين بالشرق الأدنى سداها العدا ، ولحمتها الحروب والبغضاء ، وتكاد
الحقيقة تكون عكس ذلك ، وليس أدل على ما كان بين المسلمين والصليبيين
من علاقات عامة وخاصة من عبارة لابن جبير — رحالة القرن الثاني عشر —
في أنه كان بينهم حد يعرف بحد المقايسة ، فهم يتشاطرون الغلة على استواء ،
ومواشيم مختلطة ، لا حيف يجرى بينهم فيها ^(١) . ولقد كانت الحياة
الاجتماعية في بلاد الشام إبان العصر الصليبي مزيجاً من الحياتين : الشرقية
الإسلامية ، والغربية الصليبية ، تداخلت إحدهما في الأخرى ، وأثرت كل
منهما في صاحبها وتأثرت بها تأثراً مختلف قوة أو ضعفا حسب الاحتكاك
بينهما ، غير أنه قد يكون من التعسف أن نحاول وصف ظواهر اجتماعية
ثابتة ، اختص بها النصف الأول من القرن الثاني عشر للميلاد ، لأن التطور
كان يعمل في حياة الفريقتين عملاً متصلاً وعلى كر الأيام ، ولم يحدث قط
— بين يوم وليلة — أن هجر الناس دفعة واحدة قديماً ما ، أو أخذوا
بأسباب جديدة ما .

ولقد قدر لبلاد الشام أن تكون مسرحاً اختلفت إليه أجناس شتى من

الخلق ، ومذاهب متباين بعضها عن بعض سياسياً ، واجتماعياً ، واقتصادياً ، وفكرياً ، ولا نذهب في القول مذهب القائلين بأن تلك البلاد ألقت أن تهاجم وتغزى كما قال ستيفنسن ^(١) ، ولكنها وسعت في العصور الوسطى جماعات قد نعجب إذا استعرضنا أسماءها كالبنادقة ، وأهل مرسيليا ، وأمالني ، والجنوية الذين يمثلون النشاط التجاري البحري . هذا إلى جماعات من المغامرين المخاطرين الذين قدموا مدفوعين بعوامل شتى ، أقلها العامل الديني وإن كان هو أظهرها للعيان ، وقد ربط المغامرون حياتهم بالشرق بعد أن ضاقت بهم سبل الحياة في بقاع أوربة ، وإلى جانب هؤلاء الجماعات الشامية المسيحية من يعاقبة ونسطوريين وأرمن ومارون وسريان ، وأولئك جميعاً يكونون كتلة دينية متشعبة ، لا تقل عنها الكتلة الإسلامية ، وقوامها السنيون ، والشيعة ، والدروز ، والباطنية ، والحشاشون ، ثم هناك أيضاً اليهود ، فكانت بلاد الشام بهرة اجتمعت فيها كل هذه القوميات والمذاهب ، وتأثرت حضارتها الذاتية بمحضرات تلك الفئات العجيبة .

وقد يخطيء من يظن أن العلاقات بين المجتمعين الإسلامي والصليبي إبان القرن الثاني عشر وما تلاه كانت حرية فقط ، وعُد من يذهب إلى ذلك واضح في أن كلا من الفريقين ناضل في سبيل معتقداته ومقدساته الدينية في بادئ الأمر ، غير أن هذه الفورة الدينية ما لبثت أن خمدت — إن لم تكن تلاشت — وحلت مكانها نظرة للصالح الذاتية عند الجانبين ، ومظهر هذا التطور الجديد هو استئناف العلاقات التجارية ، والتبادل التجاري ، بدرجة أنه تكونت في بلاد الشام أماكن لجاليات أوربية مختلفة ، ساعد على قيامها وجود كثير من بلدان الشام على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، فهي منافذ للتجارة بين آسيا وأوربة ، وأهم هذه الجاليات جماعة البنادقة الذين أسسوا لأنفسهم حياً معروفا باسمهم ، في كل ثغر من ثغور الشام الهامة ، وثبت لهم

هذا الحق بمقتضى الاتفاقية المعقودة بينهم وبين مملكة بيت المقدس سنة ١١٢٤ ، هذا إلى جانب ما كان لهم من القناصل في صور وجبيل وأنطاكية للإشراف على الفتاقد الموسومة باسمهم^(١) ، بل لقد ذهب البنادقة أبعد من ذلك ، حين صارت لهم امتيازات خاصة ، كعقد محاكم خاصة بهم للنظر في شئونهم القضائية ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أقاموا سجونا تضم المذنبين منهم^(٢) . وكان هؤلاء البنادقة يؤلفون مجتمعا قائما بذاته ، له قوانينه الخاصة ، وسجونه ، وكنائسه ، وفنادقه ، وقناصله ، وكان البنادقة يقطعون يمين الولاة لهذا القنصل دون غيره ، وهذا يفسر لنا علة وقوفهم أحيانا إلى جانب المسلمين في صراعهم مع الصليبيين ، محتجين بأنهم في حل من تأييد إخوانهم في الدين بهذه اليمين المقطوعة لغيرهم ، كما يلاحظ أن الأجانب الذين يقيمون في الحى البندقي يخضعون لأحكام الجمهورية ، مهما تكن جنسيتهم . وهناك أيضا جماعة التجار من أهل أمالني من أعمال إيطاليا ، وهم أنشط العناصر التجارية الأوربية ، ويرجع وفودهم إلى الشرق إلى ما قبل الحروب الصليبية بعدة قرون ، أعنى منذ القرن السادس لليلاد ، حيث أقاموا في بيت المقدس بيارستانا لمعالجة الحجاج والتجار الأوربيين الوافدين لزيارة البقاع المقدسة^(٣) .

وبلى هؤلاء في المرتبة جماعة الجنوبية ، ومركزهم الرئيسي بيروت ، وقد امتد نفوذهم إلى الداخل حتى بلغ بلدة سيس بأرمينية الصغرى ، فأقاموا بها البيوت وفندقا وكنيسة ، وحذا حذوهم جماعة البيازنة ، الذين أصبح لهم قناصل كما للجنوبيين منذ سنة ١١٧٠م في أنطاكية ثم في طرابلس بعد ذلك بربع قرن^(٤) .

Rey : Colonies Françaises en Syrie, p. 70 (١)

(٢) وذلك حسب اتفاقية يونيو ١٢٧٧ المبرمة بين بوهيمند السادس أمير أنطاكية وبين جاك كوتاريني دوق البندقية . راجع
Rey : Recherches sur la Domination Latine en Orient, p. 37.

Brehier : L'Eglise et l'Orient, p. 96 (٣)

Rey : op. cit. d'après Dol Borgo, Dip. Pisani, p. 85. (٤)

أما من الناحية الاجتماعية فهناك فئات ثلاث: هي الرقيق، والطبقة الوسطى، ثم طبقة الأشراف الصليبيين، ومنهم فئة حربية قوامها فئات الجند المختلفة، والعاملون في ميدان القتال على أية صورة.

أما العبيد، أو الرقيق، أو الأكارون — حسب ما تسميهم المراجع العربية — فيكادون يؤلفون مجتمعا قائما بذاته، وطبيعي أن يزداد عددهم يوما بعد يوم، تبعا للظروف المختلفة التي هي السبب في وجودهم، وكانت تجارة الرقيق نافقة السوق في تلك الأيام، يُقبل الأشراف على الانتفاع بها، ولا يتخرجون عن ممارستها، غير أن القائمين بها في العادة كانوا من التجار الجنزيرين والبنادقة الذين أثروا أثراء فاحشاً من جراء مزاوتها، ووصل مبعوثوهم إلى البلاد البعيدة، فبلغوا بلاد ما وراء النهر، وتأتت من جراء ذلك أن أصبح سوق الرقيق الذي يقوم عليه أهل جنوة والبندقية يضم أصنافاً مختلفة وأنماطاً متباينة، وألواناً غير متجانسة، فمنهم الأرمني والنوبى والقوقازى والفارسى والهندي والديلى، ومنهم اليونانى والروسى. وامتدت أعمال هؤلاء التجار حتى بلغت بلاد العرب ذاتها، فكانت جدة من الموانى الهامة التي عرفت بتجارة الرقيق الذي يجلبه إليها النحاسون من بلاد الحبشة، وهناك مراكز تجارية أخرى لتلك التجارة بالذات، وللرقيق الوارد من جورجيا وروسيا وإيران وأرمينية الصغرى. وكان القوم يقبلون على شراء الرقيق إقبالا عظيماً، تدل عليه مغالاة النحاسين في الأثمان، وكثرة الضرائب التي يدفعها التجار عن الرءوس التي يجلبونها، ونوعها.

على أن هؤلاء الرقيق كانوا يقومون — كما هو المفروض — بخدمة السيد، وتكون حياتهم رهن تصرفه، وقد انتشرت في البيئة الصليبية عادة ألفها بعض جماعات المسلمين، وهي استعمال الخصيان في الحريم، حيث يقومون بخدمة نساء الشريف وبناته، بينما يحرم ذلك على الخادم الأوربى أو العبد من أى جنس كان.

على أن هناك نوعاً آخر من الرقيق هو أسرى الحروب التي تشب بين المسلمين والصليبيين ، وأفراد هذا الفريق — إذا بقوا في أسر الشريف — أرغهم على احترام الزراعة والقيام بالحرف الصناعية التي يحتاجها السيد في مزرعته ، أو قهرهم على العمل في البناء^(١) ، غير أنه تحرم عليهم المتاجرة . وعلى الرغم من هذه القيود المفروضة على الرقيق فإنه كان محروماً من الحقوق^(٢) ، وكان الصليبيون يتمسكون أشد التمسك بوجوب تنصير العبد إذا حل ببقعة مسيحية ، وكان مولاه في الوقت ذاته مسيحياً ، وغير بعيد أن يحملوه على اعتناق مذهبهم الديني الخاص ، فإذا تنصر لم يجزوا بيعه أصلاً لمسلم مهماً أغلى^(٣) ثمنه ، ويرون في ذلك حطة للصليبي ، إن لم يكن خرقاً دينياً ، على حين كانت الحال على العكس إزاء رقيق الحرب ، فقد يقبل إطلاق سراحه إذا اقتدى^(٤) . وقد يذهب الصليبيون لعرض أسراهم على سراة المسلمين^(٥) ، أما الأسير من الأشراف فلا يسترق بحال من الأحوال ، لكن يحتفظ به للحصول على فدية كبيرة . وقد حدث في إحدى الممارك بين المسلمين والصليبيين أن أسر المسلمون روبرت صاحب حصن صهيون — الواقع بين اللاذقية وحماة — فلما جرى به إلى إيلغازى أمير ماردين رأى الأسير أن يفتدى نفسه بعشرة آلاف دينار ، فقال إيلغازى لمن حوله : « امضوا به إلى طغتكين لعله يفزعه فيزيدنا في القطيمة » ، فجاءوا به وهو يشرب ، فما رآه طغتكين حتى تناول سيفه وقتله ، فعتب عليه إيلغازى وقال : « نحن محتاجون إلى دينار واحد للتركان . وهذا كان قد قطع على نفسه عشرة

(١) راجع ابن جبير : الرحلة ، ص ٤٥٤ .

(٢) فيما يتعلق برقيق الأرض ، راجع ، p. Paris : Les Historiens des Croisades ، p. 8 .

(٣) Assises de Jerusalem, t. II, p. 141, 281 ; Archives de l'orient latin, t. I, p. 490 .

(٤) ابن منقذ : الاعتبار ، ص ٧١ .

(٥) ابن منقذ : شرحه ، ص ٨١ .

آلاف دينار ، أنفذته إليك لتفزع له لعله يزيدنا في القطيعة^(١) .

أما الفئة الثانية وهى الطبقة الوسطى فتألف من التجار والزراع وعمال الإدارات المختلفة، عدا الحرية والموظفون ، وكان التجار طبقة ممتازة، تخول من الحقوق ما لا يكاد تخوله بقية الفئات الأخرى ، لا ينظر فى ذلك إلى دين التاجر أو جنسيته ، حتى ليحدثنا أحد كتاب القرن الثانى عشر عما شاهده بنفسه من احترام المسلمين والصليبيين على السواء لتاجرين من كبار تجار المسلمين، هما نصر بن قوام ، وأبو درياقوت « فالقوافل صادرة وواردة ببضائعهما، وقد رُهما عند الفرنجة والمسلمين خطير^(٢) . كما كان يصرح للتجار بإقامة الخانات فى غير بلادهم ، تنزل فيها قوافلهم .

وينقسم الخان فى العادة إلى قسمين : الطابق الأسفل وينزلون به رحالهم ، أما الطابق العلوى فلا إقامة للتجار ذاتهم ، ويحسن أرباب البلد معاملة التجار « برفق وتؤدة ، دون تعنيف ولا حمل^(٣) » . ولم يكن للدين دخل فى هذه المعاملة ، ورغم ما قد يكون بين بلدين ما من الحرب إلا أن ذلك لا يقف حائلا دون استمرار الحركة التجارية والتبادل التجارى بينهما، وكان المألوف فى هذا العصر أن يطلب التجار المسلمون حماية جماعة محمية فى البلاد التى يدخلونها وتكون فى حوزة الصليبيين ، فلا يسهم أحد ما بسوء ، وهذا هو الشأن مع التجار المسلمين من أهل الموصل ، الذين كانوا يذهبون إلى عكا ، فيطلبون أن يكونوا تحت حماية فرسان الداوية ، كما أن التجارة قلّت من الحدة الدينية التى قد تكون بين الجماعتين ، إذ اعتاد القوم من صليبيين ومسلمين أن يعقدوا أسواقا تجارية سنوية ، يند إليها التجار دون نظر للفارق الجنسى أو الدينى^(٤) ، وقصة التاجر بن نصر وأبى در خير شاهد على هذا القول .

(١) ابن منقذ : الاعتبار ، ص ١١٩ — ١٢٠ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٤٥٤ — ٤٥٥ .

(٣) ابن جبير : شرحه ، ٣٤٩ .

(٤) G.T., p. 718.

كان من جراء اشتداد التنافس التجارى وارتفاع شأن الطبقة الوسطى. اضطرار الصليبيين إلى اصطناع الوظائف المختلفة، لا سيما التي كانت مألوقة عند المسلمين، وأهمها المحتسب، وقد أخذوها عنهم بلفظها ونصها^(١). وكان الصليبيون يؤثرون إيكال هذه الوظيفة إلى رجل مسلم، علما منهم بأن ذلك أقرب إلى طبيعة الأمور في بلد شرق إسلامي، وإلى جانب وظيفة المحتسب نشأت وظيفة أخرى اقتضاها تعدد الإدارات في العصر الصليبي هي استعمال السكتاب « ويتقلدها الموظفون من الصليبيين والمسلمين على السواء»، وعلى الرغم من أن كتاب الديوان (المحرك) في عكا من النصارى^(٢)، إلا أنه كان يتطلب منهم حذق العربية لسانا وكتابة، ورئيسهم يُعرف بالصاحب، كما أخذ الصليبيون عن المسلمين وظيفة «المستحفظ» وسموها Moafese^(٣)، وهكذا نرى أن الطابع الإسلامى كان بارز الملامح ملبوساً فى الإدارة الصليبية. وهناك كثير من الألفاظ فى التجارة والإدارة، يمكن ردها — دون تعسف — إلى أصولها العربية، وليس ذلك بالمستغرب فى بيئة كان لابد لها من أن تأخذ بقدر ما تعطى.

وأما الطبقة الثالثة فى المجتمع الصليبي فهى طبقة الأشراف والنبلاء ورجال الدين، وهى طبقة تعيش فى نعيم من الحياة يسرته لها أملاكها الشاسعة^(٤)، واحتفاظها بما ورثته من أوطانها الأولى وحملت معها إلى الشرق من الاعتراف بالإقطاع كنظام اجتماعى مفروغ منه، حتى لقد كان الشريف الصليبي فى بلاد الشام يفرض على أتباعه الإقطاعيين إمدادهم إياه بالخيول والجياد إذا مادعت الضرورة الحربية إلى ذلك^(٥). كم أن هؤلاء الأشراف

(١) ابن خلدون، المقدمة، الحسبة للشيزرى (تحرير السيد الباز العريق) غير مطبوع.

(٢) Brehier : L'Eglise et L'Orient, p. 94.

(٣) Arch. de l'Orient Latin, t. 1, p. 256.

(٤) Brehier : L'Eglise et l'Orient, p. 96 - 97

(٥) G.T., p. 975

استطاعوا اكتناز الثروات الضخمة من وراء اشتغالهم بالتجارة ، لاسيما مع بلدان الشرق الأقصى ، التي كانت صلاتها التجارية ببلاد العراق والشام ترجع إلى ما قبل الصليبيين بأكثر من قرنين ، وبلغت ثروة سورية مبلغاً عظيماً ، يدل عليه مقدار دخل بيت المال^(١) . كما أن المسلمين لم ينقطعوا أصلاً عن ركوب بحار الصين سعياً وراء ما اشتهرت به تلك البلاد من أجود أنواع الحرير الذي عم استعماله في بلاد الشام حتى كان مبتدلاً ، واتصلوا بالغرب ، فكانت حلب ودمشق وحمص وحماة معروفة لدى التجار الأوروبيين بأنها مراكز التجارة لهم^(٢) .

وهناك من مصادر الثروة المالية «الجمرك» أو الديوان كما يسميه المسلمون ، وقد تعددت مصادر دخله المالى ، فبعضه يجبي من القوافل لاسيما القادمة من مصر^(٣) وبلاد العرب القاصدة دمشق ، وهى قوافل متواصلة السير بين القطرين ، وكانت الضرائب تجبي على أحمالها في مدينة الداروم^(٤) ، وهى محطة للتفتيش والتقدير «والتكميس» ، كما كان الجمرك فى عكاصدر أساسياً من مصادر المال ، وقد وصفه لنا شاهد عيان بأنه «خان أمام بابه مصاطب مفروشة ، فيها كتاب من النصارى»^(٥) . كما كانت هناك جمارك أخرى فى معظم الثغور الصليبية^(٦) .

وهناك ناحية جديدة بالملاحظة ، تلك هى أن الصليبيين كانوا يعمدون فى بعض الأحيان إلى زيادة الضرائب المقررة ، وذلك حين تستنفد الحرب قدراً كبيراً من الثروة العامة ، وحين يشعر القائمون ببيت المال بحاجته الملحة

Rey : Colonies Fran. p. 264. (١)

Heyd : His. du Commerce du levant, t. 1, p. 373. (٢)

(٣) ابن جبير ، ص ٤٤٦ .

G. T. p. 975 (٤)

(٥) ابن جبير ، شرحه ص ٤٤٩ .

Heyd : op. cit. t. 1, p. 375, note 1. (٦)

إلى ما يسد هذا النقص (١) ، كما أنهم قد يفرضون ضرائب إضافية إذا دعت إحدى الضرورات الحربية ، كإقامة الأسوار أو ترميم الحصون ، دفعاً لأذى المغير (٢) .

وكان من مصادر المال « الأخشاب » ، وقد عرفت بلاد الشام منذ القديم بوفرة أخشابها وجودة نوعها (٣) ، وأهم هذه الأشجار أخشاب الجوز (٤) ، ولم يفتم هذا الصليبيين ذاتهم فأكثرها من زراعتها .

كانت حياة الأشراف - فيما عدا التجارة والحرب - أميل للدعة والتراخي ، وقد دفعهم إلى ذلك جو دافئ وفراغ كبير وإيثار للراحة ، وتوفر ضرورات الحياة وكالياتها ، فكانوا يعيشون عيشة فيها شيء من الانصراف عما تقتضيه ظروفهم المحيطة بهم (٥) من وجود المسلمين المتحفزين للوثوب عليهم ، واسترداد ما سلبوه منهم من الولايات والبلدان ، فكان الأشراف الصليبيون يعيشون في قصور فخمة ، تتألف في العادة من طابقين ، في وسطها من الداخل نافورة (٦) تتدفق منها المياه ، وهذا ما لا تزال نراه في بعض البيوتات المصرية التي لازالت شرقية في طرازها ؛ ويقارنها كثير من بيوت بغداد ، حيث توجد في وسط الدار ردهة متسعة غير مسقوفة . وكانت أرض قصور هؤلاء الأشراف محلاة بالفسيفساء ، وبماشها من المرمر ولها مشربيات ، وفي الداخل صالات فسيحة ، قد أبدعت يد الصانع العربي نقشها ، وتفنن في تلوينها بمختلف الأصباغ الزاهية . وعلى كل حال كانت هذه القصور تزيد في تلك النقوش

G. T., p. 1112 (١)

Assises de Jerusalem. t. II, p. 378. (٢)

G.T., p. 475 (٣)

(٤) ابن ميسر ، ص ٤٦٤ .

(٥) Barker : The Crusades, p. 48 - 99, 104

(٦) وكانت توجد في وسط الدار بركة ماء ، راجع أسامة : الاعتبار ، ص ١٠٧ .

والتهاويل حسب ثروة الشريف صاحب الدار (١) .
وهناك صورة شقيقة من صور الحياة الشرقية في العصور الوسطى ، وقد
كادت هذه أن تنقضى : تلك هي وجود الحمامات ، والذين زاروا بغداد أو
دمشق يلحظون تعدد هذه المساجح في هاتين العاصمتين ، وقد يعجب المرء أن
تتخذ هذه الحمامات نوادي يجتمع فيها المستحمون لتناول المشروبات
الساخنة ولتجاذب الأحاديث ، في جو شرقي يعبق بالدفء وأنواع الطيب ،
بل لا نغالي إذا قلنا إن كثيرا من المشكلات والصفقات قد تحل وتبرم
في هذه الحمامات ، وهكذا كانت الحال في بلاد الشام وقت احتكاكها
بالصليبيين ، وانتقل هذا إلى الصليبيين أنفسهم ، فكانوا لا يرون غضاضة في
غشيان تلك المساجح هم وزوجاتهم (٢) . وظاهر من تاريخ هذه الفترة أن المسلمين
وحدهم - دون الصليبيين - هم الذين كانوا يقومون بإدارة هذه الحمامات ، وقد
يغشاها الصليبيون أنفسهم ، غير أنه يمكن التمييز بين الجماعتين بأن الصليبيين
كانوا ينكرون شد المئزر على الوسط في الحمام ، الأمر الذي كان يشير في بعض
الأحيان مشادة ، أو يبعث على النكتة الرائعة والفكاهة اللطيفة .

أما الطبقة الحربية في المجتمع الصليبي فيعنيها منها المشاة ، ويتألفون من
رماة السهام والأقواس ، وحملة الفئوس والسيوف القصار التي يشدونها إلى زنار
حول أوساطهم ، ويصف لنا أحد الكتب المسلمين من شاهدوهم بأن رجالة
الصليبيين كانوا قسمين . قسم يسير أمام الخيالة ، وقسم مستريح يمشى ولا قتال
عليه ، فإذا تعب المقاتلة أو أئختهم الجراح قام مكانهم المستريح ، أما الخيالة فلا
يخرجون عن الرجالة إلا في وقت الحملة (٣) ، وأما المسلمون فيذهبون في أثناء

(١) هذا بجل وصف شاهد عيان ألماني ، راجع

Rey Colonies Fran., d' après Hermann, Chronol.

(٢) أسامة ، كتاب الاعتبار ، ص ١٣٦ - ١٣٧ .

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٥١ .

القتال إلى جعل الرجالة حول الخيالة^(١). وكان الصليبيون والمسلمون يبذلون عناية كبرى في انتقاء الجياد العربية الأصلية للسلم والحرب سواء، ولا يدخرون المال في سبيل اقتنائها مهما أغلى التجار أثمانها، وذاعت عندهم شهرة جياد «هما» القريبة من شيراز بإيران. وكان الشائع في هذا العصر استعمال النار الإغريقية التي لا تخمد إلا بالخل أو الرمل، وزاد المسلمون عليها استعمال الآلات لرمي المنجنيق، وكان هناك مهندس فني يعاونه جماعة من «الزرايين» المقاتلة؛ وقد يعتمد الأمراء أنفسهم للقيام بذلك العمل^(٢).

وفي منتصف القرن الثالث عشر عرف المسلمون البارود أو «ملح الصين» كما كانوا يسمونه، وترجع تسميتهم إياه بهذا الاسم إلى أنهم أخذوه عن الصينيين، أول من وقفوا إلى اكتشافه، وكان من الطبيعي لهؤلاء القوم — والعصر عصر حرب ونزال — أن يشتد اهتمامهم بانتقاء السلاح من حيث الصناعة والجودة والنوع، ومن المدن الهامة التي عرفت إذ ذاك بجودة صنع السلاح القاهرة حتى لقد كان يكفي أن يقال في العصر الوسيط «المصرية» تركية للسيوف^(٤)، وناضت دمشق القاهرة في هذه الناحية، وراح اسمها علما على نوع من السيوف الكريمة. هذا إلى أن الصليبيين عرفوا استعمال الجمال في الحرب، ورأوها في بعض المواضع أصلح من الجياد والصافنات، وقد تمسكنا من الوقوف على هذا بفضل مخطوط أرمني عثر عليه اليزروبرت الفرنسي في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، وعده «رى» وثيقة غالية تدل على استعمال الصليبيين للهجن.

كان من الواضح أن يتشبه الصليبيون بالمسلمين في ملابسهم وقد نزلوا بينهم^(٤) ونسى الكثيرون منهم لغتهم الأصلية وبلدانهم الأولى، حتى ليأخذ

(١) ابن شداد. شرحه، ص ٢٥١.

(٢) النوادر السلطانية، ص ١٠٩، ١٧٧.

(٣) H. Lamb: The Crusades, p. 292.

(٤) Rey: Colonies Fran., p. 90.

عليهم أحد مؤرخيهم أنهم « تبلدوا » وتزوجوا من أرمنيات وعربيات ، ويقول إن الصليبي قد يظله سقف واحد هو وأهل زوجته الأرمن أو العرب ، وأنهم أصبحوا « أسويين » ، وهو يعني بهذا أنهم أصبحوا « شرقيين » في عاداتهم وتقاليدهم ونمط حياتهم^(١). كما أنهم أخذوا عنهم استعمال « الكوفية » حول القبعة القصيرة الجوانب ، وعمدوا أيضا إلى إطالة ملابسهم وتحليلتها بالجواهر حسب مكانة المرء في قومه واختلاف المراتب^(٢)، كما كانوا يلبسون « الكلوثة » على رؤوسهم، ويؤثر عن بلدوين الأول (١١١٠-١١١٨) أنه على الرغم من قرب عهده بأوربة كان يؤثر استعمال الملابس الشرقية ، وكان يحمل أمامه بجن من الذهب محلي بالنسر^(٣) .

وكانت السيدات الصليبيات يأخذن عن الجو الشرقي الذي يتفتسن فيه مظاهر الحياة التي انطبعت صورها واضحة جلية في ملابسهن ، فكان يرتدين ما تلبسه أمثالهن من الصقليات اللاتي عاشرن المسلمات ، وتمتاز ملابسهن بأنها مجردة الأذيال ، وتتألف من قميصين مرسلين إلى القدمين^(٤) ، وكانت بعض طبقات الصليبيين تفرض على نساءها وبناتها — إذا بلغن الحلم — أن يضربن الخمار على وجوههن كما هو مألوف في البيئة الإسلامية وقتذاك ، ويأبون عليهن أن يخرجن إلى الأسواق سافرات ، بل إنهم ما كانوا يسمحون لهن بالخروج إلا للضرورة القصوى ، كالذهاب إلى الكنائس والحمامات . أما الرجال الصليبيون فقد أطلق بعضهم اللحي تشبها بالشرقيين ، وكانوا يستعملون النعال التي يستعملها المسلمون في بيوتهم^(٥) .

cf. Lamb : The Crusades, p. 262 (d'après Fulcher). (١)

Rey : op. cit. p. 11 — 12. (٢)

Brehier : L'Eglise et l'Orient p. 61. (٣)

(٤) راجع ابن جبير ، الرحلة ، ص ٤٥٣ .

(٥) يذكر Rey : op. cit. p. 16 note 2 أن نساء الطبقة الوسطى من أهل البندقية

كن يعشن عيشة شرقية خالصة ، بل إنهن ما كان يسمح لهن بالخروج حتى للكنائس نظراً لوجودها ملحقة في قصورهن . أما فيما يتعلق بأوجه الشبه بين مملكتي صقلية وبيت المقدس

أثناء القرن الثاني عشر فراجع Barker : op. cit. p. 40, note 1.

ولم تكن العلاقات بين المسلمين والصليبيين علاقات عداء ونضال دائما، بل كانت هناك فترات من السلم والتآخي، تزول فيها الحزازات، وينقلب النضال إلى مودة وإلى أخوة عجيبة بين الفريقين، تستوى في هذا الطبقات المختلفة من البيثتين، وكتاب أسامة ابن منقذ حافل بهذه الصور المشرقة عن الفروسية في تلك العصور ويبيان مدى الارتباط بين الجماعتين، وحسبنا أن نشير إلى أن الصليبيين كانوا يحسنون معاملة من عندهم من الموظفين المسلمين^(١)، كما كان المسلمون يؤثرون أن يكونوا في البلد الصليبي في حماية جماعة فرسان الداوية فلا تنالهم يد سوء في أنفسهم وأموالهم ومتاعهم، وقد تدفعهم العلاقات الودية إلى تبادل الهدايا فيما بينهم رغم ما قد يكون بينهم من حروب عنيفة قاسية، كما حدث من إرسال صلاح الدين إلى ريموند الثالث أمير طرابلس مجموعة من الجياد والأسلحة، بعد أن أطلقه من أسر نور الدين^(٢).

كان القوم إذ ذاك يهتمون بالغ الاهتمام بالمحافظة على الشرف، وإن أقل طعنة يطعنها الفارس لتقرح لها عيناه إن لم يدفعها، فإن دفعها عاد قرير العين مثاوج الفؤاد^(٣)، يستوى في ذلك الرجال والنساء؛ وقد صور أسامة أمه « ذات نخوة أشد من نخوات الرجال »، إذ عمدت إلى ابنة لها أجلستها على حافة الوادي وتهايات لإلقائها على صخراته إذا هاجم الحشاشون دارها، كما أن النساء كن لا يغبن عن القتال بل يباشرنه مباشرة الرجال الفرسان له^(٤)، بل إنهن كن يقفن وسط الخيل^(٥).

ومع ما انطبع عليه القوم من الفروسية والبطولة إلا أن العصر لم يكن

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٤٤٧ .

(٢) شرحه ، ص ٤٥٥ .

(٣) الاعتبار ، ص ٣٦ - ٣٧ .

(٤) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٢٣ - ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٩ .

(٥) راجع القسم الأول من قصة بركة في الاعتبار ، ص ١٢٢ .

خاليا من المعتقدات الزائفة ، فقد ذكر أسامة أن قائداً تركياً اسمه «برشك» زعم أن هناك شقا في مسجد لا يستطيع دخوله ولد زنا ، وأصر التركي على رأيه إصراراً حمل أسامة على مجاراته ، رغم أنه « ما يصدق ما قاله » ، وتابعه أكثر العسكر في هذا الرأي الموهوم ، واضطر إلى تجربة المسألة تجربة اطمأنت لها نفسه ونفوس من حوله (١) . ومثل هذا ما رواه أسامة أيضاً من أن أخاه عز الدولة أبا الحسن اشترى حصانا كريماً ، ثم أخرجه في ضمان قرية كانت بين بني منقذ وبين فارس صليبي من كفر طاب ، فبقي الجواد عند الصليبي سنة ثم مات بعدها ، فبعث يطلب ثمنه من بني منقذ ، متذرعاً « بأنهم سقوه شيئاً يموت منه بعد سنة (٢) » ، وكذلك ما يزعمه القوم إذ ذاك من أن جريح النمر يموت إذا بال عليه الفارة (٣) .

وامتاز العصر الوسيط في الشرق والغرب بالفروسية ، سمة بارزة له ، وكان الصليبيون لا يستطيعون نقض أمر أبرمه الفرسان ، بل إن الملك الصليبي نفسه لا يستطيع له نقضا (٤) . والظاهر أن الفروسية اختلطت عندهم بالتربية الاستقلالية ، فعمدوا إليها ينشئون عليها أبناءهم ، وإن من مبادئ التربية الحديثة أن نهىء للطفل فرصة الوقوف على الشيء بنفسه دون أن تنهيه عنه خوفاً عليه وإشفاقاً به ، فقد حدثت أسامة أنه رأى حية على جدار ، فتناول سلباً صعدها إليها وحز رأسها على مرآى من أبيه الذي ما نهاه عما هو آخذ بسبيله وما فيه من الخطر المحقق عليه . وهذه التربية هي التي كانت تحملهم على الخروج للقنص ، حتى لقد كان الصيد — رغم أخطاره — أحب رياضة إلى القوم إذ ذاك ، وهي رياضة فيها كثير من أعمال الحركة والتفكير المستقيم ، لما تتطلبه بعض المواقف من سرعة البديهة وحضور الذهن ، وهذه الرياضة ذاتها هي التي مكنت رجلاً مثل أسامة

(١) أسامة ، شرحه ، ص ١٥ .

(٢) أسامة بن منقذ ، شرحه ، ص ١٥ ، ١٧ .

(٣) شرحه ، ص ١١١ .

(٤) راجع الاعتبار ، ص ٦٥ .

أن يلم للمامة غير ضئيلة بطباع الضواري^(١).

ولم تخل روح هذا العصر من النكتة الرائعة اللطيفة، ترسل على لسان الصعلوك أو الأمير، وقد تكون أشد وقعاً من السهام، ألا ترى إلى قول ابن الأثير في معرض تهكمه بأحد الصليبيين إذ يشبهه بالشعامة خرجت تطلب قرنين فعادت بلا أذنين^(٢). ويروى أحد المؤلفين المسلمين أن فارساً صليبياً من شياطين الإفرنج اسمه سير آدم كان على كنيسة حناك، وكان هناك نمر روع أهل تلك الناحية وعز صيده على الكثيرين وخافوا منه، فكبر الأمر على سير آدم، وطلب إلى القوم أن يعلموه بخبره إن عاد للظهور فأطاعوه، فخرج إليه، فوثب عليه النمر فقتله، فراح الفلاحون ينعمون النمر بالنمر المجاهد^(٣). وشيبه بها قصة الحمار الذي حملة أسامة أربعة آلاف دينار، فانطلق يسابق الريح، حتى إذا فقد الخرج منه عاد إلى الدار حيث مربطه، كأنما « كان قصده أن تضيع أربعة آلاف دينار »^(٤) وكذلك تعليق أسامة على قصة الرجل الذي أدخل ابنته الحمام مع القوم.

على أن هناك جانباً جديداً في الحياة العامة ذلك هو التطبيب؛ وقد عنى المسلمون ومن قبلهم العرب منذ العصر الجاهلي بهذا الجانب^(٥)، والطب في العصر الصليبي مجموعة من التجارب، أنزلها مرور الأيام منزلة الحقائق والبدهييات، رغم ما ينطوى عليه من البطلان الواضح والجهل الملموس، ونحن وإن كنا لا نستطيع الحكم على قيمة « الوصفات » العلاجية التي نراها في ذلك العصر، إلا أنه لا شك أنها تعطينا صورة واضحة عن تفكير القوم العلاجي، وهي إلى جانب ذلك تبين لنا قيامها على التجربة، من ذلك أن رجلاً من المسلمين كان مصاباً بالقيلة، فنزل على حى من أحياء العرب في بادية

(١) انظر الدكتور فيليب حتى في مقدمته العربية لكتاب الاعتبار.

(٢) أسامة ابن منقذ، كتاب الاعتبار، ص ١١.

(٣) أسامة ابن منقذ، شرحه، ص ١٤.

(٤) Browne : Arabic Medicine, p. 7 — 10; et la trad. Française par Dr. (٤)

Renaud, p. 10 — 12.

السماء ، فاستضافوه بضيور لم يدر كنهها ، حتى إذا هوَّم النوم أفاق ، وقد زالت القيلة ، فسألهم عما طبخوه له ، فقالوا له إن هي لإفراخ غربان ، فلما بلغ الرجل بغداد دخل على متولى بيارستانها ، وروى له قصته ، فجاء بأفراخ غربان لمن بهم هذه العلة فاشفوا . وهذه القصة تبين لنا قيام الطب في البيئـة الإسلامية على الناحية التجريبية^(١) وكان المسلمون يداوون بعض الأمراض بالخل ، ويعرفون الفارق بين البرص وحب الصبا ، ويدركون ما في البيض من قيمة غذائية وعلاجية تشفى الخراج^(٢) . ولقد تقدم الطب في أخريات القرن الثاني عشر وطوال القرن الثالث عشر ، وهو القرن الذي شهد حركة في التأليف العلمي في هذه الناحية^(٣) . وكثرت في بلاد العالم الإسلامي المستشفيات والمارستانات^(٤) .

وينقسم الطب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر إلى قسمين ، أحدهما ضرب يمارسه من لا باع له فيه ، وآخر يقوم على الناحية العلمية الدقيقة ، وهو في الحالين يتوقف على مهارة المطيب ، وقدرته ، وحسن تصريفه لما هو أمامه ، والظاهر أن الصليبيين كانوا يدركون تقدم الطب عند المسلمين ، فقد بعث صاحب أحد الحصون إلى عم أسامة ، يطلب منه أن ينفذ إليه طبيباً عربياً ، يداوى بعض أصحابه ، فبادر بإرسال طبيب نصراني اسمه ثابت ، ورغم مقدرة ثابت الطيبة ، إلا أنه عز على أحد المطببين الصليبيين أن يترك الميدان لعربي ، فقام بيتر ساق المريض بالفأس ، وضربها ضربة أسالت مخ الساق ، ومات صاحبها من ساعته ؛ كما أن هذا المطيب الصليبي ذاته عمد إلى سلخ رأس امرأة ، وحك عظامها بالملح ، ليُذْهب عنها الجنون ،

(١) الاعتبار ، ص ١٨٢ .

(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ١٨٢ .

(٣) أمثال كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ، وتاريخ الحكماء

لابن الفظلي ، التوفى سنة ١٢٤٨ .

(٤) Browne : Arabic Medicine, p. 100 — 102. (٤)

فاذهبها هي والجنون إلى غير رجعة^(١). كذلك كان الصليبيون يتخذون لهم أطباء خصوصيين من بين العرب^(٢).

على أنه كان إلى جانب هذا الضرب من الدجالين جماعة من الأطباء الصليبيين المهرة، بشهادة المسلمين أنفسهم، وفيهم من لا يطلب على علاج مرضاه أجرأ، حتى ولو كان من المسلمين، فقد ذكر أسامة أنه كان بشيرز رجل اسمه أبو الفتح، وله ولد قد طلعت في رقبة خنازير، كلما ختم موضع فتح موضع، وشاءت الظروف أن يقدم إلى أنطاكية، وأن يلتقى برجل أفرنجي اطلع على الغلام، فقال لأبيه «تحلف لي بدينك إن وصفت لك دواء يبرئه، لا تأخذ من أحد تداويه به أجر» ثم وصف له أشنانا عير مطحون، يحرقه ويربّه بالزيت والخل والحاذق، ثم يضعه على حيث الخنازير، فيبرأ الغلام، واستفاد أسامة نفسه منه، في أنه «داوى به من طلع فيه هذا الداء فنفعه، وأزال ما كان يشكوه»^(٣).

ولم يخجل العصر — رغم وجود كثير من أعلام الطب فيه — من الإيمان بقدررة القسس على الشفاء، فقد حدث في ذات مرة أن مرض أحد الفرسان الصليبيين، فعرضوه على قس، إيماناً ببركته وقدرته على شفاء الفارس، فلما رأى القس المريض ليس شمعاً، وسد به أنف الفارس، فأراحه الراحة الأبدية^(٤).

* * *

ومن النواحي الطريفة التي تمثل الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في القرن الثاني عشر حفلات الزواج عندهم، ويدعى إليها المسلمون والمسيحيون على السواء، ويختلط الرجال فيها بالنساء، وقد حضر ابن جبير الرحالة إحدى

(١) أسامة بن مقذ: شرحه، ص ١٣٢ — ١٣٣.

(٢) Lamb: op. cit. p. 261.

(٣) الاعتبار، ص ١٣٣ — ١٣٤.

(٤) شرحه، ص ١٣٧ — ١٣٨.

هذه الحفلات ، وترك لها وصفاً دقيقاً ، إذ ذكر أن الرجال والنساء قد اصطفوا صفين عند باب العروس ، وراحت الأبواق والمزامير وجميع آلات اللهو تضرب بين يديها ، حتى خرجت بين رجلين يمسانها من يمين وشمال ، والعروس في أبهى زى وأنغر لباس ، تسحب أذيال الحرير ، وعلى رأسها عصا به من ذهب ، قد حفت بشبكة ذهب منسوجة ، ومثلها على لبتها ، وأمامها جلة رجالها من النصارى في أنغر ملبسهم ، ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات ، والمسلمون وسائر النصارى من النظار قد عادوا في طريقهم سباطين يتطلعون فيهن ، ولا ينكر عليهم ذلك ، وساروا بها حتى أدخلوها دار بعلمها ، وأقاموا يومهم ذلك في وليمة ^(١) .

ولم تكن دعوة المسلمين إلى أمثال هذه الحفلات شيئاً منكوراً ، فهم في السلم « أخوة » ، حتى لنرى رجالاً من الفريقين يتآخون ، أو ينادى كل منهما صاحبه بـ « يا أخى » ^(٢) بل لعل الأغرب من ذلك أن الفريقين يصلون في بقعة واحدة في عكا ، حيث كان بها مسجد ، أبقى محرابه على حاله ، ووضع الصليبيون في شرفه محراباً لهم ، « فالمسلم والكافر يجتمعان فيه ، يستقبل هذا مصلاه ، وهذا مصلاه ^(٣) » كما أن المسجد الأقصى ، وقد أصبح بيد الداوية ، قد جعل الصليبيون من أحد أجزائه كنيسة لهم ، فكان أسامة إذا وفد على بيت المقدس دخل هذه الكنيسة ، « وأخلى له الداوية ذلك المسجد الصغير ليصلي فيه ^(٤) » ، وتوثقت وشائج المودة بين أسامة وبين الداوية ، حتى ليسميه « أصدقائي » ^(٥) . وكان المسلمون يحمدون سيرة حكمهم الصليبيين ، حتى ليتأسف أحد الكتاب ، فيرى أن هذه « من الفجائع

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٤٥٣ ، وراجع وصف الحفلات الإسلامية وجلوة العروس

في الاعتبار ، ص ١٧١ — ١٨٠ .

(٢) أسامة : الاعتبار ، ص ١٣٢ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٤٥١ .

(٤) الاعتبار ، ص ١٣٤ — ١٣٥ .

(٥) الاعتبار ، ص ١٣٤ .

الطارئة على المسلمين ، أن يشتكى الصنف الإسلامي فجور صنفه المالك له ،
ويحمد سيرة ضده وعدوه من الإفرنج ، ويأنس إلى عدله (١) ، كما كانت
فروسية المرء تقرّبه وتدنى منزلته من القلوب حتى ولو كانوا من الملوك ،
كما حدث لأسامة من أنه حضر مجلسا لفولك الخامس ملك بيت المقدس
(١١٣١—١١٤٢) فقال له الملك «وحق ديني لقد فرحت فرح عظيم» فأجابه
أسامة «الله يفرّح الملك ، لماذا فرحت؟» قال «قالوا لي إنك فارس عظيم (٢)» .
ولعل أجمل الصور القلبية التي توضح لنا جانب الأخوة بين المجتمعين الصليبي
والإسلامي ، مارواه أسامة بن منقذ ، من أن روجر أمير أنطاكية
كان قد بعث رسولا من قبله إلى مملكة بيت المقدس في شأن خاص له ،
وخاف روجر على الرسول عادية الطريق ، فكتب إلى عم أسامة كتابا
يقول له فيه « أسألك أن تنفذ خيلك تأخذه من أفامية إلى رمنية (٣) » ، والذي
يعنينا من هذا الخبر دلالاته الصريحة على المودة التي تربط بين رجال كلا
الفرقتين ، والظاهر أن العلاقات الودية كانت بين أبي أسامة وعمه ، وبين
كبار الصليبيين ، لاسيما بلدوين أمير أنطاكية (٤) .

ولقد كان من المعروف في هذا العصر استعمال حمام الزاجل ، فقد
استعمله نور الدين في بعض حروبه (٥) ، ولم يفهم استعمال القذاحة
لإشعال النار .

وبعد ، فهذه صورة موجزة من الحياة التي كان يحياها المسلمون
والصليبيون في خلال قرون الحروب الصليبية .

(١) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٤٤٨ .

(٢) الاعتبار ، ص ٦٥ .

(٣) الاعتبار ، ص ٨٧ .

(٤) شرحه ، ص ١١٩ — ١٢٠ .

(٥) كتاب الروضتين ، ص ١٥٦ من الطبعة الأوربية .

ثبت

ثبت باختلاف رسم الأعلام في المراجع العربية والفرنجية في العصور الوسطى

Ainardus	أئر	Civiot	هرسك
Albara	ألبارة	Coible	الحوابي
Alexandrette	اسكندرونه	Cressum	كيسون
Amaurri	أمورى . عمورى . مرى	Dargan	ضرعام
Apamée	أفامية	Demenhut	دمنهور
Artesie	أرتاح	Doliche	دلوك
Arzen	أرضروم	Emése	حمص
Ascanios	بحيرة لزنك	Ermis	الأرمن
Atareb	الأتارب	Erzeramus	أرضروم
Aynart	أئر	Escalone	عسقلان
Aynarz	أئر	Eski-Alep	ففسرين
Babiloine	القاهرة	Fons Muratez	معرمة
Baccar	البقاع	Fons Murez	»
Barzuyia	قلعة البرزة	Gaban	جبن (قلعة على أحد فروع جيحون)
Baudas	بغداد	Gaktha	كياكية (حصن افتتجه جوسلين الثاني على شاطئ الفرات)
Beben	البايين (موقعة)	Gaveras	خوريل صاحب ملطية
Belda	بلدة	Germanicée	مرعش
Bersaphut	بصرفوت	Gerwase	جرفاس (قائد أسره ظهير الدين أتاكب دمشق وقتله بها)
Bethsan	بيسان	Giraut de la Liche	جيرار اللاذق
Bile	ألبيرة	Graieus	الإغريق
Bire	»	Habesce	العباسية
Biredjik	»	Habeys	عباس الصنهاجى
Biréjik	»	Haly Maiores	الإمام على
Bir-el-Cani	بير العيش	Harenc	حارم
Borgoldus	آق سنقر البرسقى	Hasart	عزاز
Bokobeis	قلعة كيبس	Hascebi	قرية الحشب
Borsequinus	آق سنقر البرسقى	Hatab	عينتاب
Borses	»	Hazarth	عزاز
Bouchie	البقاع	Heus	البرج
Cahaire	القاهرة	Hiaroquin	حسام الدين قمر تاش أمير ماردين
Cahere	»	Hierapolis	مبنىج
Calquis	ففسرين	Jéricho	أريحا
Caphorda	كفرطاب	Koradi	تل الأكراد (حصن)
Cave-Roob	وداى الراهب	Lacun	الأكمة
Cerep	أتارب	Lamonie	النبا
Chalcis	ففسرين	Laodicée	اللاذقية
Chipre	قبرص		
Cité Bernard d'Etampes	درعات		

Larissa	شيرز	Salihadins	صلاح الدين
Larris	العریش	Samosac	سيماسط
Lattaquia	اللاذقية	Samosate	»
Mamistra	المصيصة	Sardenas	زردانة
Margat	المرقب	Sardone	»
Martyropolis	ميافا رقين	Sarmit	سرمين
Menehut	دمنهور	Savar	شاور
Meliténe	ملاطية	Sayete	صيدا
Missis	المصيصة	Sebaste	سبواس
Mopuesta	»	Siha	الشعبة
Morés	مرعش	Siracons	شيركوه
Mulane	مولانا (كناية عن شاور)	Sur	صور
Musa paradisi	شجر الموز	Surie	سورية . بلاد الشام
Naybes Sorns	كفيل السلطنة . نائب السلطان	Surien	السرمان
Neherellus	نهر العجوز	Surie Sobal	وادي عربية
Néocesarée	قلعة نيكسار	Syracons	شيركوه
Népa	أنب	Tanoshman	دانشمند
Nicée	أزنيق	Tantayos	ألتوتاش
Nicomédie	أزميد	Tell Achichan	تل المعطشان
Nosaredins	الناصر قاتل الظافر	Theodosiopolis	أرضروم
Nouceiry	»	Torage	تروجة
Omfroy	الهنفري	Tourtouge	»
Qarram	حران	Tulupe	دلوك
Quiryacos	قرباقوس	Tur	الترك
Rames	الرملة	Turbessel	تل باشر
Ravendel	راوندان	Zibel	جبله

المراجع العربية

- ابن الأثير — عز الدين أبو الحسين علي (+ ٦٣٠ هـ) :
(١) الكامل في التاريخ (المطبعة الأزهرية المصرية ، سنة ١٣٠١ هـ) ، ج ١٠ ، ١١ ؛ وفي مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، ج ٧ .
(ب) أتابكة الموصل (مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية للمسلمين) ، ج ٢ ، سنة ١٨٤٤ .
- ابن أيبك — أبو بكر بن عبيد الله (+ حوالي ٧٠٩ هـ) :
درر النيجان ، وغرر تواريخ الأزمان — (تصوير شمسي بدار الكتب المصرية ، رقم ٢٦٠٥ تاريخ) .
- ابن جبير :
نبذة من رحلة ... (مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية للمسلمين ، ج ٣) .
ابن الجوزي — الحافظ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن (+ ٥٩٧ هـ) :
(١) شذور العقود ، في تاريخ العمود . (تصوير شمسي بدار الكتب المصرية ، رقم ٩٩٤ تاريخ) .
(ب) المنتظم في أخبار الأمم (تصوير شمسي بدار الكتب المصرية ، رقم ١٢٩٦ تاريخ) .
- ابن خلدون — عبد الرحمن بن محمد (+ ٨٠٦ هـ) :
العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، في أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر (طبع بولاق سنة ١٢٨٤ هـ) .
- ابن خلكان — شمس الدين أبو العباس أحمد (+ ٦٨١ هـ) :
وفيات الأعيان ، وأنباء أبناء الزمان (مجلدان ، طبع بولاق ، سنة ١٢٧٥ هـ) .
- ابن دقاق — إبراهيم بن محمد بن أيدير (+ ٨٠٩ هـ) :
الجواهر الثمين ، في سير الملوك والسلاطين (مخطوطة بدار الكتب المصرية ، رقم ١٥٢٢ تاريخ) .
- ابن الشحنة — أبو الفضل محمد (+ حوالي القرن التاسع الهجري) :

- الدر المنتخب ، في تاريخ مملكة حلب (بيروت ، ١٩٠٤ م) .
ابن شداد - القاضي بهاء الدين (+ ٦٣٢ هـ) :
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية
المسلمين ، ج ٣) .
- ابن العديم - عمر بن عبد العزيز بن أبي جرادة (+ ٦٦٠ هـ) :
(١) بغية الطلب في تاريخ حلب (مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ،
ج ٣) .
(ب) منتخبات من تاريخ حلب (شرحه) .
ابن العماد الحنبلي - عبد الحى بن أحمد (+ ١٠٨٩ هـ) :
شذرات الذهب ، في أخبار من ذهب ، ج ٤ .
ابن الفلانسى - أبو يعلى حمزة (+ ٥٥٥ هـ) :
ذيل تاريخ دمشق ، (نشره أمدرود . طبع بيروت ، ١٩٠٨ م) :
ابن ميسر - أبو عبد الله محمد بن على (+ ٦٨٧ هـ) :
منتخبات من أخبار مصر (مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، ج ٣) .
ابن واصل - القاضي جمال الدين (+ ٦٩٧ هـ) :
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (تصوير شمسي بدار الكتب المصرية ،
رقم ٥٣١٩ تاريخ) .
أبو شامة - شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن (+ ٦٦٥ هـ) :
الروضتين في أخبار الدولتين ، جزءان (مطبعة وادى النيل بالقاهرة ،
سنة ١٢٨٨) ومنتخبات منه في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، ج ٤ .
أبو الفداء - الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل (+ ٧٣٢ هـ) :
المختصر ، في أخبار البشر (الأستانة ١٢٨٦ هـ) :
أبو المحاسن - ابن تغرى بردى (+ ٨٧٤ هـ) .
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ٦٠٥ (طبع دار الكتب
المصرية بالقاهرة) .
أسامة بن منقذ (+ ٥٨٤ هـ) :

- كتاب الاعتبار (نشره الدكتور فيليب حتى) ، طبع جامعة برنستون
بالولايات المتحدة الأمريكية ، سنة ١٩٣٠ م .
- البيدارى - الفتح بن على (+ حوالى ق ٥٧) :
مختصر تاريخ دولة آل سلجوق (طبع مطبعة الموسوعات القاهرة
سنة ١٣١٨ هـ) .
- جمال الدين الوزير - أبو الحسن على بن كمال الدين (+ ٦٢٣ هـ) :
الدول المنقطعة (تصوير شمسى بدارالكتب المصرية ، رقم ٨٩٠ تاريخ) .
- حبشى - حسن :
الحرب الصليبية الأولى (مذيلة بالترجمة العربية الكاملة للحوليات الفرنجية
Gesta Francorum) (مطبعة الاعتماد ، ١٩٤٧) .
- حسن - الدكتور حسن ابراهيم :
الفاطميون فى مصر ، وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص (المطبعة
الأميرية بالقاهرة ، سنة ١٩٣٢ م) .
- الذهبي - الحافظ شمس الدين أبو عبد الله (+ ٧٤٨ هـ) :
تاريخ الإسلام ، وطبقات المشاهير والأعلام (مخطوط بدار الكتب
المصرية ، رقم ٣٨٦ تاريخ) .
- سبط بن الجوزى - شمس الدين أبو المظفر يوسف (+ ٦٥٤ هـ) :
منتخبات من مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان (مجموعة مؤرخى الحروب
الصليبية ، ج ٣) .
- العصامى - عبد الله بن حسين بن عبد الله (+ ١١١١ هـ) :
سمط النجوم العوالى ، فى أنباء الأوائىل والنوالى ، ج ٢ ، (مخطوطة بدار
الكتب المصرية ، رقم ٥٣ م تاريخ) .
- المقريزى - تقى الدين أحمد بن على (+ ٨٤٥ هـ) :
(أ) السلوك لمعرفة دول الملوك (نشره الدكتور زبادة ، طبع دار
الكتب المصرية ، سنة ١٩٣٤ م) .
(ب) المواعظ والاعتبار ، بذكر الخطط والآثار (بولاق ، سنة ١٢٧٠ هـ) .
- ياقوت - شهاب الدين أبو عبد الله الرومى (+ ٦٢٦ هـ) :
معجم البلدان (طبع السعادة بالقاهرة ، ١٣٢٢ هـ) .

المراجع الأجنبية

- Archives de l'Orient Latin, 2 Vols (Paris)¹
Assises de Jerusalem, t. II, (R. H. Occ. Cr.)*
Barker, Ernest : The Crusades (London, 1939).
Basile, Dr., :
Oraison Funebre de Baudoin (R. H. Occ. Cr.) Doc. Arm. t. I.
Brehier, Louis : L'Eglise et l'Orient au moyen age, les Croisades,
(Paris, 1921).
Browne, Edward : Arabian Medicine (Cambridge, 1921).
La Médecine Arabe (trad. franç. par H. P. Renaud, Paris, 1932).
Chalandon, Ferdinand :
1. Comnènes t. II, (Paris 1908).
2. Essai sur le règne d'Alexis 1^{er} Comnène. (Paris, 1900).
Derenbourg, Hartuig :
1. La Vie d'Ousama, 3 Vols. (Paris)
2. Autobiographie d'Ousama (R. O. L., 1894).
3. Oumara du Yemen, sa vie et son oeuvre (Paris, 1897).
Diehl, Charles : Figures Byzantines, t. II, (Paris, 1909).
Dussaud, René : Topographie Historique de la Syrie Antique et
Medievale. (Paris 1927).
Duval, Rubens :
Histoire Politique, Religieuse et Littéraire d'Edesse jusqu'à la
première Croisade. (Journ. Asiat., 1892).
Gesta Francorum. (ed. et trad. Par Brehier).
Gaudefroy — Demombynes : La Syrie à l'époque des Mamelouks
d'après les auteurs Arabes (Paris, 1923).
Gibb, Hamilton A. R. : The Damascus Chronicle of the Crusades.
(Lond., 1934).
Grousset, René : Histoire des Croisades et du Royaume Franc
de Jerusalem. t. II. (Paris, 1934).
Heyd, Guillaume :
Histoire du Commerce du Levant au moyen age. t. I, (Leipzig, 1923).
Cregoire le Prêtre : Chroniques (Doc. Arm., t. I).

* R. H. Occ. Cr. = Recueil des Historiens Occidentaux des Croisades.,
R. O. L. = Revue de l'Orient Latin.

Gilluaume de Tyre : (G. T.), *Historia* — (R. H. Occ. Cr.) t. VI.

Jorga, (N.) : *Brève Histoire des Croisades et de leurs Fondation en Terre Sainte* (Paris, 1924).

Lamb, Harold : *The Crusades : Iron Men and Saints*, (New York, 1942). Lane-Poole, Stanley :

1) *History of Egypt in the Middle Ages* (London, 1924).

2) *Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem* (London, 1893).

Lavisse. Ernest, *Histoire de France depuis les origines jusqu' à la revolution*, t. III, partes I et II. (Paris, 1923).

Le Strange, Guy :

1) *Palestine Under the Moslems* (Lond., 1890).

2) *The Lands of the Eastern Caliphate* (Cambridge, 1930).

Matthiew d'Edesse : *Chroniques* (Doc. Arm., t. I).

Michel Le Syrien : *Chroniques*. (Doc. Am. t: I).

Paris (P.) *Historiens des Croisades*, (Paris).

Précis de l'Histoire d'Egypte, t. II, (Le Caire, 1932).

Raymond d'Agiles :

Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem. R. H. Occ. Cr. t. III.

Rey. D.

a) *Les Colonies Françaises de Syrie aux XII^e et XIII^e siècles* (Paris, 1883).

b) *Les Familles d'outre-mer* (Paris. 1839).

c) *Resumé Chronologique de l'Histoire des Princes d'Antioche*. (R. O. L. 1896).

c) *Les Dignitaires de la Principauté d'Antioche* (R. O. L., 1900 — 1901).

e) *Les Seigneurs de Berut* (R. O. L., 1896).

Riant, P. :

Hist. de l'Eglise (R. O. L. 1900).

Schlumberger, Gustave :

a) *Les Campagnes du roi Amaury 1^{er} de Jerusalem en Egypte* (Paris, 1906).

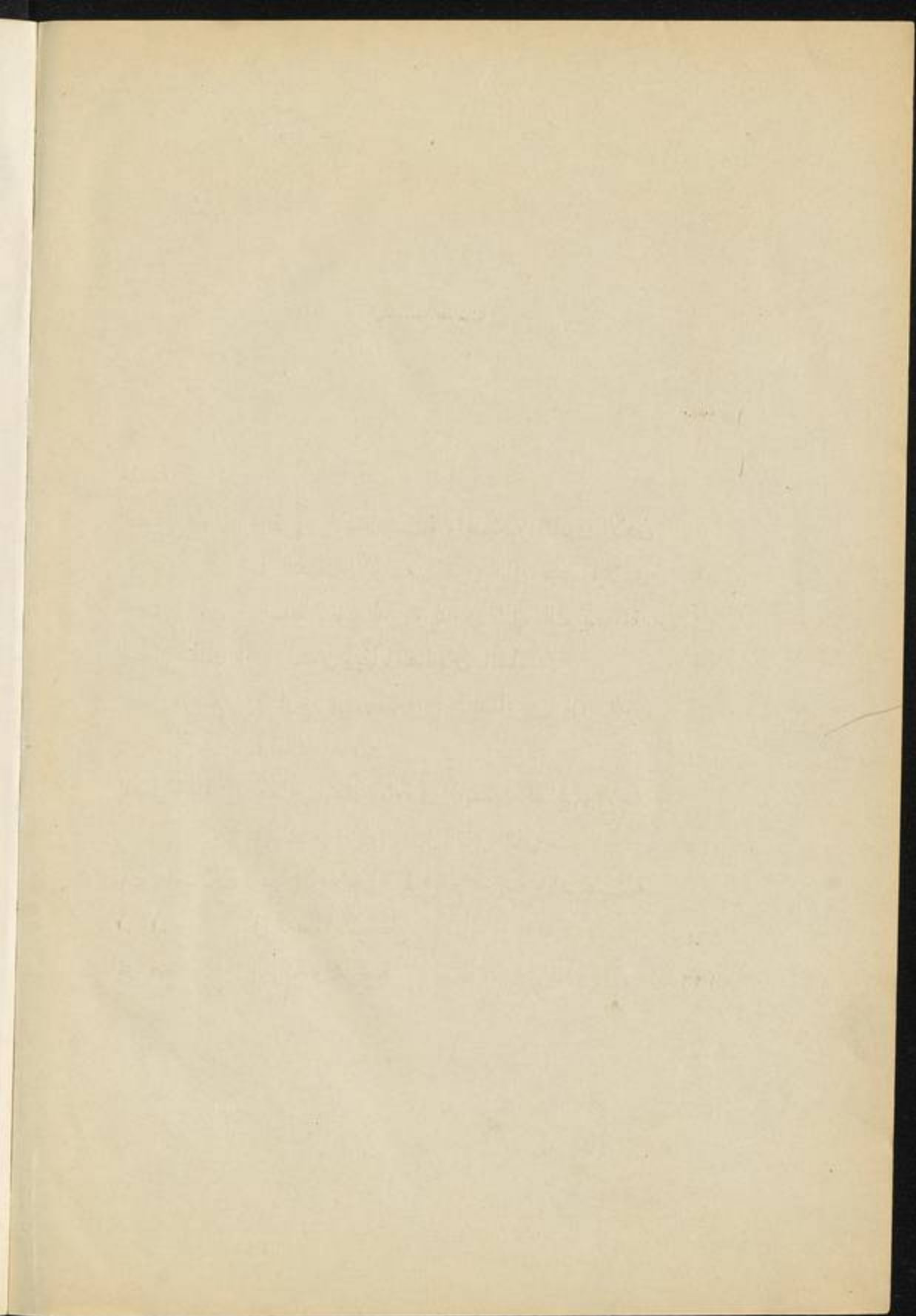
b) *Renaud de Chatillon, Prince d'Antioche, Seigneur de la terre d'outre Jourdain* (Paris, 1923).

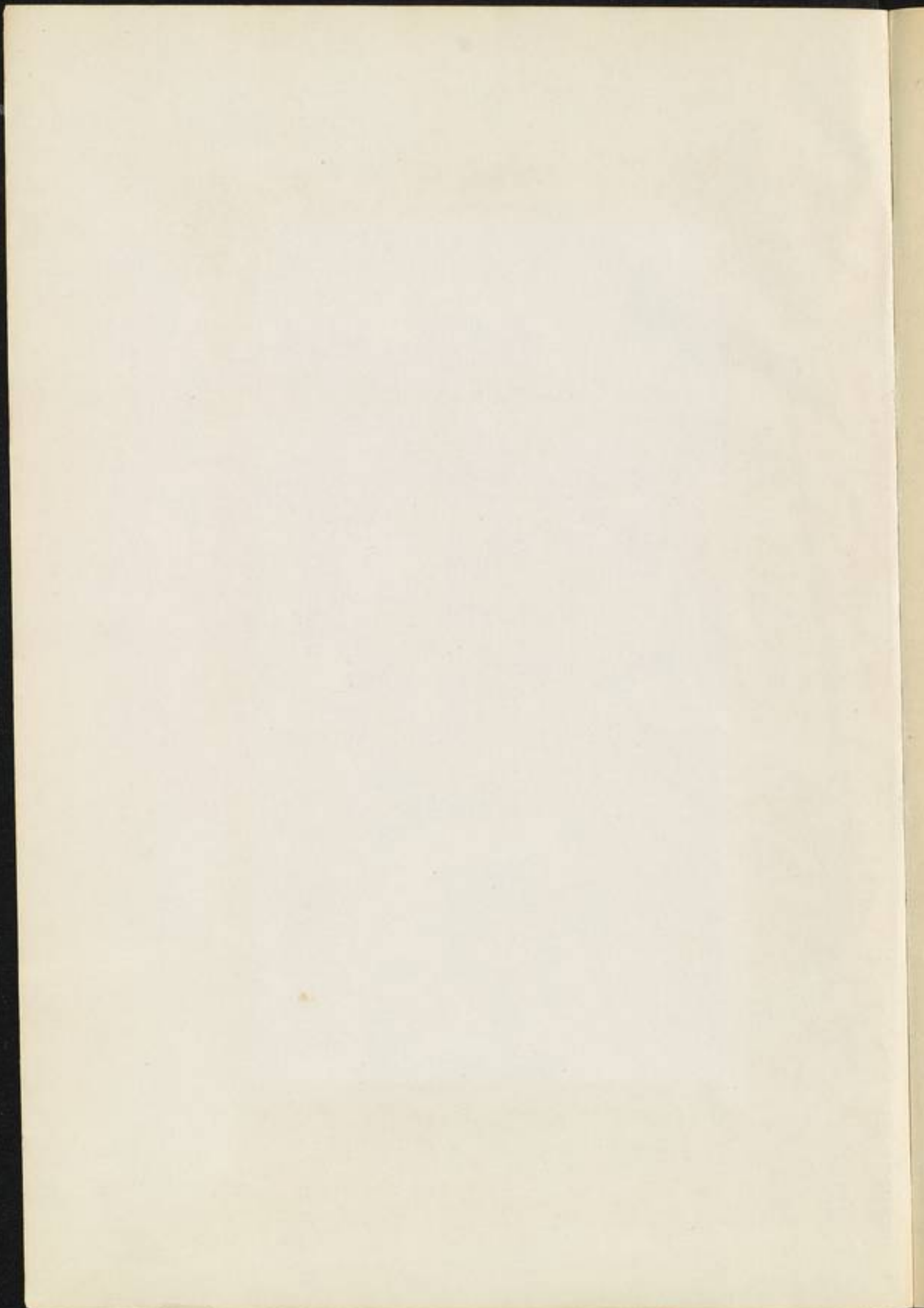
Stevenson, W. B. : *The Crusaders in the East* (Cambridge, 1907).

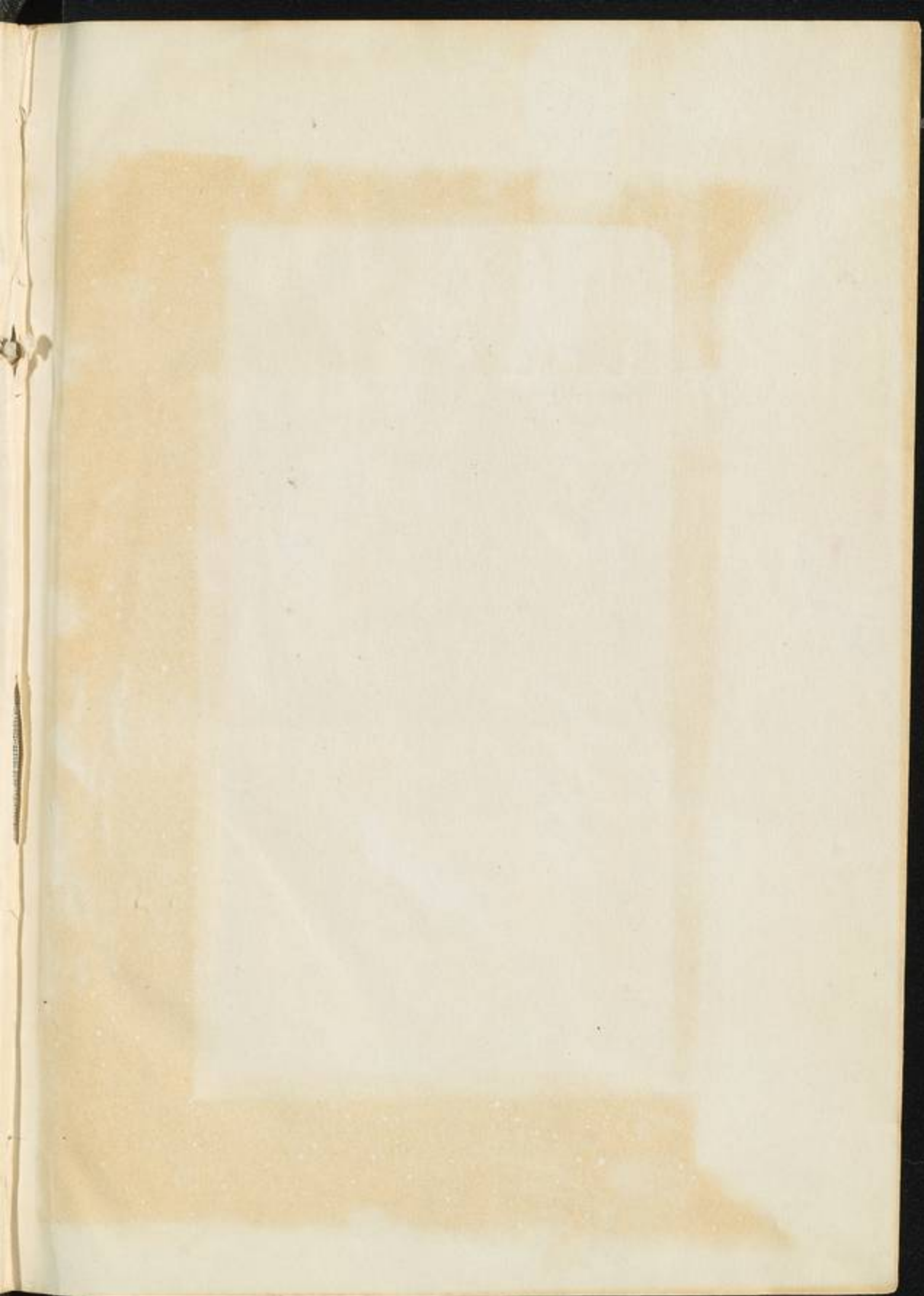
Van Berchem, *Voyage en Syrie*.

فهرست

صفحة	تصدير
١	مقدمة
	الفصل الأول : القوى الإسلامية والمسيحية بالشرق الأدنى
٩	في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي
٤١	الفصل الثاني : السلطان نور الدين وبلدوين الثاني ملك بيت المقدس
٧٣	الفصل الثالث : نور الدين وبقايا الصليبيين بالشام
	الفصل الرابع : التنازع على مصر بين السلطان نور الدين
١٠١	والملك أموري
	الفصل الخامس : مظاهر الحياة العامة في المجتمعين الصليبي والإسلامي
١٤٥	في الشرق الأدنى خلال القرن الثاني عشر
	ثبت باختلاف رسم الأعلام في المراجع العربية والفرنجية
١٦٤	في العصور الوسطى
١٦٦	المراجع : العربية والفرنجية







893.713
H113

JUN 12 1956

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58868755

893.713 H113

Nur al-Din wa-al-Sal

RECAP